

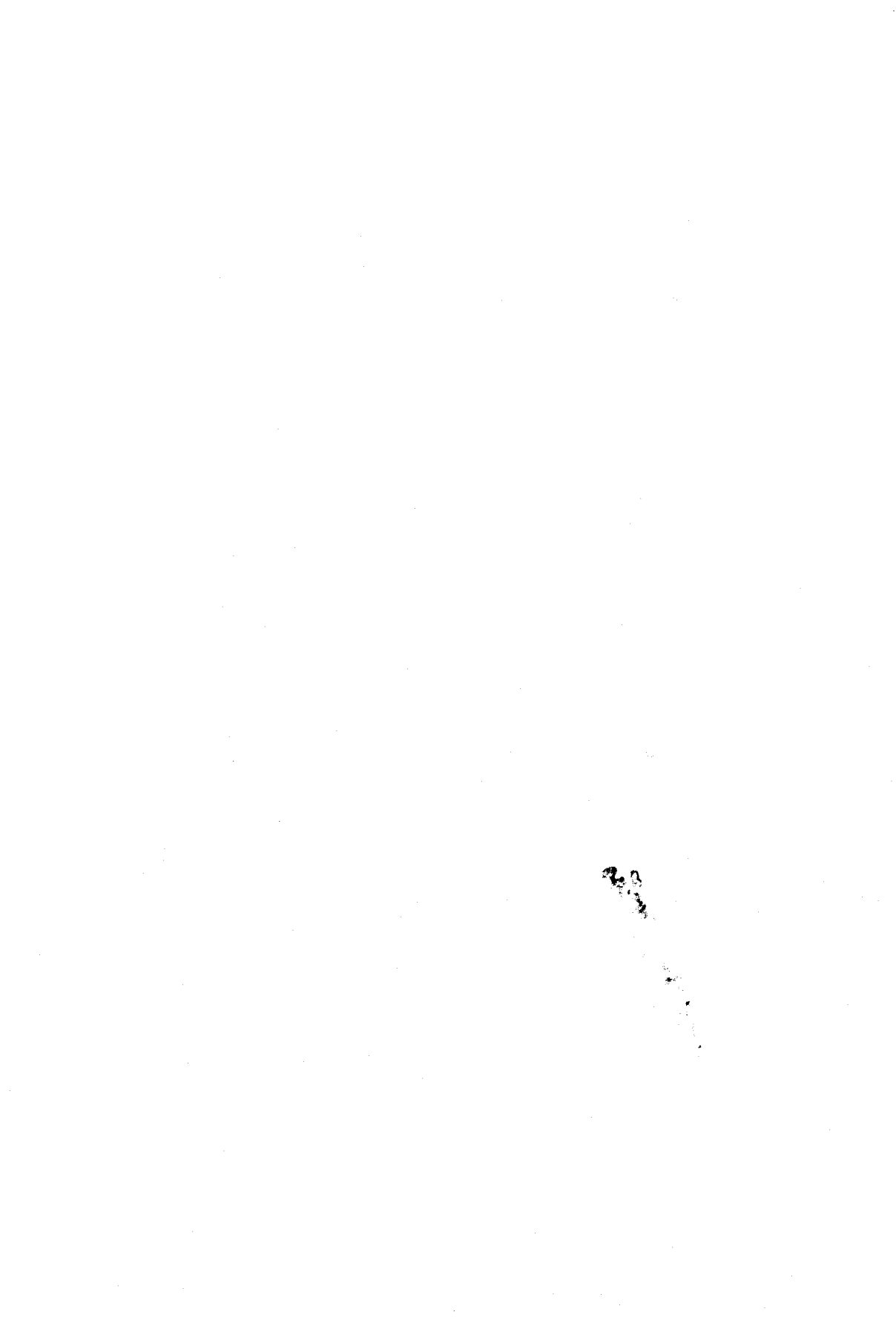
المفاخرات في المناظر

- ١- مقامة في المفاخرة بين الماء والهواء للشيخ أحمد البربر
- ٢- المفاخرة بين الشمس والقمر للشيخ بهاء الدين البطار
- ٣- غريب الأنباء في مناظرة الأرض وسماء للشيخ محمد المبارك
- ٤- نضرة البهار في محاوره الليل والنهار للشيخ محمد المبارك
- ٥- أبهى مقامة في المفاخرة بين الغرّة والإقامة للشيخ محمد المبارك
- ٦- مناظرة بين علم وأجهل للشيخ محمد النسي

عُنيَ بِهَا

الدكتور محمد حسان الطيّان

جامعة الكويت - كلية الآداب



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

دار البشائر الإسلامية

للطباعة والنشر والتوزيع هاتف: ٧٠٢٨٥٧ - فاكس: ٧٠٤٩٦٣ / ٠٩٦١١

e-mail:

bashaer@cyberia.net.lb

صرب: ١٤/٥٩٥٥

بيروت - لبنان

١٧ ١٤٣٥ هـ

المفاخرات والمناظرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدِّ البلقاء
والفضحاء المبينين، محمَّد ﷺ وآله وصحبه الغرِّ الميامين .

اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذ بك من فتنة القول كما أعوذ بك من فتنة العمل،
وأعوذ بك من التكلف لما لا أحسن كما أعوذ بك من العُجب بما أحسن،
وأعوذ بك من السَّلاطة والهَذْر كما أعوذ بك من العِيِّ والحَصْر، وأسألك
السداد والإخلاص وتمام النعم .

وبعد، فقد عرف أدبنا العربي من أفانين القول في الشعر والنثر
والخطابة والترسُّل . . والحكمة والمثل . . . ما أتَّشَح به تاريخه الطويل بياناً
وبهاءً . . وبلاغة وفصاحة . . وجمالاً وإمتاعاً . . وكان لتنوع هذه الفنون أثر
كبير فيما وصل إليه هذا الأدب من رفعة ومكانة لا تكاد تدانيها مكانة .

على أن أكبر الأثر في هذه المنزلة والمكانة إنما يعود إلى ذلك النوع
الذي شَرَّف الله به العربية وآدابها فسمت على آداب الدنيا قاطبة وهو القرآن
الكريم، كلام الله المبين، وحبل الله المتين، وآيته المعجزة، لا تنقضي
عجائبه، ولا يَخْلَق عن رد .

يزيد على طول التأمل بهجةً كأنَّ العيون الناظرات صياقل

* * *

والرسائل التي تقدّم لها هنا تنتمي إلى فنّ جَمَعَ هذه الفنون كلّها، وهو فن المقامة، ولعله من أطرف فنون الأدب وأغناها، إذ يتنقل فيه قارئه بين ألوان الأدب حتى لا يكاد يُخلف واحدةً منها، فما شئت من نثر وشعر... وقرآن وحديث... ومثل وحكمة... يجمع ذلك كله ويؤلف بينه كلام مسجوع تنوّق فيه أصحابه حتى بلغ الغاية أو كاد، وإن لم يخل من تكلفٍ وتمخّل أحياناً؛ وعذرهم في ذلك أنّ المقامة لا تقوم إلّا على هذا، فهي - كما يعرفها الدّارسون - : «نص أدبي مسجوع مرصّع بالمحسنات البديعية وغير مقيّد بطول معيّن، يتعاطاه الكاتب لإظهار براعته وتفوّقه أو لإبداء رأيه في قضية ما، أو لالتّخاذة ستاراً للتعبير عن نزعاته الظاهرة أو المكبوتة أو للدلالة على مكانته»^(١).

أما مضمون هذه الرسائل فينتظمه خيط واحد يجمع بينها وهو المفاخرات، ثم هي تنوّع بتنوّع المقامات، ففي المقامة الأولى مفاخرة بين الماء والهواء، وفي الثانية مفاخرة بين الشّمس والقمر، وفي الثالثة مفاخرة بين الأرض والسّماء، وفي الرابعة مفاخرة بين اللّيل والنّهار، وفي الخامسة مفاخرة بين الغربة والإقامة، وفي المقامة السادسة - وهي الأخيرة - مفاخرة بين العلم والجهل.

وبرغم اختلاف مؤلّفي هذه المقامات - وقد ترجمنا لكلّ منهم قبل نص مقامته - فكأنّما ينزعون عن قوس واحدة شكلاً ومضموناً. . . مبنيّ ومعنى - وإن اختلف قُطب المناظرة بين كلّ منها - حتى لكأنّ

(١) عن كتاب «الإمام الحافظ جلال الدّين السيوطي معلمة العلوم الإسلامية» للأستاذ إياد خالد الطباع، ص ٢٤٧.

مؤلفها واحد، ممَّا يؤدِّن بأن أصحابها يحاكون فيها مثلاً سابقاً يتقيلون
آثاره.

* * *

هذا وقد سبق لكلِّ من هذه المقامات أن طبع طبعة حجرية قديمة
تعود إلى بدايات القرن السابق (الرابع عشر الهجري = العشرين
الميلادي)^(١)، فأحبَّت دار البشائر الإسلامية أن تسهم في نشر هذا اللون
من الأدب بما عهد القراء في نشراتها من جمال الإخراج وأناقة الطباعة
وتخيّر الموضوع ودقَّة التصحيح.. إلى غير ذلك من بصماتها المتميِّزة
التي لا يخطئها أيُّ عاشق للكتب أو محبِّ للتراث في عصرنا، فأنت مع
مطبوعاتها في نعيم لا يبید.

وإن كان من فضل في المبادرة إلى إخراج هذه الرسائل بهذا اللبوس
الزاهي فهو مصروف إلى أخوين فاضلين جمعا من كريم الشمال ما يندر
وجوده في هذا الزمان.

أولهما الأستاذ المحقق الشيخ محمد بن ناصر العجمي، الذي حوَّل
غربتي إقامة، وليلي نهاراً، وأرضي سماء.. كيف لا؟! وقد أحاطني
بجميل عطفه وجيل مكرماته، فالله وحده من يتولَّى جزاءه.

إذا نحنُ أثينا عليكِ بصالحٍ فأنتَ كما تُثني وفوقَ الذي تُثني
وهو صاحب الفضل في تخيُّر هذه الرسائل وجمعها والتأليف فيما
بينها والترجمة لأصحابها ومتابعة إخراجها.

(١) أشرنا في مستهلِّ كلِّ مقامة إلى تاريخ نشرتها السابقة.

وثانيهما الأستاذ الناشر رمزي دمشقية، الذي أحسن الظنّ بي،
فرغب إليّ أن أقرأ هذه الرسائل بغية ضبطها، وتفصيلها، وترقيمها،
وتمييز شواهداها، ووزن أشعارها، وشرح غريبها... فجزاهما الله عنّي
خير ما جزى صاحبًا عن صاحبه وخليلاً عن خليله.

وأسأله سبحانه أن يتقبّل هذا العمل وينفع به، إنّه خير مسؤول وبه
المستعان وعليه التكلان.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الدكتور محمد حسان الطيّان

دمشق - ضاحية دمر

الخميس ١٧ جمادى الأولى ١٤٢١ هـ

١٧ آب ٢٠٠٠ م

المفاخر في المناظرات

(١)

مقامه في المفاخره بين الماء والهواء

تأليف

الشيخ أحمد بن عبد اللطيف البربري الحسيني البيروتي

(١١٦٠ - ١٢٢٦ هـ)

عني بها

الدكتور محمد حسن الطيان

جامعة الكويت - كلية الآداب

دار النشر الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف (١)

هو العلامة الأديب، والشاعر النَّاثِر؛ أديب الفقهاء، وفقه الأديباء؛
الشيخ شهاب الدّين أبو العباس أحمد بن عبد اللطيف بن أحمد بن محمد
البربر الحسني البيروتي الأصل، الدميّاطي المولد، الدّمشقيّ وفاة.

وُلِدَ بدمياط سنة ١١٦٠هـ لأبٍ تاجر، ولَمَّا نشأ أخذ بطلب العلم،
فحفظ القرآن الكريم صغيراً، ثمّ لَمَّا بلغ اثنتي عشرة سنة حفظ ألفية ابن
مالك، وحضر شرحها لابن عقيل على الشيخ عبد الحيّ فتح الله. وعند
الثالثة عشرة تعلق بنظم الشعر؛ فصار يشبب ويتغزّل؛ فاعترض عليه في
دعوى الصباة بعض الأديباء، فأنشد:

لقد أنكرَ اللاحي شجوني وصبوتي

لكوني صغيراً قلتُ لا تُنكروا الفضلا

(١) مصادر ترجمته: «حلية البشر» لعبد الرزاق البيطار (٢١٧/١)؛ و«أعيان
دمشق» لجميل الشطي (ص ٣٣)؛ و«منتخبات التواريخ لدمشق» للحصني
(٢/٦٤١، ٦٧٥، ٨٥٧)؛ و«الأعلام» للزركلي (١/١٤٨)؛ و«أعيان القرن
الثالث عشر» لخليل مردم بك (ص ١٤٥)؛ و«معالم وأعلام» لأحمد قدامة
(١١٧/١).

رَأَى الْهُوَى طِفْلاً فَمَازَحَ مَهْجَتِي

وَمِنْ عَادَةِ الْمَزَاحِ أَنْ يَأْلَفَ الطِّفْلاً

ثم حضر قراءة المنهج وتفسير البيضاوي على الشيخ محمد الدنهيجي، وجمع الجوامع على الشيخ عبد السلام أبي النصر، وتجريد الخطيب وابن قاسم مرارًا على الشيخ عبد الحي، وقرأ عليه أيضًا مختصر السعد والسلم للأخضري وغيره، وحضر على الشيخ مصطفى المحلي - الشهير بالسَّقَا - شرح الهدهدي وشرح اللقاني على الجوهرة والاستعارات لعصام، وحضر على الشيخ أحمد البستاني في العروض والفرائض والأشموني على الألفية.

وفي سنة ١١٨٣ هـ هاجر إلى بيروت، فتضايق أول أمره حين نزل بها، وأنشد:

لَقَدْ غَرَّنِي إبْلِيسُ قَوْمِي بِقَوْلِهِ

تَغَرَّبَ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلْبِ الْمَجْدِ

كَمَا غَرَّ إبْلِيسُ الشَّيَاطِينَ أَدَمًا

وَأَخْرَجَهُ بِالْمَكْرِ مِنْ جَنَّةِ الْخَلْدِ

ثم رحل إلى دمشق، فوافق مجيئه قدوم محمد أبي الذهب، فلم يجتمع بأحد من فضلائها سوى الشيخ مصطفى الرحمتي، فلما لقيه أنشده:

أَيُّهَا السَّاكِنُونَ رَوْضَ دِمَشْقِ حَزُنْتُ فِي الْأَنَامِ عَيْشًا رَفِيهَا

قَدْ سَكَنْتُمْ قُصُورَ جَنَاتِ عَدْنِ وَظَفَرْتُمْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ فِيهَا

وقد طلب منه الأمير يوسف الشهابي أن يتولى الفتوى والقضاء في بيروت، فامتنع الشيخ البربير عن ذلك حتى أقنعه الأمير بالموافقة، غير أن

الشيخ وضع شروطًا لقبوله، فإذا أخلَّ الأمير بإحداها اعتزل المنصبين، وكانت الشروط هي:

* أن لا يتصدَّى الأمير للدعوى بعد أن يكون هو فصلها بمجلس قضائه، وأن يأمر بتنفيذها دون إبطاء.

* إذا كانت الخصومة بين الأمير وبين أحد المواطنين العاديين، وكان الحُكْم ضد الأمير، فإنَّ على الأمير أن ينفذ ما أمر به الشرع الحنيف.

* أن يبعث الأمير من قبله أحد أتباعه ويجلس في المحكمة لتحصيل ما على الدعوى من الرسوم المقررة بين القضاة.

* أن لا يلتزم الشيخ البربير بارتداء الزيِّ المقرَّر للقضاة من لبس العمامة والفرجِيَّة.

وبقي الشيخ في القضاء يتمنى أن يخلَّ الأمير بشرط حتى يتخلَّص، فما وقع ما أراد، فصار يتمنى أنه لم يكن خُلِق أو يتمنى زوال عقله لينجو. وعندما ولي القضاء أنشد:

قد عدلنا وما عدلنا بغِيٍّ وحكمنَّا بأمر ربِّ السماءِ
فأبى النَّاس حكمنَّا ولعمري قلَّ مَنْ يرتضي بحكم القضاءِ

وقوله:

رمانِي زماني بما يجهدُ فمَن ذا أرومُ ومَن أقصدُ
وأوقفني في القضاءِ القضا وما كنتُ أحسبه يوجدُ
وظيفةُ كُرْبٍ، لأنقالها تراني لموتي الرَّدَى أحمدُ
وحسبي انقلاب صديقي بها عدوًّا، إذا فاته المقصدُ

فباطنها الذلّ والابتلا
وإذ ليس دأبي ولا ديدني
وظاهرها العزّ والسؤددُ
ولا أرتضيه، ولا أعمدُ
وصعبُ على المرء تكليفُهُ
أمرًا خلاف الذي يَعَهْدُ

وقيل: إنَّ الأمير يوسف الشهابي حين أطلع على هذه الأبيات دخلت قلبه خشية الله، فبادر إلى إعفاء الشيخ من القضاء وعيّن له مرتبًا يكفيه، فامتدحه الشيخ البربير بقوله:

أميرُنَا أكرم من حاتمِ
بحلمه أدركت ما أشتهي
له بنانُ ضاق عنها الفضا
وقد كفاني الله شرَّ القضا
وقال أيضًا:

أميرٌ عظيمٌ له رتبةُ
قصرتُ ثنائي على وصفه
على غيره صعبةُ المرتقى
وأعطيتُهُ في الوري مؤثقا
ولا غرو في كونه وارثا
ثنائي دون الوري مطلقا
فقد أعتق القلب من كربهِ
وصحَّ الولاء لمن أعتقا

وبعد ذلك أنشأ مكتبًا (كُتَابًا) لتعليم الأطفال قانعًا بما يناله منه من الرزق الكفاف، إلا أنه لم يسدّ حاجته، وافتقر.

وفي سنة ١١٩٥هـ عزم على الرحيل إلى دمشق ورجب في سكنها، ورأى أنها خير البلاد. فلما قصدها نزل بالشيخ خليل المرادي - مفتي دمشق - فلمّا دخل عليه مدحه بقصيدة طرب لها ورفع شأنه عنده.

سكن الصّالحيّة واستقرَّ بها وأعجب بها غاية الإعجاب، وذكرها بشعره مادحًا يقول:

قد ظفرنا بعيشةٍ مرضيةٍ
 ورأينا الزهورَ تبسمَ لطفًا
 وجواري السحابِ جَلَلَتِ الأَر
 رقص الماءُ من غنا الطيرِ حتى
 وجهُ روضِ يريكِ نجلَ عيونِ
 وقدودًا من الغصونِ نشاوى
 حبَّذا حبَّذا معاني مغانِ
 ويقول أيضًا:

في الصَّالِحِيةِ ذو أيادٍ عندهم
 قومٌ قد استغنوا بعبدٍ غنيهم
 ملقى الضيوفِ كفرضِ عينٍ لازمِ
 وتعلَّموا من جُودِ ذاكِ الحاتمي

* * *

وقال الشيخ عبد الرزاق البيطار في «تاريخه»: كان والده يتعاطى
 التجارة. ولما بلغ رُشدَه حفظ القرآن العظيم وجملة من أحاديث النبي
 الكريم، ونظم الشعر وهو ابن ثلاثة عشر عامًا. وحضر إلى بيروت وطنه
 الأصلي في سنة ١١٨٣هـ، ثم توجَّه إلى دمشق، ثم عاد إلى بيروت
 فأكرهه الأمير يوسف الشهابي على تولِّي القضاء بها، فقام بأعبائه ثم
 استعفى منه لورعه، ثم عاد إلى دمشق سنة ١١٩٥هـ، وسكن بالصالحية.
 وأخذ عن العلامة الشيخ مصطفى الصلاحي، وشرح له شيخه المرقوم
 بديعته المشهورة^(١).

* * *

(١) «حلية البشر» للبيطار (١/٢١٧).

وقال الشيخ القياياتي: «عالم فاضل نحري من كبار العلماء المشاهير. له مؤلفات جليلة ومصنّفات جميلة، في العلوم العربية والفنون الأدبية. أطلعتُ له على شرح بديع يشهد له بحسن الصنيع، يسمّى بـ: «الفتح الجليّ على بيتي الموصلّي»، وقد طُبِعَ هذا الكتاب بالمكتبة الأدبية في بيروت، واشتغل الفقير بخدمة تصحيحه مع حضرة الشّاب إبراهيم الأحذب. وهو كتاب لغة وأدب كله عجب، وقد أُهديت إلينا منه نسخة بعد الطبع ظريفة الشكل والوضع.

وله: «الفصيحة العجما في قوله ﷺ: «أحب حبيبك هوناً ما»». و«محاكمة بين الماء والهوى»^(١)، وغير تلك الأشياء من الكتابة الفائقة والأشعار الرقيقة الرائقة، مع لطافة النكتة وظرافة الذائقة.

ومما حكاه لي قريبه أبو إبراهيم البربير أنه كان ذات يوم عند أحد أعيان شرفاء مكة المكرمة، وكان في إصبه^(٢) خاتم وله فصّ من الأحجار الثمينة، فانكسر الحجر وسقط من يده، فتشاءم الشريف من ذلك، فأنشد الشيخ على البديه من كلامه وبديع نظامه:

لا تخشَ يا ابنَ رسولِ اللّهِ من حجرٍ

رأى المكارمَ في كفيك فانفجرا

فإنَّ سعدك سعدٌ لا نظيرَ له

فاق السعودَ وأضحى يفلق الحَجرا»^(٣)

* * *

(١) وهي هذه التي بين يديك.

(٢) أي الشريف.

(٣) «نفحة البشام في رحلة الشّام» للقياتي (ص ١٦).

ووصفه كمال الدّين الغزّي بـ: الشيخ العالم الفاضل الأديب الشاعر
المُجيد المُفلق الناظم النائر المفتنّ الأوحد.

وقال: وُلِدَ في عاشر محرم ١١٦٠ بدمياط، وبها نشأ، وقرأ القرآن
على الشيخ قاسم بن داود تجويدًا وحفظًا، وأخذ الفقه والعربية عن جماعة
كالشمس محمد الدنهيجي، والشهاب أحمد البستاني، والعزّ بن
عبد السلام بن نصر، والشيخ عبد الحيّ بن فتح الله البيروتي، وأخذ عن
السيد محمد مرتضى الزبيدي، والشيخ صالح المغربي الفلاني، والسيد
عبد الرحمن العيدروسي، وغيرهم. ورحل إلى بيروت وتوطنها سنة
١١٨٠هـ وحج سنة ١٢٠٣هـ، وقدم دمشق قبلها وبعدها^(١).

* * *

وقال خليل مردم بك^(٢): ومن مؤلفاته: مقاماته التي أولها: «حكي
بليغ هذا الزمان والعصر، من حديث ألدّ من سُلَافة العصر». وله بديعيّة
علّق عليها شروحا: مصطفى بن عبد الوهاب بن سعيد الصلاحي، وله
كتاب: «الشرح الجليّ على بيتي الموصليّ»، وهو تأليف واسع أودعه
صاحبه فنونًا من الآداب وفصولًا في كل علم من العلوم، والموصلي
المذكور هو عبد الرحمن بن إبراهيم الموصلي. أما البيتان اللذان شرح
البربر رمزهما، فهذان:

إِنَّ مَرَّ وَالْمَرَّةَ يَوْمًا فِي يَدِي مِنْ خَلْفِهِ ذُو اللَّطْفِ أَسْمَى مِنْ سَمَا
دَارَتْ تَمَائِيلُ الزَّجَاجِ وَلَمْ تَزَلْ تَقْفُوهُ عَدْوًا حَيْثُ سَارَ وَيَمَّمَا

(١) «موسوعة علماء المسلمين» (١/٣/٣٠٩).

(٢) «أعيان القرن الثالث عشر» له (ص ١٤٥، ١٤٦).

ومن شعر البربر، قوله في التوحيد:

لقد آمنْتُ بالله وأصْبَحْتُ به آمِنٌ
هو الأوْلُ والآخِرُ والظَاهِرُ والباطِنُ
وقوله في كبح الشهوات:

إنَّ الذينَ يجاهدونَ النفسَ شَبَّانًا وشيئا
مَنْ الإلهَ بنصرِهِم وأثابهم فتحًا قريبًا

* * *

وذكره تلميذه مفتي بيروت العلامة عبد اللطيف فتح الله في ديوانه،
حيث قال مادحًا جنابَ قُرَّةِ عين الأديباء الكرام، وواسطة عقد الجهابذة
الفخام، حضرة شيخه السيد أحمد البربر، وكان إذ ذاك حضر من دمشق
الشام سنة ١١٩٨هـ^(١):

شَمْسُ الكَمَالِ كَسَا بَيْرُوتَنَا حُلَلًا مِنْ نُورِ طَلَعَتِهِ لَمَّا حَلَا وَحَلَا
غَزَالُ سِرْبٍ غَزَا الأَلْبَابَ نَاظِرُهُ وَثَوْبٌ سَقَمَ لِجِسْمِي بِالهُوَى غَزَلَا
بَدْرُ الجَمَالِ جَمَالَ البَدْرِ حَلَّ بِهَا قَدْ حَلَّ بُرْجَ العُلَى وَالعِزَّ مُكْتَمَلَا
الجَوْهَرُ الفَرْدُ عَقْدُ المَجْدِ مَنْ نُظِمَتْ

بِهِ الفَضَائِلُ حَتَّى زَيَّنَ الفُضَالَا
وَمَنْ سَمَا فِي سَمَاءِ العِزِّ مُرْتَفِعَا فَوْقَ السَّمَاءِ عَلَى أَوْجِ الشَّهَى وَعَلَا
الأَلْمَعِي حَسَنُ الأَفْعَالِ ذُو حَسَبِ عَلِيٌّ قَدْرَ عَلِيٍّ أَمْثَالِهِ كَمَلَا
أَعْنِي بِذَا أَحْمَدَ البَرْبِرِ مَنْ جُمِعَتْ فِيهِ مَزَايَا بِهَا قَدْ نَبُلُغُ الأَمَلَا

(١) «الديوان» (١/٤٩، ٥٠)، وقد ذكره مادحًا له في مواضع منه (١/٥٢، ٥٥،

٦٠ - ٦٢، ٦٦، ٧٠، ٧٧، ٧٨).

نَسَلُ الْأَكَارِمِ بَحْرٌ مِنْ مَكَارِمِهِ إِكْرَامٌ وَافِدِهِ إِنْ نَحْوَهُ وَصَلَا
كُلُّ الْمَحَاسِنِ نُورٌ مِنْ مَحَاسِنِهِ
لَمَّا عَلَى الْحُسْنِ مِنْ دُونِ الْوَرَى أَشْتَمَلَا
لَهُ حَدِيثٌ غَرِيبٌ النَّظْمِ سَلْسَلَهُ
بِكُلِّ مَعْنَى لَطِيفٍ حَيَّرَ الْعَقْلَا
هَذَا هُوَ الْكُوكَبُ الزُّهْرِيُّ الَّذِي مُحِيتْ

عَنَّا الْغُمُومُ بِهِ لَمَّا الْهُمُومَ جَلَا
شَبَّهْتُهُ الْبَدْرَ لَكِنْ لَيْسَ يُشْبِهُهُ
فَذَا يَغِيبُ وَهَذَا قَطُّ مَا أَفَلَا
هَذَا الَّذِي قَدْ حَوَى حِلْمًا بِلَا شَبِّهِ
لِأَنَّهُ مِنْ كَمَالِ الْحِلْمِ قَدْ جَبَلَا
هَذَا الَّذِي هَامَ قَلْبِي عِنْدَ رُؤْيَيْتِهِ
شَجَا، فَيَا وَيْلَ مَنْ فِيهِ لَنَا عَدَلَا
تَبَسَّمَ الدَّهْرُ مِنْ فِيهِ بِهِ فَرِحَا
يُشِيرُ لِي أَنَّهُ قَطْبُ الزَّمَانِ بِلَا
يَمُّمَ حِمَاهُ لَتَجْنِي مِنْ بَدَائِعِهِ
دُرَّ الْعُقُودِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ الْأَجَلَا
وَأَقْصَدُهُ تَهْدِكَ نِيرَانُ الْقَرَى سُبَلَا
لِرَبْعِهِ الْمُعْتَلَى مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسَلَا
وَلَا تَكُنْ غَافِلًا عَنْ فَيْضِ رَاحَتِهِ
فَلَيْسَ يَنْكَرُ ذَا، إِلَّا الَّذِي جَهَلَا
لَا زَالَ طَالِعُهُ بِالسَّعْدِ مُقْتَرِنَا
يَزِيدُهُ رِفْعَةً، لَا تَنْتَهِي، وَعَلَا
مَا هَزَّ غُضْنَ الرُّبَى رِيحٌ وَمَا نَشَدَتْ
شَمْسُ الْكَمَالِ كَسَا يَبْرُوتَنَا حُلَلَا

زواجه ومؤلفاته :

تزوج الشيخ من آل الشمعة بدمشق بعد استقراره بها، ولكنه لم
يُرزق بولد.

ترك جملة من مؤلفات ضاع معظمها، وبقي منها:

— شرح بيتي الموصلي (طبعة المطبعة الأدبية ببيروت).

- كتاب في اقتباس القرآن .
- الفصيحة العجما في الكلام على حديث «أحب حبيبك هوناً ما»^(١) .
- رسالة في المفارقة بين الماء والهواء (وهي التي بين يديك) .
- تشطير البردة .
- قصيدة بديعية .
- جملة رسائل ومقامات .
- رسالة زهر الغيضة في ذكر الفيضة .
- ديوان شعر .

وفاته ورثاء تلميذه له :

تُوِّفِّي الشَّيْخَ الْبَرْبِيرَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ خَتَامَ سَنَةِ ١٢٢٦ هـ^(٢)، وَقَدْ رثاه تلميذه، مفتي بيروت، الشيخ عبد اللطيف فتح الله، بقوله^(٣) :

ما للحمام لا تكادُ تطيرُ؟	ما للأراضي بالأنامِ تمورُ؟
ما للجبالِ الشامخاتِ تدكدكتُ،	وأبو قَيْسٍ قد هوى وثيرُ
ما للنفوسِ تكادُ تُزهقُ لوعةً،	ولها شهيقٌ قد علا وزفيرُ
ما للعيونِ دموعها مصبوبةٌ	مثلُ الدماءِ على الخدودِ تسييرُ
فكأنها، حُمْراً وسوداً، أحرفُ	لكنها فوقَ الخدودِ سطورُ

(١) طُبعت هذه الرسالة في دار البشائر الإسلامية ضمن مجموع رسائل «لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام» رقم (١٠)، بتحقيق الأخ الشيخ رمزي دمشقية .

(٢) «ديوان عبد اللطيف فتح الله» (١/٣٧٤) .

(٣) «الديوان» (١/٣٧٥، ٣٧٦) .

ما بال قلبي قد تلَّهَب حُرقة؟ ..
ما للنجومِ غربنَ وهي طَوَالِعُ
ما للشموسِ لبسنَ في رَأدِ الضحى
ما للجنانِ تزخرَفَت ثم اغتَدَى
وتزيَّنتِ ولدانها وتقلَّدت
فعجبتُ من هذا وقلنا حادث
فأجبتُ: لا تذهل.. وقيل لي: انتبه!

من أين فيه جهنمٌ وسعيرٌ؟ ..
جُنَحَ الدجى، وخَسَفَنَ وهي بدورُ
ثوبِ الكسوفِ وما لهنَّ ظهورُ
منها يلوخُ منازلٌ وقصورُ
عَقَدَ الجواهرِ في النحورِ الحورُ
في الكونِ بانَ وإنه لكبيرُ

فاليوم مات العالمُ النحريرُ

نجمُ العلومِ الجهبذُ المشهورُ
شمسُ الحقيقة: أحمدُ البريرُ
منه استمدَّت في الأنامِ بحورُ
في طوعه التحقيقُ والتحريرُ
والفقه، والتوحيدُ، والتفسيرُ
للنقل أو للعقل، وهو شهيرُ
وأقرَّ منه طرفه تقريرُ
فأطاعه المنظومُ والمنثورُ
صَوغًا على الإتيانِ ظلَّ يدورُ
كلًا، ولا بسواه فيه شعورُ
ويكاد في سحر البيان يطيرُ
نحو الفرزدقِ عندهُ وجيرُ؟ ..
منها العظيمُ، كموتِه، وحقيرُ
عُمرُ الكرامِ من الأنامِ قصيرُ!

شيخُ الجَهَابِذِ والأفاضِلِ مفردًا
بدرُ الشريعة والطريقةِ والهُدَى
بحرُ المعارفِ ما له من ساحلِ
ربُّ الفطانَةِ والفُهومِ مع الذكا
عنه الحديثُ سماعُهُ قد ينبغي
وكذا الأصولُ، وكلُّ فنٍّ ينتمي
كم قلبِ علمٍ سرُّهُ تَأليفُهُ
مولَى القوافي قد تملك أمرها
فيها تصرَّف كيف شاء، وصاغها
من كلِّ معنى ليس مسبقًا له،
من كلِّ مختَرَعٍ يسيلُ بلاغَةً
ما بالبحرئى لديه؟ ما سحبانُ؟ ما
فيه أصبنا، والمصائبُ جَمَّةٌ،
لا بدعَ إن ذهبَ الكرامُ فإنما

ويكونُ فيها الطولُ والتأخيرُ
هيهاتَ منها مثلهُ ونظيرُ
يفنى الزمانُ وما له تغييرُ
جُذنا بها، وبها الفداءُ يسيرُ
لم ينبجُ منه كبيرُنا وصغيرُ
ظنُّ الخلودِ جهالةٌ وغرورُ
بل لم يكنِ للأنبياءِ قبورُ
والصبرَ عند الرُّزءِ، فهو قديرُ
خيرُ المصابِ مُسَلِّمٌ وصبورُ
أودى، فراح إلى الجنان يسيرُ
بضريحِ محيي الدين وهو منيرُ
نعمَ الجوازُ، وكم له تأثيرُ
ما غرّدت فوق الغصون طيورُ
ما للحمائِمِ لا تكادُ تطيرُ

يا ليت أعمارَ الكرامِ مديدةً،
يا ويحَ بيروتِ وقلّةَ حظّها،
لكنْ لها فخرٌ به لا ينتهي
أرواحنا، لو كان فيها يُمتدى،
لكنْ فناءُ الخلقِ حُكْمٌ نافذُ
ما كان في الدنيا خلودٌ لامرئٍ
لو كان فيها لم يمتَ فيها امرؤُ
فاللّهُ يلهمُّنا الرضاءَ بحكمِهِ
والحكْمَ للهِ العليِّ وإنما
في صالحيةِ جَلَّقِ ورياضِها
وضريحه في روضةٍ قد أنورت
بجوارهٍ قد حلَّ وهو ضجيعُهُ
فعليةِ رضوانٍ ورحمةُ ربِّه
أو ما ابنُ فتحِ الله أنشدَ رائيًا



مقامته في المفاضرة بين الماء والهواء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمداً^(١) لمن خلق العناصر، وجعل لكل منها فضلاً تُعقدُ عليه الخناصر. وصلاةً وسلاماً على الجوهرِ الفردِ الذي منه عَرَضُ العالم، ومن هو في الدارين سيِّدُ بني آدم. وعلى آله وصحبه، وَمَنْ تَعَلَّقَ بِحَبِّهِ. ما اكتحلَّتْ عيونُ الطروسِ بمراودِ^(٢) الأقلام، وقُلِّدَتْ نحوورُ الدروسِ بعقودِ ألفاظِ العلماءِ الأعلام.

وبعدُ: فإنَّ الفكرَ والخيال، دَخَلَ بي إلى رياضِ ضاعَ^(٣) زهرها، فنَمَّ عليه النسيمُ ودارَ عليه الماءُ الزلال. أكلها دائمٌ وظلُّها، كأنما قابلتُ مرآتها جنَّةَ النعيمِ فانطبعَ فيها مثالها وشكلها.

فتلقَّتنا عودياتُ طيورِها بالصَّدْح، ومجامر كمامٍ ورودها بالنفح،

(١) طبعت هذه المقامة طبعة حجرية قديمة تعود إلى سنة ١٣٠٠هـ، وقد أورد نصها كاملاً الشيخ عبد الرزاق البيطار في كتابه حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ضمن ترجمة مؤلفها الشيخ أحمد البربر، وعلق على النص محقق الحلية الشيخ بهجة البيطار رحمهم الله جميعاً. فاستعنت بنص الحلية في تقويم نص المقامة، وأوردت بعض تعليقات المحقق معزوة إليه برمز (ب). وبالله المستعان.

(٢) جمع مِرْوَد: وهو الميل من الزجاج أو المعدن يُكتحل به.

(٣) ضاعت الرائحة: طابت وفاحت.

وزهرها بثغرٍ باسمٍ ونهرها بقلبٍ صافي^(١)، وأدواحها ببسطِ البسطِ من ظلّها الضافي. وقامت لنا الأشجار على سوقها، وسفرت لنا عرائسُ الورود عن لثامِ غبوقها. وأدارت علينا سلافَ ظلها كؤوس الزهور، قبل أن ترشفه شمسُ البكور. وحيثنا راحة الرّاحةِ والسرور، بأصابعِ المنثور. وغنت لنا مُطوّقاتُ شواذها على العيدان، وأعربت وهي عجماء بفنونٍ تمايلت لها قدودُ الأفنان. حتى لو سمعها ركبُ العشاق، على النوى لنسي الحجاز والعراق. وتمنى الدخولَ لذلك البستان. ورقصت بين أيدينا جوارى الماء، وظهرت مع وجود شموسنا وبدورنا نجوم^(٢) النبات حتى ظنناها نجومَ السماء. ولاح لنا عارضُ الغيثِ وشاربُ الآس فأذكرنا العيشَ السالف، وطاف النسيمُ بكعبةِ صفانا طوافَ القدوم؛ فما كان أطفَ ذلك الطائف.

غير أننا كنا نسمع مُحاورَةَ، ضمنها منافرةٌ ومفاخرَةٌ. فسألنا الرياضَ عن جليّةِ الأثر، فقالت: سلوا النسيمَ فقد أصبح عند النسيمِ الخبر. فوجهنا وجه السؤالِ الوسيم، إلى قبلة النسيم. فتدلّى وتدللّ، وما أطفَ النسيم إذا تعلّل. ثم مرّ بنا مقبلاً ومقبّلاً، هذا وكلّما مرّ حلاً.

وقال: يا أهل الفراسة والسياسة، والفتوة والمروءة والحماسة، إنّها منافسة بين الماء والهواء أوجبها حبُّ انفراد كلِّ منهما عن صاحبه بالرياسة. فهل تنعمون بحضورهما لديكم، ومثولهما بين يديكم. ليعرض كلُّ ما له من حُسن الأوصاف، وتحكموا بينهما بالعدل والإنصاف؟.

(١) حقها أن تكون محذوفة الباء: «صاف». ولكنه أثبتتها لمناسبة السجع.

(٢) جمع نجم، وهو: ما لا ساق له من النبات.

فقلنا: لا نكره ذلك ولا نأباه، فهلمَّ بهما إلينا لنرفع ما بينهما من
 الاشتباه. فشمس الحق لا يحجبها حجاب الباطل، وهيهات تكتم في
 الظلام مشاعل. فلم يزل الحق أبلج، والباطل لجلج. وحسبك قول خالق
 الخلائق: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فعند ذلك سرى النسيم إليهما مسرى النوم في الأجنان، والروح في
 الأبدان، والراح في النَّدْمَان^(١). فأتى بهما وهو يتبسّم ويتنسّم ويتسّم،
 فحيا كل منهما وبيّاً وسلّم.

فقلنا: وأنتما حُييتما بالسلام، وحُييتما^(٢) ما عطس الفجر ودبَّ
 الظلام. فإنكما أعظم دعائم الجماد والنبات والحيوان والإنسان، وأنتما
 الشقيقان اللذان لم يوجد لهما ثالث في عالم الإمكان. فهل ولج بينكما ذو
 نفاق، حتى صدر منكما هذا الشقاق؟ أو ذاك من دسائس النفس الأمارة،
 ووساوس تلك العدوّة الغدّارة الغرّارة؟ التي لا تأمر إلاّ بالشر، ولا تصبو
 إلاّ إلى الضّر!!.

كيف لا؟ وهي عروس إبليس، ومصدر أفعال التديس والتليس.
 أعدى العدى، وسبب الردى. قال لها الحقُّ: أقبلي. فأدبرت، وأعرضت
 عن جنبه واستكبرت. حتى ألقاها في الجوع، وألجأها به إلى الذلِّ
 والخضوع. فالشرّ في إهمالها، والخير في أعمالها وإذلالها. فمن أطاعها
 ندم، ومن عصاها سلم. ومن قهرها بالجهاد فهو بطل، ومن ملكها من
 مدينة جسمه خرب نظام إنسانيته وبطل.

(١) الراح: الخمر. والنَّدْمَان: من النديم، وهو المنادم على الشراب.

(٢) في الأصل: وحيتما وهو تكرر لا يناسب السياق.

فالرأي للعاقل أن يحذر مكرها، ويخالف أمرها. لا سيما إن أمرته
 بقطع رحم القرابة والأدب، أو رحم الصحبة أو الحرفة التي كل منها لُحمة
 كلُّحمة النسب. والمرء قليل بنفسه كثير بالإخوان، والرَّحِم مشتقة من
 الرحمئن. ولهذا يوصل^(١) من وصلها، ويُفصل من فصلها. وخير الناس
 من جنح إلى الصلح، ولم يداو جرحًا بجرح، كما قال الشاعر:

[من الكامل]

داوى جوى^(٢) بجوى وليس بحازم من يستكفُّ النارَ بالحلفاء^(٣)

[من الكامل]

وقال آخر:

مَنْ يُشَفِّ مِنْ دَاءٍ بآخرَ مثله أشرت^(٤) جوانحه من الأدواء

[من الطويل]

وقال آخر:

وما كنتُ إلا مثلَ قاطعِ كفه بكفَّ له أخرى فأصبحَ أجدما

[من الكامل]

والحزم فيما قاله الشاعر:

قومي هم قتلوا أميمَ أخي فإذا رميتُ أصابني سهمي

على أن الدنيا دار زوال، ومنزلة ارتحال، ولا يليق بالعاقل أن ينافس

فيما يزول، ويوجه وجه آماله إلى ما للفناء يؤول، كما قيل:

(١) في الأصل: يصل. وما أثبتته أشبه بالصواب.

(٢) الجوى: شدة الوجد من حزن أو عشق، وداء في الصدر. (ب).

(٣) الحلفاء: نبت أطرافه محددة كأنها سعف النخل. (ب).

(٤) في الأصل: «أثرت» وما أثبتته من الحلية أشبه بالصواب. لأن المعنى: شقت

جوانحه، يقال: أشر الخشبة أشرا: شقتها أو نشرها.

[من الوافر]

منافسةُ الفتى فيما يزولُ
ومختارُ القليلِ أقلُّ منه
على نقصانِ همَّتِه دليلُ
وكلُّ فوائِدِ الدنيا قليلُ

[من الوافر]

ولا يغترَّ الفتى بقول الشاعر:
وكلُّ أخٍ مفارقةٌ أخوه
لعمراً أبي إلا الفرقدانِ

[من الخفيف]

بل يتأمل قول الآخر:
قلتُ للفرقدينِ واللَّيلُ مُلِّقِ
سودَ أكنافِه على الآفاقِ
ألقيا ما استطعتُما فسيرمى
بينَ شخصيكِما بسهمِ فراقِ

ولقد استعاذ النبي ﷺ من جارِ السوء في دارِ المُقامة؛ إشارةً إلى أن جارِ الدنيا يتحول عنك أو تتحول عنه وأنه لا يليق الضجر منه ولا السامة. ومن المعلوم أن الدنيا إن بقيت لها لم تبق لك، فطوبى لمن جعلها قنطرةً لآخرته فمر بها على هذا القصد وسلك. وويل لمن اغترَّ بسكونها وهي تمر مع السكون كالظلِّ مرَّ السحاب، وظنها شراباً ولو اختبرها لم يجدها غير آل^(١) وسراب. ويا سعادةً من أقصر عندما أبصر، واعتبر لما اختبر؛ فالدهر أفصح مؤذِن بالزوال، وأنصح^(٢) مؤذِن بالارتحال.

فلمَّا سمع الماء ما قلناه من الكلام، وتأمل ما فيه من منشور النثر وقلائد النظام. تموج وتأوَّد^(٣)، ورغا وأزبد. وجرى واضطرب، وعبس بعد القهقهة وقطب، وقال: يا معشر الأكابر، أما بلغكم قولُ الشاعر:

(١) الآل: ما يبدو كالسراب في أول النهار وآخره.

(٢) في الأصل: «أفصح» وأثرت ما في الحلية.

(٣) انحنى وانعطف.

[من الطويل]

إذا لم يُكُنْ إِلَّا الْأَسِنَّةُ مَرْكَبًا فلا رأَى للمضطرِّ إِلَّا رُكُوبَهَا

[من البسيط]

وقول الآخر:

ولم تزل قلةَ الإنصافِ قاطعةً بينَ الرجالِ وإن كانوا ذوي رَحِمِ

[من الطويل]

وقول الآخر:

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً على المرءِ مِنْ وَقَعِ الحُسامِ المهنَّدِ

وقول السفاح وهو أول من وطَّد للخلافة العباسية حين قتل بني

[من الطويل]

عمّه أمية:

نُفِّلْتُ هَامًا مِنْ رِجالِ أعزَّةٍ علينا وإن كانوا أعقَّ وأما

أما عرفتم أن الأخ المعاند، كالعضو الزائد. يشين الذات، ويمنع اللذات. فقطعه من الرشد، وإن ألمَّ الجسد. هذا ولا يغرَّ الهواءَ صفائي فكم تكذَّرت، ولا يثق بسلاستي فكم انعقدتُ واستحجرت. والذي جمعت في صفاتي الأضداد، كما قال الشاعر وأجاد:

[من الخفيف]

أنا كالورد فيه راحة قومٍ ثمَّ فيه لآخرينَ زُكامُ

[من المنسرح]

وحسبك ما قاله الشاعر:

كالماء فيه الحياة والغرقُ

فإن زعم الهواء أن له عليّ فضيلة، فليعرضها على أسمعكم غير متعلِّل بعلَّة ولا متحيِّل بحيلة.

فقلنا: نعوذ بالله من اجتماع النفس والهوى، فمن رام منكما أن يتكلّم فليجعل منبر الفخر له مستوى.

فعند ذلك ثار الهواء وله غبار، وصعد منبر الفخار. وقال:
الحمد لله الذي رفع فلك الهواء، على عنصر التراب والماء، ونفخ في آدم
من روحه وعلمه جميع الأسماء.

أما بعد، فمن عرفني فقد اكتفى، ومن جهلني فسأبدو له بعد الخفا.
أنا الهواء الذي أُولف بين السحاب، وأنقل ريح الأحياب، وأهبُّ تارة
بالرحمة وأخرى بالعذاب. نصر الله بي محمداً وصحبه الأمجاد، وأهلك الله
بي قوم عاد. وأنا الذي تمَّ بي ملك سليمان، وأجري الماء في خدمتي لكل
مكان. وسير بي الفلك في البحر كما تسير العيس في البطاح، وأطار بي
في الجو كل ذات جناح. وأنا الذي ألعب بالطُّرر^(١) فوق الغرر، كما ألعب
بِلحى الجبابرة من البشر.

وأنا الذي يضطرب مني الماء اضطراب الأنابيب في القناة، والشعبان
في الشعبان^(٢). وأنا الذي أميل قامات الأغصان، وأدني عارض الغيث
وعذار الآس من خد الشقيق وشارب الريحان. إذا صفوت صفا العالم
وكان له نضرة وزهو، وإذا تكذرت انكدرت النجوم وتكدر الجو. لا أتلون
مثل الماء، المتلون بلون الإناء. لولاي لما عاش كل ذي نفس، ولولاي ما
طاب الجو من بخار الأرض الخارج منها بعد ما احتبس. ولولاي ما تكلم
أدمي ولا صوت حيوان، ولا غرد طائر على غصن بان. ولولاي ما سمع
قرآن ولا حديث، ولا عرف طيب المسموع والمشموم من الخبيث.

(١) جمع طرّة: وهي ما تتزين به المرأة من الشعر الموفي على جبهتها بالقص
والتصفيف.

(٢) في الأصل: «والشبان في الشعبان» وما أثبتته من الحلية أشبه بالصواب، وقد شرح
الشيخ بهجة «الشعبان» بقوله: موضعه، يريد موضع الشعبان.

فكيف يفاخرني الماء الذي شبّه الله به الدنيا البغيضة، التي لا تعدل عنده جناح بعوضة؟! وأنا الذي أطيّر بلا جناح إلى جميع الجهات، وهو الذي يخرُّ على وجهه ويمشي على بطنه كالحيات. وحسبي وحسبه هذا التفاوت العظيم ﴿ أَفَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢].

وحسبُ الماء ذمًّا خلوهُ من الحرارة المشتقة منها الحرية، وكونُ الرطوبة فيه طبيعةً غريزية. وأنا الذي سلم قلبي من القلب وإن كان من أحرف العلة، وهو الذي قلب الله قلبه لتحركه وانفتاح ما قبله^(١). وأنا الذي جعلني الله نشرًا بين يدي رحمته، وجعل مني طوفانًا استأصل به ما تركه آدم من ذريته. هذا وما خصني الله به من المزايا يعجز عنه فم الدواة ولسان القلم وصدر الرقيم ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]، وأما أنت فحسبك عيبًا قولُ بعض الأدباء: «فلان كالقابض على الماء».

وبالله قل لي: أي فخر لمن يعزُّ مفقودًا ويهون موجودًا؟! ومن إذا أطال مكثه، ظهر خبثه. وإذا سكن متنه؛ تحرك نتنه. ومن نبع من الصخور، ومُرّ مذاقه في البحور. وشرق^(٢) به شاربه، وغرق فيه مجاوره ومصاحبه، وعلت فوقه الجيف، وانحطت عنده اللالي في الصدف؟!!

(١) يريد أن الواو في كلمة هواء لم تُعلَّ إذ أصل الهواء هوي، على حين أعلت الواو في كلمة ماء ألقًا إذ الأصل مَوَّةٌ تحركت الواو بعد فتحة فقلبت ألقًا ثم أبدلت الهاء همزة.

(٢) شرق بالماء: غصّ.

وقد بان الصحيح من السقيم، والمنتج من العقيم، أقول قولِي هذا
وأستغفر الله العظيم.

ثمَّ انحدر من منبره، ووعينا ما سرده من مفخره. وقال للماء: هات
يا أبا الدِّماء^(١).

* * *

فعلا الماء بموجه؛ حتى صعد إلى ما انحطَّ عنه الهواء من أوجه.
ولولا الأرضُ تملكه لسال، لكنَّه تجلَّد وأقبل علينا وقال:

الحمد لله الذي خلق كلَّ شيء، وجعل من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ.
أما بعد، فقد سمعت جَعَجَعَةَ ووعوَعَةَ^(٢)، ظننتها صريرَ باب،
أو طنينَ ذباب. باطلٌ في صورة حق، وسرابٌ إذا تأملتُه زال وانمحق. فاسمع
أيها الهواء ما أتلوه من آيات فخري الشامل، وما أجلوه عليك من عقد فضلي
الذي أنت منه عاطل، ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ [الإسراء: ٨١].

اعلم أولاً أن الدعوى قبيحه، وإن كانت صحيحة، كما قيل:

[من الطويل]

وما أعجبتني قطُّ دعوى عريضةً ولو قام في تصديقها ألفُ شاهدٍ
فكيفَ إذا كانت بالزخارف مموَّهة؟! فهي أقبح من الخلقة المشوَّهة.
ولعمري لا يروج الدرهم المغشوش، وإن أحكموا فيه أنواع النقوش.
لا سيما إذا كان الناقد البصير^(٣)، ولا ينبؤك مثلُ خبير. هذا وقد سردت ما

(١) الدِّماء: البحر.

(٢) الجعجعة: صوت الرجا. والوعوة: صوت الكلاب والذئاب.

(٣) في الأصل والحلية: بصير، ولا يصح لأنه لا بد من نصبها على الخبرية فأثرت =

زعمتهُ فيك من الخصوصيات على سبيل المفاخرة والمباهاة، وأنا أقول ما
مَنَّ اللهُ به عليَّ على سبيل التحدُّث بنعمة الله .

فأقول: أنا أول مخلوقٍ ولا فخر، وأنا لذَّة الدنيا والآخرة ويوم
الحشر. وأنا الجواهر الشفّاف، المشبّه بالسيف إذا سُلَّ من الغلاف، وقد
خلق اللهُ مني جميع الجواهر حتى اللَّالي في الأصداف. أحيي الأرض بعد
مماتها، وأخرج منها للعالم جميع أقواتها. وأكسو عرائس الرياض أنواع
الحلل، وأنثر عليها لآليء الوَيْل والظَّل^(١)؛ حتى يُضربَ بها في الحُسن
المثل، كما قيل:

إِنَّ السَّمَاءَ إِذَا لَمْ تَبْكِ مَقْلَتْهَا

لَمْ تَضْحَكِ الْأَرْضُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الزَّهْرِ

وأنا الذي أقتل العجوز، وأذهب حرارة آب وتموز، وقد أفتاني
الأفاضل: أن مَنْ دخل عليَّ من باب المفاخرة أنه لا يجوز. فكيف ينكر
فضلي من دبِّ أو درج، وأنا البحر فرعي، وفي الأمثال: حدّث عن البحر
ولا حَرَج.

وأما أنت أيُّها الهواء، فكم ذهبت فيك نصائح النصاح، كما قال ابن
هرمة:

وَبَعْضُ الْقَوْلِ يَذْهَبُ فِي الرِّيَّاحِ

= أن أجعل كان تامة والبصير صفة للناقد.

(١) الوَيْل: المطر الشديد الضخم القطر، والظَّل: المطر الخفيف.

ولعمري إنه لا يفي قبورك بدبورك^(١)، ولا تقوم جنتك بسعيرك،
ولطالما أهلكت أمماً بسمومك وزمهيريك. فكم تواتر عنك حديث تشمزُّ
منه النفس وتمجُّه الأذن، وحسبك من العناد أنك تجري بما لا تشتهي
السنن. وأنت المولع برقص الجواري كفعل الفساق، وأنت الذي تهيج
التراب وتغري النار بالإحراق، كما قال فيك ابن الرومي:

[من الكامل]

لا تُطْفِئَنَّ جَوَى بِلُومٍ إِنَّهُ كالريح يُغري النَّارَ بِالْإِحْرَاقِ
ومن عيوبك أنك لا تسكن ولا يقرُّ لك قرار، ولم تفهم الإشارة في
قوله تعالى: ﴿وَلَمْ مَّا سَكَنَ فِي أَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣]. وقد ضربت
العربُ بعدم استقامتك الأمثال، كما نقله عنهم أصحاب القصص، فمن
ذلك قولهم:

إِنَّ ابْنَ آوَى لَشَدِيدُ الْمُقْتَنَصِ وهو إذا ما صيدَ رِيحٌ فِي قَفْصِ
وأما قولك: لولاي لما عاش إنسان، ولا بقي على الأرض حيوان.
فجوابه: لو شاء الله لعاش العالم بلا هواء، كما عاش عالم الماء في الماء.
ولم لا قلت: إن غالب هلاك كل ذي روح من الوباء. وإنه لولا الرطوبة
التي اكتسبتها أنت مني بالمجاورة، لاحتترقت أنت فضلاً عن العالم
لمجاورتك لطبيعة النار الحارة. فعلم بهذا أن حرارتك عرضية، لا أنها
فيك طبيعية. ولو شئتُ لافتخرت بالحرارة التي تعرض لي من النار
والارتماض^(٢)، ولكن لا يليق بالعاقل أن يفتخر بالأعراض، لأن العَرَضَ

(١) في الأصل: بدلورك، وما أثبتته من الحلية هو الصواب.

(٢) ارتماض من الحزن: احترق (ب).

لا يبقى زمانين، كما برهن على أنه لا ينتقل إلى مكانين. وما الافتخار بشيء سريع الزوال، أو بعرض ليس لطبيعة الشخص عليه انجبال. قال الشاعر:

وأحقُّ مَنْ نكسْتُهُ بالذِّلِّ مِنْ درجَاتِهِ
مَنْ مجدُّهُ مِنْ غيرِهِ وسفألُهُ مِنْ ذَاتِهِ

ولذلك قيل: [من السريع]

لسنا وإن أحسابنا كرممت يوماً على الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وأما قولك: إن طبيعتي الرطوبة. فذلك أعظم فخري؛ لأن الرطوبة مادة الحياة التي في الأجسام تسري، إذ الحرارة بمنزلة النار في الأبدان، والرطوبة لها بمنزلة الأدهان، فإذا خلص الدهن انطفأ السراج، وزال ما فيه من النور الوهاج. وأما تعبيرك لي بأني متلون. فالتلون صفة عارف الزمان، المتخلق بقوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وأما قولك: إن قلبي قد انقلب. فالحمد لله الذي قلبه لأعلى الرتب؛ لأنه كان آخر الحروف فصار أولها. وكان مفضولها فصار أفضلها. إذ الألف تدلّ على الذات الأحادية، والباء تشير إلى الحقيقة المحمدية، فكل الأحرف من الباء، والباء إذا فנית صورتها، وتعينها^(١) ونقطتها، كانت عين الألف بلا مرأ.

(١) لعل المراد تحيها أي ما في جانبيها من انحاء فلو زال لعادت صورتها صورة الألف.

وأما قولك: إن في حرف العلة، وإني منسوب بوجوده في إلى
الذلة. فلا يليق أن تعينني بشيء أوجد الله فيك مثله. وهب أنك خلوت
منه، فهل تخلو من قول الأطباء فيك: إنك أساس كل علة؟! .

وأما قولك: إن الله شبّه بي الدنيا فقد شبّه الله بك أفئدة الكفار،
وجعل زمهريرك سعيراً في النار. فأنت المذموم مقصوراً أو ممدوداً^(١)، إن
مددت كنت جباراً عنيداً، وإن قصرت كنت إلهاً معبوداً. وأنا الذي
لا أتغير بالمد ولا بالجزر، وكيف يتغير من هو مادة البحر.

وأما افتخارك برفعة المنازل، وعدك ذلك من أعظم الفضائل. فلا
فضيلة للشخص بالمكان ولا بالزمان، كما قال الشاعر الملسان:

[من الوافر]

ولو كان المكان له علوٌ لطار الجيش وانحطّ القتام^(٢)

[من الكامل]

وقال الطغرائي:

وإن علاني من دوني فلا عجبٌ

لي أسوةً بانحطاط الشمس عن زحلٍ

هذا وأنشدك الله، أيّنا كان عليه عرش الرحمن قبل خلق العالمين؟
وأيّنا الذي جعل منه كل شيء حيّ وذكره بذلك في كتابه المبين؟ وأيّنا
الذي بعث به ابن عباس إلى ملك الروم في قارورة كان أرسلها إليه مع
بعض الجنود، وطلب منه أن يضع له فيها كل شيء؟ والشيء عندنا هو

(١) المقصور: الهوى. والممدود: الهواء.

(٢) القتام: الغبار.

الموجود. أما كفاك شهادة الله لي بالطهورية في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ لِنُحَيِّ بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا وَنُشْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْسَى كَثِيرًا ﴿ [الفرقان: ٤٨، ٤٩]؟ أما بلغك شهادة الله ببركتي - وحسبي بها فخراً - في طول البلاد والعرض؟ حيث قال في كتابه العزيز: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٣] (١).

أما رأيت ما حباني الله به من عظيم المِنَّة، حيث جعلني الله نهرًا من أنهار الجنة؟ أما علمت أن مني حوض من كان إذا مشى في الشمس تظله الغمامة؟ أما تيقنت أنني نبعت من بين أصابعه فكنت له معجزة كما أكون لوارثي مقامه الرفيع كرامة؟ أما عرفت أنني أرفع الأحداث، وأطهر الأخباث. وأجلو النظر، وأكون للمؤمنين في الآخرة نورًا في محلي التحجيل والغرر (٢)؟ أما رأيت الناس إذا غبت عنهم يتضرعون إلى الله بالصوم والصلاة والصدقة والدعاء، ويسألونه تعالى إرسالي من قبل السماء؟.

واعلم أنني ما نلت هذا المقام الذي ارتفعت به على أبناء جنسي، إلاً بانحطاطي الذي غيرتني به وتواضعي وهضم نفسي. وأنا لا أحب المعالي، وأنا سلم للمحل المنخفض وحرب للمحل العالي. لا أتجاوز حدَّ العبيد، ولا أنزع سيدي فيما اختص به من الصفات التي لا تفنى ولا

(١) وردت هذه الآية في الأصل: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً - مَبْرَكًا - فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ وهو تلفيق بين آية سورة المؤمنون هذه وآية سورة [ق ٩]: ﴿وَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾ وقد نبه على ذلك محقق الحلبة.

(٢) إشارة إلى الحديث الشريف: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غرًا محجلين من آثار الوضوء». رواه البخاري، الوضوء باب (٣)، ومسلم الطهارة (٢٤٦) ٣٥.

تبيد، بل أخشى دائماً بطشه، وأستحضر قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]. فلذلك باعدني الله من النار، وجعلك حجاباً بيني وبينها، أتقي بك ما تطاير منها من الشرار. وقد علم كل عالم أن فضائلي تجل عن الحصر، وأني سيد العناصر ولا فخر.

أقول قولي هذا وأستغفر الله من لغو الكلام، وأسأله لي ولأحبابي حسن الختام.

ثم نزل والتمس منا أن نحكم له بالفضل على الفور، وأن نجانب في حكمنا الميل والجور.

* * *

فقلنا له: إن كلاً منكما أدلى إلى الفضل بحجة، وسلك من الدلائل العقلية والنقلية أوضح محجة. غير أن تكافؤ الأدلة، غادر منا الأفكار مضمحلة، وقد عجزت عن ترجيح فضلكما الأفكار، كما عجز القاضي الأفعى عن الحكم لأبناء نزار^(١). وليس لهذه المعضلة، والحادثة العظيمة المشكلة إلا الكبار، لا الهَمَج الرعاع، كما قيل: [من الكامل]

إِنَّ الْكِبَارَ أَطْبُ لِلْأَوْجَاعِ

قال بعضهم: [من الرجز]

إِنَّ الْعَظِيمَ يَحْمَلُ الْعَظِيمَا كَمَا الْجَسِيمُ يَحْمَلُ الْجَسِيمَا

(١) الأفعى الجرهمي: حكيم جاهلي قديم، كان منزله بنجران، تقصده العرب في قضاياهم فيحكم ولا يرد حكمه، وقصته مع أبناء نزار في ابن الأثير (١١/٢). (ب).

ولعمري ليس لها غير إمام عصرنا، وُغرة شامنا ومصرنا، المجتهد الذي قلّد ببره أعناقنا تقليدًا، وأخجل لطفه غضّ الزهر فتسّر بأكمامه حتى رأينا في حدوده توريدًا. أعظم الموالي قدرًا، وأعلاهم نجرًا، وأرحبهم صدرًا، وأكثرهم برًا، وأنفذهم نهياً وأمرًا، وأعدلهم نحيزة، وألينهم شنشنة وغريزة. ذو اليمين، الذي كأنه ذو الخلال أو ذو النورين. من لو رآه ذو الجناحين لطار لفضله، أو ذو البطين لمال لبذله. أو ذو الأذنين لروى أحاديث شمائله الملاح، أو ذو الهلالين لقال: إنه الشمس وُغرة الصباح.

صاحب الطالع السعيد، الجاري سَيْبُ^(١) كَفَّهُ على الصعيد جري السعيد. الجواد، المذهب غُلَّة الجياد^(٢). من برز في ميدان الفضل وبرز، وحوى قصبات الرهان وأحرز، وزركش تاج المجد وطرز. المحسود، المحسود. رشيد الموالي وعين أمينها، وأبو عذرة المروءة وابن مدينها، والمتقلّد من فرائد المحامد بثمانها.

خلاصة العباد من العباد، وثمره دوحة روض الحقائق من آل مُراد. من فضله الجوهر الفرد عند كل منصف وعندي، جناب مولانا وسيدنا عين أعيان الموالي الكرام السيد عبد الرحمن أفندي. لا زال وهو البرُّ بحر الجود، ونجم الهدى والسعود. موطىء العقب والأكناف، حامي الذمار والأطراف، منيفًا على آل عبد مناف، ملحوظًا بعين العناية والألطف.

(١) السيب: العطاء.

(٢) في الأصلين: الجواد. وما أثبتته أقوم للعبارة لأن الجياد جمع جواد وهو النجيب من الخيل، وغلّته: شدة عطشه.

فإنه عذيق الشام المرَّجَّب^(١)، وروضها المشذب المهذب، ومعشوقها المحبب. وروحها الذي به قوامها، وسلوكها الذي لا يتم إلا به نظامها. فكل من لم يثن إلى قصده العنان، كان أشدَّ ندمًا من الكُسعي^(٢) وأخسر صفقة من أبي غبشان^(٣)؛ لأنه لا يصرف الهمة، لدنيِّ الهمة، ولا تبصر منه إلا رأيًا^(٤) كالنجم في الدآء^(٥) المدلهمة. عنده الحُجَّة^(٦)، أعظم هُجَّة. وخُلف الوعد، خُلِق الوغد. وعدم الجود بالموجود، من سوء الظنِّ بالمعبود.

له توكلُّ الطير، وعنده لا سرف في الخير. يحب المحاسنة، ويكره المخاشنة، ويحاشي مجلسه من المحاشنة^(٧). فيا له من جواد واسع المجسَّة^(٨)، لا يرتاع من المِحسَّة^(٩). ونجيب لا يقعقع له

(١) رجه: هابه وعظمه. ومنه: «أنا عذيقها المرَّجَّب». أي المهيب المعظم. (ب).

(٢) إشارة إلى المثل القائل: «أندم من الكُسعي». انظر: مجمع الأمثال (٣٤٨/٢)، ومعجم الأمثال العربية (٣٩/٤).

(٣) إشارة إلى المثل القائل: «أخسر صفقة من أبي غبشان» ويروى أيضًا: «أحمق من أبي غبشان». انظر: مجمع الأمثال (٢١٦/١ - ٢١٧)، ومعجم الأمثال العربية (٢٦٩/٣).

(٤) في الحلية: «رؤبًا» وهي جمع رؤية.

(٥) الدآء من الليالي: الشديدة المظلمة (ب).

(٦) الحجنة: الاعوجاج، أو ما خصصت به نفسك. (ب).

(٧) حاشنه: شاتمه وسابه. (ب).

(٨) أي رجب الصدر. (ب).

(٩) المِحسَّة: ما يزال به الغبار عن الدابة.

بالشَّنَان^(١)، ولا يُنبَّه بطرق الحِصَا وهل يُنبَّه اليَقِظَان؟.

وإن تأملت عزمه ولحظه، تحقَّقت أنه أسد بيشة^(٢) ولحظه. فمن باراه فقد ماقس^(٣) حوتًا وصارع ضرغامًا، وقاوم بالهراوة عضبًا حسامًا. ونطح بقرنه المقطم، ورام أن يحكي بسرابه البحر الغطمطم^(٤). ولم يعلم أن بيت القُدُس، غير بيت القُدُس^(٥)، وأن بقيع الغرقد^(٦)، غير رقيع الفرقد^(٧)، وأن شجر المَرخ^(٨)، غير شجر الورخ^(٩). وأن الزُّنبور غير البازي وإن شاركه في الخفق وال الطيران، وأنَّ وَرَدَ السَّلَم^(١٠) غير ورد البستان. والله در من قال:

(١) أي لا يروعه ما لا حقيقة له.

(٢) في معجم ما استعجم للبكري: بيشة: وادٍ من أودية تهامة، وبيشة أخرى وهي بيشة السماوة وهي مأسدة (٢٩٣/١)، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. (ب).

(٣) ماقس مفاضة: غامسه وغالبه في الغوص، ويقال: «هو يماقس حوتًا» إذا خاصم أقوى منه.

(٤) الغطمطم: البحر العظيم. (ب).

(٥) القُدُس: العنكبوت.

(٦) بقيع الغرقد: مقبرة المدينة على ساكنها الصلاة والسلام. (ب).

(٧) الفرقد من الأرض: المستوي الصلب. (ب).

(٨) المَرخ: شجر كثير الوري سريعه. وفي المثل: «في كل شجر نار، واستمجد المَرخ والعفار».

(٩) الوَرخ: شجر شبيه بالمرخ في نباته غير أنه أغبر، له ورق دقيق مثل ورق الطرخون أو أكبر.

(١٠) السَّلَم: شجر ذو شوك يُدبغ به، واحدته سَلَمَة.

[من البسيط]

قَدْ يَبْعُدُ الشَّيْءُ مِنْ شَيْءٍ يَشَابَهُهُ إِنَّ السَّمَاءَ شَبِيهُ الْبَحْرِ فِي الزَّرَقِ

[من الوافر]

ومن قال:

وَقَدْ يَتَقَارَبُ الْوَصْفَانِ جِدًّا وَمَوْصُوفَاهُمَا مِتْبَاعِدَانِ

[من الوافر]

وقال:

فَإِنْ يَفْقِ الْأَنَامَ وَذَاكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمَسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

[من المجتث]

كما قلت فيه:

لَا غُرُوبَ لِابْنِ الْمُرَادِيِّ وَذَاكَ شَمْسُ الْمَوَاكِبِ
إِنْ فَاقَ كَلَّ الْمَوَالِي فَالشمسُ بَعْضُ الْكَوَاكِبِ

فهلمَّ للوفود عليه، والمثول بين يديه. فهو الذي يستنبط المسائل ويرضى بفضله وبذله كل مسائل، وإن لم يكن غير مكارمه إليه وسائل.

* * *

فلمَّا سمع الماء والهواء بمعروف ذلك الحبيب السري، والإمام الهمام العبقرى؛ تعشَّقه على السماع، وطلبنا منا المبادرة إلى جنبه ليلبغا منه حظ الاجتماع.

فسرنا بهما إلى جنبه، حتى بلغنا فسيح رحابه، وكحللنا الجفون بإئمِد أعتابه. فصادف دخولنا خروج كعبة ذاته من حرم الحرم، فكأنما خرج الورد من الأكمام والليث من الأجم^(١). فنهضنا له على الأقدام، وحيانا بألطف سلام. وتسلم سلم قصره الفريد، وأشار إلينا أن نتبعه في

(١) الأجم: جمع أجمة: وهي الشجر الكثير الملتف.

الصعود إلى ذلك القصر المشيد. فرأينا قصرًا ينسب الخورنق^(١) للقصور،
ويغمد غمدان^(٢) كما تغمد في أجفانها الذكور^(٣). وما بالك بقصر شهدت
فضلاء الأكياس، بأنه جمَعَ محاسن الدنيا كما جمع صاحبه محاسنَ
الناس.

فكنا كما قال القاضي الفاضل: [من الطويل]

فمَتَّعْتُ آمَالِي بِمَوْلَى هُوَ الْوَرَى وَدَارٍ هِيَ الدُّنْيَا وَيَوْمٍ هُوَ الدَّهْرُ
ثم أمر لنا بالجلوس. هذا وعِظْفُ كُلِّ مَنْ مِنْ الطَّرْبِ يَنُوسُ.

فأقبلت علينا ذاتُ الدولة وبنْتُ الوجاق، التي كَلَّمَا مَرَّتْ حَلَّتْ،
وكَلَّمَا ثَقَلَتْ خَفَّتْ، على كل مَنْ رَشَفَ مِنْهَا وَذَاقَ. السَّمْرَاءُ الْمَعشُوقَةُ،
المقبولة مشروبةً ومرئيةً ومنشوقةً، بنت اليمَن واليُمن، ذات الجَمالِ
والحُسْنِ. شعر:

[من الخفيف]

كَسَوَادِ الْعَيُونِ تَطْهَرُ لِلنَّاسِ سِوَادًا وَفِي الْحَقِيقَةِ نُورٌ
التي أرخصت الغالية^(٤) وكانت نَدَّهَا، وملكت عنبر الطيب فأصبح
يقول: لا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عِبْدَهَا. وغارت منها بكر السُّلاف^(٥) حتى اصفرت

(١) قصر في العراق عمره نعمان اللخمي لبني ساسان، ثم وسعه
العباسيون. (ب).

(٢) قصر في صنعاء اليمن، كان يعد من عجائب الدنيا. (ب).

(٣) أي كما تغمد في أعمادها السيوف. (ب).

(٤) أخلاط من الطيب، جمعه غوال. (ب).

(٥) السُّلاف: الخمر أول ما تعصر، وأخلص الخمر وأفضلها.

من غيرتها، وأصبحت عجوزاً شمطاء ما رآها راءٍ إلاَّ وقطَّب وجهه من قباحة صفرتها. وأين بنت الحرام من بنت الحلال؟ وأين جُؤنة^(١) المسك من قوارير الأبول؟ فأخذنا تلك البنية بالنية الصافية، وشربناها فقامت بها دعائم العافية. ولم نزل نرشف منها ذوب المسك ومحلول السَّبج^(٢)، حتى جاءتنا قصباتُ السبق للسرور تنادي ما على من أحرز قصبات السبق وتاه من حرج. فيا لها قصبات تدهش الأبصار، كأنها أغصان بان في طرف كل غصن زهرة من جُلنار^(٣). وقد اشتمل مجلسنا على كل نديم له صورة الدمية ونفحة الريحانة، ونشوة السُّلافة ولطافة الدرة اليتيمة والجمانة. أديب ألمعي، كأنه الأصمعي. تراه الكامل في الأدب، والعمدة في كل مطلب. يأتيك من البديع، بما يخجل ربيع الزهر وزهر الربيع. يثمر المسامرة، ويحضر المحاضرة، ويتقن المحاوره، ويحسن المجاورة. يباهك بما رقَّ وراق، ويجلب لك الغصن من أزهار الأفكار وثمرات الأوراق. يجود على السمع بما يطلبه القلب من الاقتراح، ويجلو عليك من راح ملحه ما يوجب لك الراحة والارتياح. كما قيل في أمثالهم:

[من الطويل]

لنا جلساء لا يُملُّ حديثهم	ألباء مأمونون غيبًا ومشهدا
إذا ما خلونا كان حُسن حديثهم	مُعينا على نفي الهموم ومُسعدا
يُفيدوننا من علمهم علم من مضى	وعقلاً وتهذيباً ورأيًا مُسدداً
ولا غيبة نخشى ولا سوء عُشرة	ولا نتقي منهم لسانًا ولا يدا

(١) الجؤنة: سُليلة مغشاة بالجلد يحفظ فيها الطيب.

(٢) السَّبج: الخرز الأسود. (ب).

(٣) الجُلنار: زهر الرمان. فارسية معربة.

وما زلنا نقتطف منهم زهور الآداب، ونخترف^(١) ثمار الألباب. وهم يمزجون جدّهم بالمفاكهة والمداعبة والمباسة، ويزهون كالعقد وصاحب المنزل لهم كالواسطة. ومجلسه يحتفل بالوافدين، ويغصُّ بالواردين. وهو يخاطب كالأعلى حسب قدره وعقله، ويتحف كل من له وطراً بقضاء وطّره ولا يتعلّل كغيره بشغله. حتى أقبل ملك الليل بسواده الأعظم، ونثر على الأفلاك جواهر النجوم التي كأنها العقْد المنظم. وهذا ونحن في فلك السعود، كواكبنا وسماؤنا دخان العنبر والعود، وقد أشرق بدر تلك المنازل بالنور والكمال، وأشرف علينا بجبين لطيف رأينا عليه الهلال، وشنّف بدرٌ منطِقَه منا الأسماع، حتى خيّل لكلّ منا أنه جليس القعقاع^(٢).

وما زلنا في ليلنا نجمع عقود السرور كأنها فذلك^(٣)، ونتمتع بنعيم لو سُئِلنا عن أنفس أعمارنا فذلك. حتى نبذ الله الكرى في هامة منا وراس، فأسكرتنا سنّة النوم والنعاس. وهجم علينا ملك الكرى، وقد كاد أن يشيب عارض الليل مما سال من دمع الشمع وجرى. وعند ذلك طوينا من المنادمة بساطها، وتفرّقنا تطلب كلُّ نفس منا راحتها وانبساطها، ثم اضطجعنا على الوساد للرقاد، وأعطينا الجفون حقّها من الإغفاء بعد الشهاد.

(١) نخترف: نجتني.

(٢) شاعر مجاهد، فتح دمشق تحت قيادة خالد بن الوليد رضي الله عنهما. (ب).

(٣) فذلك الحساب: فرغ منه، والفضلكة: مجمل أو خلاصة ما فصل أولاً. (ب).

ولم نزل في ضيافة المنام، تقرينا أياديه السرور في الأحلام. حتى لفظ الشرق من لهواته ياقوته سهيل^(١)، ودبّ مشيبُ الفجر في عارض الليل. فنهضنا للصلاة، وجلس كلُّ منا بعدها في مصلاه. حتى طلعت شمس صاحبنا الفائق على الصاحب ابن عبّاد^(٢)، فنفذ شعاعها من ظواهرنا إلى كلِّ قلب منا وفؤاد. ثم دخلنا عليه وسلمنا ودعونا بطول البقاء، فأجاب وأجاد وأجاز وتلقّانا أحسن اللقاء. ثم جاءت القهوة التي طابت منظرًا ومخيرًا وذوقًا وشمًا، ثم جيء بقصبات التبغ فارتضعنا منها كلُّ ثدي يلذ درّه ريحًا ولونًا وطعمًا.

* * *

فلمّا استوفينا منها أوفر حظّ، وخلا مجلسنا من كل بارد ثقيل فظّ. وشرب ذلك البحر المحيط بالفضل غليونه، وأراد أن يلقي عليّ لكوني من الساحل بعض درره الثمينة. بادرت بالدعاء، وعرضت عليه مفاخرة الماء والهواء. وسألته فصل الخطاب، والإنعام بالجواب.

فالتفت عند ذلك للماء وأخيه، وقال: إن كلاً منكما مُحقّ فيما يدّعيه. فما أشبهكما في السماء بالفرقدين، وفي الأرض بالعينين. ففضلكما معجز، لا يكاد يميّز أحداً عن أخيه مُميّز. وقد نفع الله بكما العالم على تباين أنواعه وأشكاله، وقد ورد: «إن الخلق عيال الله، وإن أحبهم إليه أنفعهم لعياله». فلا تشتغلا بالمفاخرة عن شكر هذه النعمة، واعلما أنّ حب الفخار أهبط إبليس إلى حضيض اللعنة من أوج

(١) سهيل: أسطع النجوم الثابت بعد الشعري اليمانية.

(٢) وزير غلب عليه الأدب (ت ٣٨٥هـ). (ب).

شرف الرحمة. فلا تجعلاه لكما إمامًا، ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾
[الفرقان: ٦٨].

واعلم أن الفخر في الدنيا بالمال، وفي الآخرة بالأعمال. وأحسن
الافتخار الافتقار، وظهور الذل والانكسار. فقد قال مَنْ سأل من بين
أصابه الماء المنهمر: «الفقر فخري وبه أفتخر». فمن كان عبد الله كان له
به الافتخار، لا من كان عبد النفس أو الهوى أو الدرهم أو الدينار. فمن
مناجاة عليّ كرم الله وجهه وزاده منه قربًا: سيدي كفانا شرفًا أن نكون لك
عبيدًا وكفانا عزًّا أن تكون لنا ربًّا.

وللقاضي عياض^(١):

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتِيهَا وَكِدْتُ بِأَخْمَصِي أَطَأُ الشَّرِيًّا
دخولي تحت قولك يا عبادي وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا

على أن مرآة الحق أرنتي فضيلة تفضلُ بها أيُّها الماء أخاك الهواء.
وحققت لي بأنكما لستما في الفضل سواء، وهي أن الله خلق آدم من
الماء، وخلق منك إبليس. فاعترف لأخيك بالفضل عليك، ودع عنك
زخارف التلبيس. فأكبر من الحق من قبله، وأصغر من الباطل من عمله.
والتدلل للحق أقرب للعز من التعزُّز بالباطل، وأعظم الزلات زلة
العاقل.

فعند ذلك عدل الهواء عن هوجه واعوجاجه، ومخاصمته وعلاجه.
وأقبل يقبل ذيل الماء ويعتذر إليه، من استطالته عليه. وأقبل كلُّ منهما

(١) عالم المغرب، محدث وفقه وأديب (ت ٥٤٤هـ). (ب).

على صاحب المنزل يؤدي بالدعاء له حقوقه، حيث سلك بكلّ منهما مجاز الطريقة والحقيقة. وسألاني أن أمدح جنباه عنهما بطريق النياحة، ففتح الله لي من النظم بابه. فأنشأت أقول:

عارضتُ قوماً عن وداكِ أعرضوا
مِنْ كَلِّ ذِي مَلَقٍ لَهُ إِنْ جِئْتَهُ
يَلْقَاكَ مِنْهُ عِنْدَ أَوَّلِ رُؤْيَةٍ
يَحْكِي تُعَالَةً وَهُوَ فِي رَوْعَانِهِ
قَدْ طَنَّبَ الْأَنْدَالَ فِي سَاحَاتِهِ
وَيُقِيمُ مِنْهُ عَلَى وَدَاكِ حُجَّةً
يَا أَيُّهَا الرَّاجِي لِخُلْبِ بَرِّقِهِ
فَلَقَدْ رَجَوْتَ مِنَ التِّيُوسِ حَلُوبَةً
تَاللَّهِ لَوْ أَنِّي فَرَعْتَ لِثَلْبِهِمْ
لَسَلَلْتُ سَيْفَ الْهَجْرِ حَتَّى إِنِّي
لَكِنْ أَبِي طَبْعِي الطَّهُورِ لِأَنَّهُ
وَشَغِلْتُ مِنْ هَجْوِي بِمَدْحَةِ سَيِّدِ
مَنْ بَاتَ لِلرَّحْمَنِ عَبْدًا كُلَّهُ
نَجْمٌ أَدَارْتُهُ السَّعُودُ عَلَى ذُرَى
شَيْخِ الْحَقَائِقِ بَلْ مَرَادُ إِلَهِنَا

وتركتهم إن صرّحوا أو أعرضوا
نفسٌ مذبذبةٌ ورأسٌ مُنغضٌ (١)
جسمٌ صحيحٌ فيه قلبٌ مُمرضٌ
والحيةُ الرقطاءُ حينَ تُنضِضُ (٢)
بلْ أطنبوا وبنو المكارمِ فوَضُوا
ويظنُّ جهلاً أنّها لا تُنضِضُ
خُذْ بِالْأَصُولِ وَدَعْ عَوَارِضَ تَعْرِضُ
ومخضت ماءً مثلهُ لا يُمخضُ
بالفكرِ واستنهضتُ ما يستنهضُ
لم يبقَ في كَفْيِي إِلَّا الْمَقْبِضُ
يوماً برجسِ صفاتهمِ يتمضمضُ
لمديحِهِ يُلغى المَهْمُ وَيُرفَضُ
وسواهُ عبدٌ في العبيدِ مبعّضُ (٣)
قطبٍ تراهُ عن العُلا لا يقرضُ
مِنْ خَلْقِهِ وَالنَّاهِضُ الْمُسْتَنهَضُ

(١) أي محرك رأسه تعجباً، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيَنْفُضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾. (ب).

(٢) النضضة: صوت الحية، وتحريك الحية لسانها، ويقال للحية نضاض ونضاضة.

(٣) في الحلية: مبعض.

فَلأَمْدَحَنَّ جَنَابَهُ بجوارِحِي

وجوانِحِي سَخِطَ الحِوِاسِدُ أَوْرُضُوا

تِ شَعْرَةٍ وَبِكَلِّ عِرْقٍ يَنْبِضُ
بِخَلِّ وَأَمَّا فِي عِلَاهِ فَيُقَرِّضُ
أَبْدًا وَإِنْ رَاقَ العِيونَ مُبَغِّضُ
مِنْ فِيزِ رَاحَتِهِ نِوَالٌ مَوْفِضُ (١)
كِرْمًا فِإِذَكَ إِلى العِلا لا يَنْهَضُ
إِلَّا بِدَالِي مِنْهُ وَجَهٌ أَيْضُ
فَالْحَلْمُ مِنْهُ كَالنِّدَا يَتَفَضِّضُ
هُوَ بِالْمَلَامِ عَلَى التَّوَالِ يُحَرِّضُ
فَتَطَاوَلُوا لِمَنَالِهِ وَتَعَرَّضُوا
كَاللِّيثِ فِي صَدْرِ المَجَالِسِ يَرِضُ
جَهْلًا وَعَنْ بَادِي المَزَايَا غَمَّضُوا
بِحِرِّ وَإِنْ هُمْ فِي نَدَاهُ خَوْضُوا
أَبْدًا وَأَمَّا مَالُهُ فَمَعْوِضُ
يَلْقَى العِنا عِبْدًا إِليه مَفْوِضُ
فمَنْهَبٌ هَذَا وَذَاكَ مُفَضِّضُ
لَأَذَى البَرِيَّةِ وَالبَرِيِّ مُفَيِّضُ
وَلغَيْرِ مَدْحِكَ لا يَشُدُّ المَغْرَضُ
وَمُشَيِّدَ المَجْدِ الَّذِي لا يُنْقِضُ

وَبظَاهِرِي وَبِباطِنِي وَبِكَلِّ مَنبِ
فَالمدحُ يُكْرَهُ لِلْفَتَى فِي كَلِّ ذِي
فَهُوَ المَحَبَّبُ لِلقُلُوبِ وَغَيْرُهُ
شَهْمٌ إِذَا أَبْطَأَتْ عَنْهُ جِئَانِي
مَنْ لَمْ يَرِشْ بِالجُودِ مِنْهُ جِناحُهُ
مَا سَاءَ نِي دَهْرِي بِوَجْهِ أُسُودِ
بَرٌّ يُرِيكَ خِضَمَّ بَحْرِ زَاخِرِ
إِنْ لِيَمَ زَادَ عَلَى المَلَامِ كَأَنَّمَا
عَجَبًا لِقَوْمِ أَبْصَرُوهُ شَمْسَهُمْ
وَرَأَوْهُ مِلءَ صَدُورِهِمْ وَعِيونُهُمْ
فَتَحُوا لِأَقْوَالِ الوِشَاةِ عِيونُهُمْ
فَلِيكْفِهِمْ ذُلًّا وَخِزْيًا أَنَّهُ
نَدِبٌ فَأَمَّا عِرْضُهُ فَمَوْقَرٌ
لِلَّهِ فَوْضَ أَمْرَ دُنْيَاهُ وَهَلْ
يَا وَابِلًا كُلُّ الأَنَامِ رِياضُهُ
أَصْبَحَتْ نَفْعًا لِلأَنَامِ وَبَعْضُهُمْ
فَلغَيْرِ ذَاتِكَ لا تَتِمُّ فَضِيلَةٌ
لا زَلَّتْ فِي العِزِّ الَّذِي لا يَنْقِضِي

(١) فِي الحَلِيَّةِ: مَفْوِضٌ.

ما أحمد البربرُّ عاشَ بمدحكم طربًا وماتَ به العدوُّ المبغضُ
ثم رجعت بعد إنشادي من عالم الخيال إلى عالم الإحساس، فلم أرَ
أحدًا ممن رأيتُه من تلك الأنواع والأجناس. فعلمت أن الدنيا كلها خيال،
وبرق خلب وآل. والناس كلهم نيام، وما يرونه في الدنيا أضغاث أحلام.
فسألت الله أن ينهني وأحبابي من نوم الغفلة قبل هجوم الحِمام، وأن
يمتعنا بوجهه الكريم في دار النعيم والسلام^(١).



(١) بعدها في حلية البشر (١/٢٣٧): وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
والحمد لله على التمام.

المفاخرات والمناطرات

(٢)

المفاخرة بين الشمس والقمر

تأليف

الشيخ الأديب بهاء الدين محمد بن عبد الغني البيطار

(١٢٦٥هـ - ١٣٢٨هـ)

عني بها

الدكتور محمد حسان الطيآن

جامعة الكويت - كلية الآداب

دار النشر الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَنْ كَانَ فِي حَرْبٍ مَعَهُ نَسْرَةٌ
فَلْيُحْرِمِهَا

ترجمة المؤلف

هو الشيخ الأديب محمد بهاء الدين بن عبد الغني بن حسن بن إبراهيم، البيطار.

ولد في ١٥ ربيع الثاني سنة ١٢٦٥هـ.

حفظ القرآن الكريم على والده وجوّده، ثمّ قرأ عليه الشاطبية وشرحها لابن القاصح، وقرأ عليه جملة من كتب النحو والصرف والمعاني والبيان والعروض والقوافي وغير ذلك، ثمّ قرأ في الفقه والتوحيد والتفسير والحديث.

لازم علماء دمشق الأعلام؛ فأخذ عن الشيخ محمد الطنطاوي علم الجبر والمقابلة والحساب والميقات والفلك حتى برع، وقرأ على عمه الشيخ محمد البيطار جملة من كتب المذهب الحنفي، وقرأ على عمه الآخر الشيخ عبد الرزاق البيطار بعض رسائل الربع المجيب والمقنطر. وكان للمتّرجم مطالعة مع فهم جيد في علم الرمل.

له نظم لطيف، ونثر رقيق، وكتب مقامة أنشأها في المفاخرة بين الشمس والقمر. وترك مؤلفات منها:

— النفحات الأقدسية في شرح الصلوات الأحمدية الإدرسية.

ط مصر سنة ١٣١٤هـ (مجلد ضخّم).

- فتح الرحمن الرحيم .
- الواردات الإلهية (ثلاثة مجلدات).
- وله رسائل كثيرة منها:
- فيض الواحد الأحد في معنى خلود الأبد .
- قرة العين في حل البيتين (أولهما: يا قبلتي خاطبيني في سجودي).
- منظومة في الوجود والشهود والحق والخلق والجمع والفرق (أكثر من تسع مئة بيت).
- وكانت له أملاك كثيرة ورثها عن والدته التي لم يكن لها ولد غيره فباعها، وأنفقها، ولم يخلف عقارًا، وكان يسمى أبا الفقراء .
- توفي سنة ١٣٢٨هـ^(١).



(١) مصادر ترجمته: حلية البشر لعمه الشيخ عبد الرزاق البيطار (١/٣٨٠)، ومعجم المؤلفين لكحاله (١٠/١٧٩)، وعلماء دمشق في القرن الرابع عشر لمطبع الحافظ ونزار أبابطة (١/٢٥٦).

المفاخرة بين الشمس والقمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حدثنا^(١) يسارُ بن حازم، عن فتح الله أبي المكارم، قال: رويت عن الوراق^(٢)، بسندها عن العنقاء^(٣)، قالت: نشرت جناح الهمة، وطرت في فضاء الحكمة. ثم عرجت على الرفارف، إلى عالم اللطائف. فلم أزل أخترق حجابًا بعد حجاب، وأستفتح بابًا بعد باب. إلى أن وصلت مواطىء الأنوار، وحصلت بمواطن الأسرار.

فلما مرَّحتُ في مغانيها، وانشرحتُ بمعانيها؛ جُلْتُ بأعلى مجالي، في وجوه تلك المجالي. فرأيتُ في مرايا العجائب، ومزايا الغرائب: مجلسًا من مجالس السمر، جمع الشمس والقمر. وهما متقابلان في النظر، في ليلة أربعة عشر. فألفتُ منهما الحديث والنظرة، ودلفتُ لتلك الحضرة. ثم بادرت بالتسليم، وحييت بالتعظيم. فقالا: مرحبًا وأهلاً، فلقد صادف الغريبُ أهلاً.

ثم أجلساني على موائد الفوائد، وأنساني بفرائد العوائد. ثم شرعا يتناجيان، وقد برعا بسحر البيان، فعاينت ما أخذ بمجامع قلبي، واستولى

(١) أورد هذه المفاخرة كاملة الشيخ عبد الرزاق البيطار في «حلية البشر» (١/٣٨٢-٣٩٩).

(٢) الوراق: الحمامة.

(٣) طائر متوهم لا وجود له.

على عقلي ولبّي: من طرائف ألفاظ، أسحرَ من الألفاظ. وظرائف معاني، هي نزهة كل مُعاني^(١). فما أحلى ثمرَ تلك الفاكهة، وما أجلى ذاك السحر والنباهة. وما أرقق هاتيك الفقر، المُزْرِية بالآلىء والدَّرر. وما آنقَ تلك الأسجاع، الممتزجة بالطباع والأسماع. لقد رقت وراقت، ودقت وفاقَت: [من البسيط]

كَأَنَّ سَامِعَهَا مُدُّ مَالٍ مِنْ طَرَبٍ بَيْنَ الرِّيَاضِ وَبَيْنَ الكَاسِ وَالتَّوَرِّ
ثم إنهما لم يزاالا في منافثة^(٢) أطيبَ من العناقِ للمشتاق، ومحادثه
أطربَ من الصبا والبياتي^(٣) للعشاق. إلى أن جرّت بهما سوابحُ
المحاورة، وجرّتهما سوانحُ المحاضرة، فألقتهما من مسالكِ تلك
المسامرة، في مهاوي المهالك ومساوىء المفاخرة.

* * *

فصعد القمر، على المنبر الأزهر، وقال: الحمد لله والله أكبر. هذا جمالي قد زهر، وجلالي قد بهر، لمن شاهد ونظر، وحقّق واعتبر. أنا السرُّ الأكبر، والكبريت الأحمر. ذو السناء الزاهي، والضياء الباهي. جليت في أحسن الصور، وانشقت لسيد البشر، وكان يناغيني في الصغر، ويناغيني كما في الخبر. فأنا سلطان الكواكب، وزينة المراكب. أزور غبّا، لأزداد في القلوب حبّا. فسبحان من حلّاني بحلل التُّضار^(٤)، وولاني

(١) كذا في الأصل، وحقها أن تكون: وظرائف معان، هي نزهة كل معان.

(٢) نافته منافثة: خاطبه وسارّه.

(٣) الصبا والبياتي أو البيات: نعمتان مشهورتان.

(٤) التُّضار: الذهب.

ملك المجد والفخار. وهدى بي في ظلمات البر والبحر، فأنا سيد
النيرات ولا فخر.

ثم أنشأ وارتجل، وأنشد بغيرِ وَجَل: [من الوافر]

أنا قمرُ المحاسنِ والسَّناءِ ولي بينَ الملا أبهى لواءِ
فوجهي مشرقٌ في الأرضِ يُبدي من الأضوا صباحًا في المساءِ
أروق بطلعتي الأبصارَ أنسا وأبهجُ بالمسرةِ كلَّ راءِ
يرى شبهَ الحبيبِ بي المعنى ويشكو ما عراه من العناءِ
وينتظرُ الملا مجلى طلوعي هلالاً بالمسرةِ والهناءِ
فإن لم يلمحوا مرأى هلالي تراهم شاخصينَ إلى السماءِ
فبي صومُ الأنامِ بكلِّ قطرٍ كذاك العيدُ يبدو من لقائي

فالحمد لله الذي قدّرني منازل، وصدّرني في ميدان السباق وقدمني
على كل منازل. وصورني بأكمل صورةٍ وأجمل إنشاء، ذلك فضلُ الله
يؤتيه من يشاء.

ثم ختم إنشاء كلامه، بصلاته على النبي وسلامه.

* * *

فلما سمعت الشمسُ نثره ونظامه، ووعت قوله وكلامه؛ زفرت زفرةً
القيظ، وكادت تميز^(١) من الغيظ. فارتقت عرش البراعة والجمال،
وانتقت فرش البراعة والكمال. ثم قالت بعد أن تجلّت ببرود السّناء،
وتحلّت بعقود الحمد والثناء:

(١) تنقطع.

أنا العروس الناضرة، والعين الناظرة. بي تحلو ثمار لواعب الأدواح^(١)،
وتبدو محاسن الكواعب الملاح. ويأمنُ لعمرى الخائف، طارقَ الليل
الحائف^(٢). وتُنسخُ بي آيةُ الليل الحالك، وتستنير المسالك لكل سالك.
ويمتاز اليقين من الحدس^(٣)، واليوم من أمس. ولولاي لم تتحرَّر
مواقيت الصلاة، ولم يتيسر نيلُ يواقيت الصَّلَات.

فتبارك الذي جعلَ في السماء بُرجًا، وأجراني لمستقرِّي بها نُزولًا
وعُروجًا. وجعلني فيها سراجًا وهَّاجًا، وأوضح لي منها مَسْلَكًا ومنهاجًا.
وجلَّ مَنْ رفعتني مكانًا عليًا، وحباني من فضله نورًا جليًا. وأسكنني
أوسط الأفلak، والوسط خير الأمور، ونظمني في سلك العالين من
الأملاك، فسائر الأنوار عليّ تدور. وأحلَّ بفلكي نبيَّ الله إدريس^(٤)،
قطبَ الوجود في كل زمان، وغيره في هذا المقام النفيس، نائبٌ عنه في
هذا الشأن. وأقسم بي وبضحاي، وفضلني وأكرم مثواي. فلي القطبية
العظمى بين الأنوار، وبطلوعي وغروبي مناطُ الليل والنهار. ومن
مشكاتي أشرق كلُّ نورٍ في العالمين ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾
[المؤمنون: ١٤].

ثم رَنَّت^(٥) القمرَ بعين مُحمَّرة، ووجنة مُصَفَّرة. وقالت: عجبت

(١) الشجرات العظيمة المتسعة، وهي جمع الجمع لدوحة.

(٢) اسم فاعل من حاف يحيف إذا جار وظلم.

(٣) الحدس: الظن والتخمين.

(٤) قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

(٥) يتعدى هذا الفعل بنفسه وبحرفي الجر: اللام وإلى، يقال: رنوته ورنوت إليه
ورنوت له: أدمت النظر.

للمملوك، يجاري في مسراه الملوك. وللدّرهم المصكوك، يباري الذهب المسبوك.

أيها القمرُ القاضي بحدسه، المتغاضي عن معرفة نفسه. كأنك تقول لي بلسان الإشارة: «إِيَّاكَ أُعْنِي فَاسْمَعِي يَا جَارَهُ»^(١): [من الرجز]

سَوْفَ تَرَى إِذَا انجلى العُبارُ أَفْرَسٌ تحتَكَ أم حِمَارُ

أما علمتَ أيها المتغالي في الحدّ، والمتعالي بما ليس في اليد: أن دعواك في النور، محضُ مَيِّنٍ وزُورٍ^(٢)؟!؛ حيثُ كنتَ ليلةَ الميلاد، مرتدياً السواد، فلم أزل أربكُ بسنائي وليدا، وألبسكُ من ضيائي ثوباً جديداً. إلى أن اشتدَّ ظهورُك، وامتدَّ في الآفاق نورُك. فإذا كانَ ليلةَ الرَّابعةِ عشرةً من الشهر، أقابلُك بكَمالي فتكونَ كاملَ القدر. فعند ما تمَّ لك مني السَّنا، جهلتني ولم تدرِ من أنا! أما علمتَ أن نورَكَ مِنِّي وإلَيَّ، وحُكْمك في الإضاءةِ عائِدٌ عليّ؟ فكيف تفتخر علينا بنا، وتسوي في المقام بينك وبيننا؟ وأما زَهُوك^(٣) بالانشقاق للسيد الحبيب، فليس بأعجبَ من ردِّي له بعد المغيب^(٤).

ثم أنشدتُ بلسانِ صادق، وأرشدتُ ببيانِ بارع: [من البسيط]

لي رتبةٌ في العُلا تسمو بها الرُّتبُ وأوجُ مجدٍ له العُلياءُ تنتسبُ

(١) مثل يضرب لمن يتكلم بكلام، ويريد به شيئاً غيره. مجمع الأمثال (٤٩/١)، والرواية فيه: «... واسمعي يا جاره».

(٢) المَيِّن الكذب، مان يمين مَيِّناً: كذب، والزُّور الكذب والباطل ومنه شهادة الزُّور.

(٣) الزَهُو: الكِبْر والثِّيُّ والفخر والعظمة.

(٤) تراجع معجزاته هذه ﷺ في كتب السيرة النبوية.

وَأَيَّةُ الْحَسَنِ بِالْإِشْرَاقِ تَشْهَدُ لِي
 إِذَا بَزَعْتُ فَلَئِي مَلِكُ الضِّيَاءِ وَإِنْ
 لَوْلَايَ لَمْ يَسْتَقِمِ لِلنَّاسِ عَيْشُهُمْ
 وَلَا حَلَا ثَمَرٌ وَلَا نَمَا شَجَرٌ
 عَيْنِي أَنْارَتْ وَجُودَ الْكَوْنِ أَجْمَعِهِ
 وَمِنْ ظِلَالِي مَوَاقِيتُ الصَّلَاةِ وَمِنْ
 فَلَئِي الْكَمَالُ الَّذِي حُزْتُ الْفَخَارَ بِهِ
 بِأَنَّ مَنِّي جَمِيعَ النُّورِ يُكْتَسَبُ
 أَغْبُ فَعَنِي يَنْوُبُ الْبَدْرُ وَالشُّهُبُ
 وَلَا بَدَتْ لَهُمُ الْأَيَّامُ وَالْحِقَبُ^(١)
 وَلَا بَدَا قَمَرٌ وَلَا هَمَّتْ سُحُبٌ
 وَمِنْ هُدَايَ اهْتَدَى الْأَعْجَامُ وَالْعَرَبُ
 غُرُوبِي الْفَطْرُ لِلصُّوَامِ يُرْتَقَبُ
 «وَإِنْ عَلَانِي مَنْ دُونِي فَلَا عَجَبُ»

* * *

فلما سمع القمر ما هاله، قال: لا دارت لي هالة^(٢). إن لم أبرز لك
 في ميدان السَّبْقِ، وأبدي شرفي عليك لسائر الخلق. أما سمعت أيتها
 الشمس، قولَ باريء الجنِّ والإنس: ﴿وَلِلرَّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:
 ٢٢٨]، فأنتِ بي في الفضل مندرجة. على أنك وُسِّمت بالعين، وقد
 شاهدت بالعينين ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، وأعدُّ شاهد
 بسبقي لمن اعتبر، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠].

وأما ما تعاليت به عليّ، فائلة: إن نورك مني وإليّ. فالفرع قد
 يشرف أباه، أحبّ ذلك أو أباه:
 [من الرمل]

إِنَّمَا الْوَرْدُ مِنَ الشُّوكِ وَمَا يَخْرُجُ النَّرْجِسُ إِلَّا مِنْ بَصَلٍ
 فلا غرو أني القمر المنير، ذو الشأن الخطير. بسنائي تطيب
 القلوب، وعلى ضيائي يجتمع المحب والمحبوب. فالأفراح لا يتمُّ

(١) جمع حقبة، وهي المدة من الوقت.

(٢) الهالة: دائرة القمر، كالطفاوة لدائرة الشمس. جمعها: هالات.

سرورُها إلا بحضرتي، والراح لا يكمل حُبورها إلا لدى طلعتي . وكم من
ذي جفن ساهر، وذهن حائر . وطرف جائل، ودمع سائل . وقلب ذائب،
وكرِبِ دائب . بيتٌ لي شكواه، وبيتٌ^(١) لي بلواه . وكم من كَلِفِ يحنُّ
إليّ، لما يرى من شبهي بالحبيب، ودفن يئن لدي، كأني لدائه طبيب .
فأنا الشقيق لأهلِ الحُسن والجمال، والشفيقُ على من صبا عشقًا ومال . إن
أنكر المحبوب وَجَدَ الحبيب، أجابه: سل أخاك فإنه عليّ رقيب . وما
أعذب ما قاله ابن سهلِ الهمام، في هذا المقام: [من البسيط]

سَلْ فِي الظلامِ أَخَاكَ البدرَ عن سَهري

تدري التَّجوُّمُ كما تدري الوريَّ خَبَري

مع أني شريكُ ذوي الشُّهاد^(٢) ليلا، والهائمُ معهم بجمالِ سَعدي
وليلي . فأنا رئيسُ ديوانِ الصباية، وأنيس من فَوْق^(٣) له الهوى سهمَ الحب
فأصابه: [من الطويل]

فما شَرِبَ العِشاقُ إلا بَقِيَّتِي ولا وَرَدوا في الحبِّ إلا على وِردِي

خلا أني أقربُ الكواكبِ إلى عالمِ الإنسان، وأعذبهم في تمام
الحسن وكمالِ الإحسان . فلذا جمالي باد، لكل حاضر وباد . تقرُّ
الأعينُ برؤيتي، وتشتهي الأنفسُ شهود طلعتي . فغرَّتني طالعُ السعد
والبشر، وسمائي موطن آدم أبي البشر . فلتكفَّ الشمسُ عن

(١) نَت الخبر: أفشاه .

(٢) السهاد: الأرق .

(٣) فَوْق السهم: جعل له فوقاً وهو الموضع الذي يثبت الوتر منه . ح

مضاهاتي، ولتُمْسِكْ عن مساجلتي ومباهاتي. ولتحاولَ غيرَ هذه الشُّطَّةِ^(١)، قبل وقوعها معي في أعظمِ ورطة. ولتعرّفْ بفضلي اعترافَ من تنبّه غِبِّ^(٢) ما سها، وإن عادت العقربُ عدنا لها.

ثمَّ شمر عن ساعده الأشد، وضرب بلسانه أرنبه أنفه وأنشد:

[من البسيط]

لي منهجٌ في العُلا قد عزَّ مسلُكُهُ ولي الكمالُ الذي بالفضلِ أملكُهُ
تمنّتِ الشمسُ أنْ تدنو لمرتبتي «ما كلُّ ما يتمنى المرءُ يدركُهُ»

* * *

فعندَ ذلك التهبت الشمسُ غضبًا، وقصّت بما سمعته وشاهدته عجبًا، وقالت:

تعاليتِ عليَّ بالإفك، وتعاميت عن حِطَّتِكَ^(٣) مذ كنتُ هلالَ الشك. وبغيتِ بغيَ من ضلَّ وتزندق، وتفرزنت وما أنت إلاَّ بيدق. أو ما خجلت من هذا الصِّلف، مع ما في وجهك من الكلف؟ وهل أنت مني في القدر، إلاَّ كقلامة الظُّفر؟! ومع ما فيك من المحو والنقصان، كمالك لا يفني بتمام الإيضاح والبيان. فأنت تالٍ وأنا مملوءة^(٤)، وآيتي مبصرة وآيتك محووة^(٥).

وكفالك أيها الخادع الغرّار، أن اسمك مشتق من القمار. وأنت عونُ

(١) شطت داره بعدت وأفرطت في البعد.

(٢) غِبٌّ: بعد.

(٣) الحِطَّةُ: نقصان المنزلة.

(٤) ﴿وَالشَّمْسُ وَضَعَهَا * وَالْقَمَرَ إِذَا نَلَّهَا﴾ [الشمس: ١، ٢].

(٥) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِلَّذِينَ يَبْهَتُونَ بِهَا آيَاتِنَا لِيَكُونَ النَّاسُ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الإسراء: ١٢].

السارق، وهونُ العاشق الطارق. تُحِلُّ أجرة المنزل وأجلَ الدين، فتُذِلُّ بذلك فاقدَ الورق^(١) والعين^(٢). ويُولي نورك ثيابَ الكَتَّان، ويؤول كمالك إلى النقصان. وليت شعري هل لك بظهوري ظهور، وهل محور الدرج والدقائق إلا عليّ يدور. فالزم الخضوع والاستكانة، ولا تطاول من سماك مكانًا ومكانة. فما هلك امرؤُ عَرَفَ قدره، ولا سلك صوابًا من رَوَّج مكره وغدره. ولقد بانَت حُجَّتكَ، واستبانَت مَحَجَّتكَ. فلا تَعُدْ بعدُ إلى الحيف، فتكون كمن ضيَّع اللبن بالصيف^(٣). والزم الأدبَ مع أهل الكمال، ولا تكُ ممن عرف الحق ومال.

ثم إنها تاهت تية نَشوان، وفاهت بشبيه الجُمان:

[من مجزوء الكامل]

أنا قد لبستُ بيهجتي	خَلَع المَلاحَةَ والطُّرْفَ ^(٤)
وظهرتُ في أوج العُلا	بيديعِ حَسني والطُّرْفَ
حَسبُ الهلالِ تكَلَّفَا	ما فيه من شَيْنِ الكَلْفِ
وبأنَّه لو لم يُقا	بلني لغشَّاهُ السَّدْفُ ^(٥)
وإذا تجلَّتُ طلعتني	في ذاتِه منها انكشَفُ
وإذا انحرفتُ لوجهتي	في السيرِ أظَلَمَ وانكسَفُ

(١) الدراهم المضروبة.

(٢) الذهب المضروب.

(٣) هو مثل لمن يطلب شيئاً قد فوَّته على نفسه، ونصه: «الصيف ضيعتِ اللبن» أو «في الصيف ضيعت اللبن». (انظر: مجمع الأمثال ٦٨/٢).

(٤) جمع طُرْفَة، وهي الحديد الجديد المستحسن.

(٥) السَّدْف: الظلمة والضوء: من أَلْفَاظ الأضداد.

فكَأَنَّني وكأَنَّهُ في شأو^(١) سَبَقِ ذِي شَرَفٍ
كَالذَّرَّةِ البِيضَاءِ إِذْ يا حالها قشر الصَّدْفِ^(٢)

* * *

فلما أمعن القمرُ في معانيها، وجال طرفُ فكره في مغانيها؛ وثب
وثبة الأسد، ونَعَبَ نَعْبَةً^(٣) الحرد والغضب. وقال:

أيتها اللافحةُ بنارِ الهاجرة، لأنَّ التاركةَ لِلإنصافِ والهاجرة. وتزدريني
بسوادِ الكَلْفِ^(٤)، أو ما دريتِ أَنه من دواعي الحَبِّ والكَلْفِ، فهل هو إلَّا
كخالٍ تُوجَّجُ به الخدُّ المورَّد، أو كمنقطةٍ عنبرِ صيغتِ على درٍّ مُضدِّد،
أو عِذارٍ يقيم لعاشقيه الأعدار، أو إنسانٍ عِينٍ يشير لناظريه بِالإنذار.
وكأنك لم تسمعي قول من قال، وأحسَنَ فيما قال: [من الكامل]

أهلاً بفطري قد أنارَ هِلالُهُ الآن فاغدُ على المدام وبكِّرِ
فكأَتما هو زورقٌ من فضَّةٍ قد أثقلتُهُ حمولةٌ من عنبرِ

وأرقُّ من هذا في التشبيه، وأدقُّ وألطفُ في التنبيه، قولٌ من أجاد:

[من الكامل]

ياريم^(٥) قومي الآن ويحكِ فانظري وجهَ الهلالِ وقد بدا في المشرقِ
كخليفةٍ نظرتِ إلى خِلِّ لها فتَنقَّبَتْ خَجَلاً بكمَّ أزرقي

(١) الشأو: الأمد والغاية.

(٢) كذا في الأصل، ولم يتجه لي معنى الكلام!.

(٣) نَعَبَ الغراب: صاح وصوَّت.

(٤) السواد في الصفرة.

(٥) الريم: الطبيُّ الخالص البياض.

[من مجزوء الكامل]

ومن هذا القبيل ما قيل :

قالوا التحى، فمحا محاً سنَ وجهه نبتُ الشَّعرُ
الآن طابَ وإنَّما ذاكَ النهارُ على السَّحرُ
لولا سوادُ في القمَرُ واللَّه ما حَسُنَ القَمَرُ

وأعدلُ شاهدٍ لي بكمالِ القدر، تلالؤُ وجهه ﷺ تلالؤُ القمر ليلة
البدر. وكان إذا رأني يقابلني بجميلِ مُحيَّاه، ويقول: «هلالُ خيرٍ ورُشدٍ إن
شاء الله».

فبركاتي مشهورة، والدعوات لدى ظهوري مأثورة. وحزبي هم
السادة الأفراد، وصحبي هم القادة الأمجاد. يناجون معي في الأسحار،
ويرجون سنيَّ النفحات بالذلة والانكسار. ﴿ نَتَجَأَنِي جُؤِبُهُمْ عَنِ الْمَصَاجِعِ ﴾
[السجدة: ١٦]، وتنهلُّ من عيونهم عيونُ المدامع. فلا ريب أنهم فازوا
بالمشاهدة والوصول، وحازوا أحسن الشيم والخصال. ولي إليهم أيادٍ
وأبْيَ أياد، حينما يصدونني للصوم والأعياد.

هذا، وإن شعاعك أيتها الشمس، يذهب بالسرور والأنس. ينشي
الصداع، ويغشي الأسماع، وينفر الطباع، ويثير الداءات والأوجاع.
فلا يبدو به انشراح، ولا تشدو به بلابلُ الأفراح. ومن الذي
بشعاعك ترنم، و«شدة الحرِّ من فيح جهنم». وكيف لا وسيد الأنام،
ظللَّه من حرك الغمام. وقد صحَّ عن سيد ولدِ عدنان، «طلوعك بين
قرني شيطان». فضلي عليك متعين واجب، والعين لا تعلقو على
الحاجب.

* * *

فلما وعت الغزالة^(١) ما أبداه، ورعت منتهى كلامه ومبتداه. آلت^(٢)
بربّ المشارق والمغارب، لتجرّعه من كؤوس نقمتها أمرّ المشارب.

ثم قالت: إلى متى تتناول في مذمتي، وحتى متى وأنت غرس
نعمتي. فلاجعلنك أيها القمر عبرة لمن اعتبر. ألم أعدك وأنت في ضنا
المحو والمحاق^(٣)، وأعدك للوجود بعد الفنا والاحتراق. وأكسك بعد
التجرّد حلة البهاء، وأقلّدك قلائد التورّد والازدهاء. فنبذت شكري وراءك
ظهرياً، وتركت برّي نسيّاً منسياً، وجنحت إلى الغرّة، واستكبرت استكبار
أبي مرّة^(٤). وقابلتني بكفران النعم، وجازيتني بالعدوان والنقم. فما
أراني بعد إحساني الغامر، إلا كمجير أم عامر^(٥).

ثم أعرضت عنه ابتداءً، وتمثّلت وعينها تتقد اشتعالاً:

[من الوافر]

أعلمه الرّماية كلّ يومٍ فلماً استدّ^(٦) ساعده رمانِي
وكم علّمته نظم القوافي فلماً قال قافية هجانِي

(١) الغزالة: الشمس عند طلوعها.

(٢) حلفت.

(٣) المحاق والمُحاق والمحاق: آخر الشهر القمري حيث لا يظهر القمر.

(٤) كنية إبليس.

(٥) الضبع.

(٦) استدّ: استقام، وهذه هي الرواية الصحيحة للبيت كما في مجمع الأمثال

(٢/٢٠٠)، ولسان العرب (سدّد). قال الأصمعي: استدّ، بالشين المعجمة، ليس

بشيء.

ثم نظرتُ إليه شَزْرًا^(١)، وقالت لقد جئتُ شيئًا نَكْرًا، أتظن أن أحدًا بهجائي يعوّل عليك، أو ينظر دوني بالإقبال إليك. وهو يعلم أن ما فيك من النور ليس من صفاتك، وإنما هو من أشراق سنائي بمرآة ذاتك. وإن ما بدا منك فمعار مني إليك، وكلُّ ناظر بعين الحقيقة فإلي لا إليك. فوالذي أثبتني بالبقا، ومحاك بالفنا، ما ظهر فيك أيها المغرور إلا أنا. فما رأى أحدٌ منك سواي، ولا بدا فيك إلا معنای. والله درُّ العفيف، إذ أشار لهذا المعنى اللطيف، فقال: [من الطويل]

نظرتُ إليها والمليحُ يظنُّني نظرتُ إليه ومبسمها الألمي
ولكن أعارته التي الحسنُ وصفها صفاتِ جمالٍ فادّعى ملكها ظلماً

وأما إعابتك عليّ بطلوعي بين قرني شيطان، فهو في الحقيقة عائد لعباديّ من ذوي الطغيان. وتظليل الغمام من حرّي سيد الخلق، فهو لما أودعته من نور جلال الحق. أو ما علمت أن الله سبعين حجابًا من نور وظلمة، لو كشفها لأحرقت سُبحات وجه^(٢) كلّ أمة. فلي شرب^(٣) من إشراق تجلي القهار، بشاهد قوله جل من قائل: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فانظر لما ألقىته عليك بعين الفهم ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. واطو من بيننا شقّة الكلام، فإنها جالبة للطعن

(١) الشَزْرُ: نظرة الإعراض أو الغضب أو الاستهانة.

(٢) أنواره.

(٣) الشَّرْبُ: النصيب.

والكلام^(١). وأبق للصلح موضعاً ومحلاً، وكفّ عني لسانك وإلاً. فقد لاح الحقُّ لذي عينين، وراح الباغي بخفي حنين. وإن عدت لزخارف عدوانك ومينك، فهذا فراق بيني وبينك.

* * *

قالت العنقاء: فلما رأيتُ احتداد الحجاج وامتداد اللجاج. وقد كاد كلُّ منهما من الجدال، أن يتلو سورة القتال. قلت غيباً أن أحسنت لفظي، وأكثرت نصحي ووعظي: هل لكما في حكم، يفصل بينكما بآداب وحكم؟

فقالا: ومن الذي يلقي إليه القياد، في كشف هذا العنا والعناد؟ فأنبئنا أيتها الناصحة عنه، لنلتقط درر المعارف والبيان منه.

فقلت: اللهم بلى، وهل يخفى ابنُ جلا. إنه لفارس السباق في كل ميدان، وغارس حدائق الآداب لكل قاصٍ ودان. رسائله وسائل المنى لكل عارف، وفوائده جداول الهنا لكل غارف. ومليحه قد عذبت حلاوةً وانسجاماً، ومنحه أدارت من راحها قدحاً وجاماً. كم ركعت البلغاء لجمال أبقاره الحسان، وسجدت الأدباء لكعبة أفكاره الباهرة كلِّ إنسان. فإن أقرَّ على الرقِّ^(٢) أنامله، أقر بالرقِّ أدباءُ الأنام له. تضحك ثغور الأوراق طرباً من بكاء يراعِهِ، وتسجع بلابل الأوراق عجباً من طيب لفظه وسماعه.

فلو انتشق ريحانة لفظهِ ابنُ نُبّاة، لاستطاب في ربا البديع نُبّاته.

(١) جمع الكَلَم: وهو الجَرَح.

(٢) الرِّق: جلد رقيق يكتب فيه.

فأين النسيجُ الحريري من رفيع مقاماته، والغزل الجريري من ترصيع أبياته^(١)؟ فرياض عباراته حياض الشفا لغليل كل عليل، وغياض إشارته مفاض الصفا وأنس الجليل.

فلو امتزج النسيم بنفحة أنفاسه القدسية، لأغنى أهل الرموس عن نفخة النشور، ولو انبلج لأهل الجحيم نورُ طلعتة الأنسية، لعُرفت في وجوههم نَصْرَةُ النعيم والسرور. هذا وراحته بفيض نداها السائل، راحة لكل راجٍ وسائل، فلعمري لقد دارت شموس الكمالات عليه، وسارت بدور السعادات إليه: [من البسيط]

أفديهِ عبدًا إلى الرزاقِ ذا شيمٍ تألقتُ من سناها غُرَّةُ الزمَنِ
وسيدًا من بني البيطارِ والدُّه بدرُ الهدى حسنٌ ناهيك من حسنِ

* * *

فأقبلا على بهيجِ بابه، وقبلا أريجَ أعتابه. ثم قدما لمقامه السعيد، مقامة التهئنة بالصوم والعيد. وغبَّ ذلك تساجلا^(٢) لديه، وتناضلاً بين يديه. فهو حُكْمُ الحِكم، ومنتهى الهِمَم. فعرجا في الحال، واندرجا بحماه العال. فحينما رأهما حيًا وبيًا، وتهلّل بالبشر منه باهي المحيا. وقال: مرحبًا وأهلًا بالنيرين، ومن هما لجسد الكون كالعينين.

قالت العنقاء: فقلت: ها أنتما بالمشهد المأنوس، ولا عطرَ بعد عروس^(٣)، فلينضح كلُّ منكما إناءه بما فيه، ولينصح نفسه بصدقها في

(١) رصع الشيء: قدره ونسجه.

(٢) المساجلة: المباراة والمفاخرة.

(٣) من أمثالهم، ويروى أيضًا: «لا مخبأ لعطر بعد عروس». مجمع الأمثال (٢/٢١١).

ظاهر أمره وخافيه .

* * *

فلما سرّداً لديه المقامة، وودّاً أن يقيم كلا منهما مقامه . قال :
والذي ألبسكما من الجمال أبهائه، ومن الكمال أنهائه، ومن الحُسن أولاه،
إنكما لآيتان من آيات الله . ولأنتما للزمان روحه وجسده، ولعالم الإنسان
عضده وسنّده . وهل أنت أيها البدر من يوح^(١)، إلّا كشقيقِ روح أو ابن
بُوح^(٢)؟ فلم تختلفان، وعليكما دار المَلَوَان^(٣) بحسبان؟! وما منكما إلّا له
مقامٌ معلوم، وفضل في الأنام موسوم . فلا تعودا إلى المشاحنة فإنها تشين
النفاسة، ولا يخفى عليكما ما ينشأ عن حب الرئاسة .

* * *

قالت راوية الأثر: فلقد خَلَبَ القلوبَ ببلاغته وأسر، وأرضى كلاً
منهما بما أمضى وأسر . فتَهَلَّلَ وجه كلِّ منهما بالصلح، وتلا سورة النصر
والفتح، وتمثَّلَ كلُّ وقوفاً بين يديه، واستأذن بشكره والثناء عليه . فقال :
بسم الله ولا حَرَجَ، حيثُ تمَّ المنى ووافى الفرج .

فعند ذلك ابتدرت الشمس ، وأنشدت ما يقرُّ العين والنفس :

[من مجزوء الكامل]

حَيَّاكَ مِنْ فَرْدٍ وَحِيدُ يَا طَلْعَةَ الْحَسَنِ الْفَرِيدُ
يَا سَالِيًا قَلْبِي الْعَلِيلُ وَسَالِبًا لِبَيْ الشَّرِيدُ

(١) يُوح : اسم للشمس .

(٢) ابن بُوحك : ابن نفسك، والبُوح : النفس .

(٣) المَلَوَان : الليل والنهار .

لولا قوائمك مائسٌ ما شاقني غصنٌ يميذ
كلاً ولولا راحُ ثغرك لم أهنم في حُسنِ غيذ
لم أبرد منك لطائفنا إلا حلال لي أن أعيذ
وهواك أقرب للحشا والروح من جبل الوريذ
يا مَنْ لأوج صدوده قد أعجم الوصل الحميد
قلبي الحسينُ شهادةً واللحظُ منك غدا يزيد
أصبو بنجدٍ والعرا قِ إلى بياتك لو تريذ
وأنوح نوح الأصفها ني كي ترقّ فلا يُفيد
وحصارُ ركب نواك ير صدني جهاراً بالوعيد
حجز القرار^(١) ولم تجب عذ باللقا فالوعدُ عيد
ضربت بي الأمثال في العشاق من شوقي المزيذ
وفني جميلُ تصبيري لكن شوقي لا يبيذ
حملتني بهواك ما بأقله شاب الوليذ
قل لي فديتك هل حشا ك الصخرُ أم صلد الحديد
أو ما ترى من مُقلتي دمعا جرى البحرُ المديذ
وتنهدي وتسهدي وتشتي في كل بيذ
ولقد لقيت من العوا ذل كل شيطان مريذ
كفروا جمالك إذا أبوا إلا ظلالهم البعيذ
فهم لفي لبس^(٢) بأن هواك من خلقٍ جديذ

(١) جرت عادة الأستاذ الوالد عمل (التورية) بأسماء الأنعام في معظم القصائد. (من

تعليقات الشيخ محمد بهجة البيطار).

(٢) الإشكال والاختلاط.

تَبَّأ لَهُمْ أَوْ لَيْسَ مِنْهُمْ فِي الْهَوَى رَجُلٌ رَشِيدٌ
يَا لَيْتَ نَارَ الصَّدِّ تُضَلِّي كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٌ
أَوْأَهُ لَوْلِي بِالْعَوَا ذَلِ قُوَّةُ التَّنَدِبِ الْجَلِيدِ
لَكَفَيْتُهُمْ لَكُنْتُ لِي آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدِ
مَوْلَايَ أَعْنِي الْعَبْدَ لِلرَّ زَاقٍ ذَا الْحَسَبِ الْمَجِيدِ
لِي مِنْهُ زَاهِرٌ نَسَبَةٌ (١) لَكُنْتُ لِي أَدْنَى الْعَبِيدِ
لِللَّهِ مَوْلَى لَدَّ لِي فِي وَصْفِهِ عَذْبُ النَّشِيدِ
كُلُّ الْوَجُودِ عَلَى كَمَا لِصِفَاتِهِ الْحُسْنَى شَهِيدِ
وَالدَّهْرُ طَوَّقَ مَنْ سَجَا يَأَهُ الْفِرَائِدَ عَقْدَ جِيدِ
يَا سَامِيًّا أَوْجَ الْعُلَا بِالْحِذْقِ وَالرَّأْيِ السَّيِّدِ
عِيدُ الصِّيَامِ بِشِيرِهِ وَافِي حِمَاكَ فَلَا يَحِيدُ
فَاهِنًا وَدُمٌ فِي كُلِّ عِيدِ فِي صِفَا الْعَيْشِ الرَّغِيدِ
وَإِلَيْكَ فِي حُلَلِ الْبَهَا مَزْفُوفَةٌ بِكَرِّ الْقَصِيدِ
حَلَّتْ سَمَوًّا مِنْ رَفِيعِ عِلَاكَ فِي قَصْرِ مَشِيدِ
لَمْ تَرْتَجِي إِلَّا قَبْو لَكَ يَا مَلَاذَ الْمُسْتَفِيدِ
قَدْ أُرْخَتْ سُذُّ بِالْمَنَى يَهْنِيكَ بِالْعَيْدِ النَّضِيدِ

سنة ١٣٠٤

* * *

(١) هو عمه شقيق أبيه الشيخ عبد الغني وهو الثاني في مرتبة البنين، والشقيق الأكبر هو الشيخ محمد الذي كان أمين الفتوى في عهد المفتي محمود أفندي حمزة؛ وأصغرهم سناً شقيقهم الشيخ سليم الفرضي الشهير، وهم أبناء الشيخ حسن البيطار، رحم الله الجميع. (محمد بهجة البيطار).

فلما فرغت الشمس من آياتها، وسحرت بباهر آياتها. رفع القمر
عقيرته، وأنشد قصيدته: [من الكامل]

إلا التي زانت بحسن راقبي
شبه العذول هما جناس طباق
ضدين من سُم ومن تريباق
وردًا يفوح بعنبر عباق
راحًا جرت في اللؤلؤ البراق
صدًا أذاقتني أمرًا مذاق
هيهات ما لقتيلها من واق
أن المنايا الحمر في الأحداق
والقلب مأسور رهين وثاق
ضربت به الأمثال في الأشواق
بمدماع الخنساء في الآفاق
من أوجه لمحير العشاق
حجز البيات وقد صبا لوفاق
وحصاره يرثي بنجد عراق
إن الوفا من طاعة الخلاق
فارحم فديتك جعفر^(١) الآماق
يحيى بحسبك ناظر المشتاق
يلقى لديك مقطعا بفراق

ما للمصاب من الجوى من راقبي
هيفا كجسمي خصرها، ويردفيها
جمعت بفاتر لحظها ورضابها
سبحان من أبدى بروضة خدّها
وأدار من كأس العقيق بثغرها
عذبت حلاوة حسنها لكتنها
هل لي مجير من سهام لحاظها
ما كنت أحسب قبل وقعة عشقها
كيف النجاة من الهوى وشراكه
يا آل ودّي هل لكم في مغرم
يرثي له الصخر الأصم إذا بكى
يا غادة تشدو جهارًا بالتوى
قلبي الحسيني الشهيد صباة
رصد اللقاء فظل من ركب الجوى
عزّ القراز فهل جواب بالمنى
يا وجهها أنت الرشيذ هداية
لا زلت مسرورًا بملك ملاحه
ما حق قلبي وهو بيت هواك أن

(١) الجعفر: النهر الصغير. يريد: ما جرى من دمعه.

إلّا لمدحي كامل الأخلاق
ضحكت ثغور الكتب والأوراق
أنوارها لم يخش جور محاق
عقد الكمال وجليّة الأطواق
كأس الهدى إلّا وكان الساقى
في فكره إلّا سما بسباق
لم ينج إنسان من الإغراق
أوصافه مجدا لسبع طباق
لم تستطع يده سوى الإنفاق
لدعوته بمقسّم الأرزاق^(١)
والسعد بين يديه في الإطراق
ساد الأنام بها على الإطلاق
ولأنت فينا عيد أنس باق
بسما الكمال بلا مغيب تلاق
منك القبول فذا أجل صدق
من درّ وصفك حليّة الأعناق
بالبشر عيد دام والإشراق

سنة ١٣٠٤

آلت دهرى لا التفّت عن الهوى
حبر إذا أبكى عيون مداده
ذو غرّة لو يستجير البدر في
وشمائل أضحت لجيد زماننا
ما دار من راح العلوم وصفوها
كلّا ولا في شأو فضل قد جرى
طوفان نوح لو حكى إحسانه
عمّت مكارمه البسيطة وارتقت
لو رام إمساكا وحاشا جوده
لو لم يكن عبدا لرزاق الورى
سجدت لكعبة عزه هام العلا
يا سيذا زان الزمان بشيمة
هذا هلال العيد أمك بالمنى
فاهنا ودّم شمس الهداية طالعا
واستجل من فكري عروسا مهرها
قد زفها نظم البهائم مقلدا
وافى بها عيد السرور مؤرخا

* * *

(١) هذا من مبالغات الشعراء.

قالت العنقاء: فهاج بي نسيماً الغرام، وماج بي بحر الوجد والهيام. أن أنحو نحو هذا الأثر، وأن أتشبه بالشمس والقمر. لأن التشبه بالكرام فلاح، والتنبه للاقتداء بهم نجاح. فعزرتُهما بثالثة، وفيّةً بالعهد لا ناكثة:

[من الوافر]

وكيفَ وما جنى ذنباً سلاه ^(١)	سلاه عن فؤادي هل سلاه
شروذٌ عَجْبُهُ يَأبَى وفاهُ	غزالُ زانهُ جِيدٌ وفاهُ
عن الخللِ الوفيّ ماذا ثناهُ	أقمتُ على ثناهِ وليتَ شعري
لذا من لحظه الغازي رماهُ	بشعرٍ لماهُ ظلَّ رباطُ قلبي
وسلبي في هواهُ غدا مناهُ	عذابي في جواه يراهُ عَذْباً
بمَنْ في ليْلِكُنَّ نما ضناهُ	فيا تلكَ الشعورُ ألا شعورُ
فأنتَ لذي الضنا أحلى جناهُ	ويا وردَ الخدودِ ألا ورودُ
لمن بسلافِ كُنَّ غدا شفاهُ	ويا تلكَ الشفاهُ ألا شفاهُ
ولا تُغني الشجيّ الصبَّ أه	لقد طالَ البِعادُ ولا سلوُ
بمَنْ في حسِنهِ العشاقُ تاهوا	ألا يا للهوى مَنْ لي عذيرُ
دمَ الصَّبِّ الحسيني في هواهُ	عراقيُّ الطَّباعِ يبيحُ ظلمًا
بأوجِ جمالِهِ وأضا سناهُ	صوتُ بِهِ جهارًا مذ بدا لي
فيحجُرني ويرصدُ لي عناهُ	وركبُ صدودِهِ يُيدي حصارًا
بنوحِ الأصفهانِي مِنْ نواهُ	أنوحُ محيّرًا وأبوحُ وجَدًا
سوى جفني تجاوبني دماهُ	وقد عزَّ القَرارُ فلا جوابُ

(١) كذا في الأصل ولعل الأشبه بالسياق أن تكون: سواه.

فَمَنْ لِي يَا أَهْيَلَ الْوَدِّ فِيهِ
 رَضِيْتُ بِحَبِّهِ وَصَلًّا وَهَجْرًا
 كَتَمْتُ غَرَامَهُ حَتَّى كَأَنِّي
 وَأَنْكَرْتُ الْهَوَى صَوْنًا لِأَنِّي
 يَشْخُصُهُ الْهَيْامُ بِكُلِّ ذَاتِي
 فَلَوْ يُدْعَى اسْمُهُ أَلْفِي مُجِيًّا
 لَهُ مَلِكُ الْفَوَادِ وَكُلُّ عِشْقِي
 تَنَاهَى فِي الْجَمَالِ كَمَا تَنَاهَى
 مَلَاذُ عَبْدٍ رَزَّاقِ الْبِرَايَا
 رِيَاضُ أَكْفِهِ تَزْهُو سَمَاحًا
 تَخَالُ نَزِيلَهُ مِنْ حَسَنِ بَرٍّ
 يَرِقُّ لِدَمْعَةِ الْبَاكِي انْعِطَافًا
 وَإِنْ أَنْشَأَ مِنَ الْأَفْكَارِ عَقْدًا
 أَلَا يَا كَامِلَ الْأَوْصَافِ عُذْرًا
 فَلَا زَالَتْ بِكَ الْأَيَّامُ تَسْمُو
 وَذَا عَيْدِ الْمُنَى فَاهْنَأُ وَأَرْخُ

بَأَنْ أَفْنَى وَيَحِينِي بِقَاهُ
 وَطَابَ لِي الْبِيَاتُ عَلَى رِضَاهُ
 مِنَ الْكُتْمَانِ لَمْ أُدْرِهِ مَا هُوَ
 أَغَارُ عَلَيْهِ يَهْوَاهُ سِوَاهُ
 فَلَا أُدْرِى أَرَاهَا أَمْ أَرَاهُ
 لِمَنْ يَدْعُوهُ مِنْ وَلَهِي أَنَا هُوَ
 لَهُ مَنَّا دَرَاهُ مَنْ دَرَاهُ
 لِبَهْجَةِ عَصْرِنَا عِزُّ وَجَاهُ
 رِعَاهُ اللَّئِي مَا أَبْهَى لِقَاهُ
 بِمَنْشُورِ النَّدَى الْحَالِي جِنَاهُ
 وَتَكْرِيمِ أَخَاهُ أَوْ أَبَاهُ
 وَيَرْحَمُ لَوْعَةَ الشَّاكِي جَوَاهُ
 شَهَدَتِ الْحَوْرَ زَفَّتْ مِنْ حِلَاهُ
 فَقَدْرُكَ عِزٌّ أَنْ أَحْصِي ثَنَاهُ
 وَوَجْهَكَ مَشْرُقٌ بَسْنَا ضِيَاهُ
 نَضِيرُ الْعَيْدِ زَاهِي مِنْ حَبَاهُ

سنة ١٣٠٤

* * *

فلما تليت على الأسماع عرائس القصائد الشكرية، وحليت
 بنفائس الأسجاع أوانس الفوائد الفكرية؛ تهلل وجهه سرورًا، وتعلل
 بها طربًا وحبورًا. ثم قال: ما أطيب هذا النفس الأنفس، وما أطرب
 هذا السماع الأقدس. فلعمري ما المثلث والمثاني، بأعذب من هذه

المعاني^(١). ولا وصل الحبيب بلا رقيب، بأعجب من هذا التشبيب^(٢) بذا
النسيب. فليت شعري أهذا رقيق كلام، أم عتيق مُدام؟ أم دُرُ ألفاظ، أم
سحر أَلحاظ؟ أم نثر بديع، أم نثر ربيع؟ أم بيان بنان، أم نظم جمان؟
فلا زالت الأفلاكُ بجمالكم ناضرة، ولا برحت أَلحاظُ الأملاك^(٣)
بعيونكم ناظرة. ما افتَرَّ ثغرُ الدهر بسناكم باسمًا، واحمرَّ خدُّ الزهر لنداكم
راسمًا. وما حمد شارع على التمام، وسعد بارع بحسن الختام.

* * *

أقول: هذا ما جئتُ به من بضاعتي المُزجاة، لسيدي عزيز القدر
والجاه. الوالد العطوف الروحاني، والعم الرؤوف الذي عمَّني بِناده
ونماني^(٤). وأرجوه غصَّ الطرف عن هفتوتي، ونظر اللطف لإصلاح
كبوتي. ولولا وثوقي بهذا الامتنان، لم أحم حول هذا الشأن. ومع هذا
فليتني لزمت حدِّي من الضعف والقصور، ولم أتشَوَّف بجدي لارتقاء
هاتيك القصور. لجمود عين الفطنة القريحة، وخبود نار الروية والقريحة.
على أن المطالب تغشي الأذهان، والجواذب تعشي مقلة السليم مما أهان.
لا سيما ومقام سيدي أشهر من أن يذكر، والثناء عليه أزهر من أن ينشر.

(١) هذا غلوٌّ لا يجوز، فالمثنائي مما وصف به كلام الله عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ
الْحَدِيثِ كَنبَأً مَّثَلِهَا مِثْلَانِ نَقَّسِعُرٌ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

(٢) شبب قصائده: ذكر فيها أيام الشباب واللهو والغزل. والنسيب: رقيق الشعر.

(٣) في الأصل: الأحلاك، وما أثبتته أشبه بالصواب لأن الأملاك جمع ملك.

(٤) في الأصل: ونحاني، وما أثبتته أشبه بالصواب لأن من معاني نَمَى رفع وأعلى
الشأن.

وليس قصدي إلاّ ترديد ذكره طرباً، وتعدد مزاياه عجباً. وإلاّ فرّيع مقامه
غني عن المقامة، وربيع مقامه محط رحال ذوي الشاء والمقالة:

[من البسيط]

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُهُ

وبالجملة فشرّيف شمس نسبي، أطمعني أن أكون بدري المقام.
ولطيف عنقاء محبتي، دعاني لإنشائها مع التحية والسلام.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى تابعيه السادة الكرام، ما ناح
الحمام، وفاح شذا مسك الختام.

* * *

أقول: إن هذه المقامة لا ريب أنها من بحر معارفه خليج، ومن
رياض أطفافة شذرة ذات مقام بهيج. وإن له غيرها من النثر والنظم ما
يحسن التهليل والتكبير عند شروقه، ويشربه السمع فتدب نشوة الحميا في
عروقه. فنثره لعمرى عقود الجواهر، ونظمه نثر اللالىء والدرر. وهو ممن
لم يزل يصل في اجتهاده الليلي بالأيام، ويعتاض في ازدياده السهر من
المنام. حتى بلغ مبلغاً يقصر عنه أمل المتطلع، وحل محلاً تنقطع دونه
رغبة المتطمع. ونزل من القلوب بمنزلة الامتزاز بين الماء والراح، وأورد
العيون الرياض والقرائح القراح. فللنواظر فيه مرتع، وللخواطر منه
مستمع.

وله الأيادي البيض، في بحر كل كمال طويل أو عريض. فكأن الله
براه نوراً مصوراً، وأطلع غصن كماله غصناً منوراً:

[من الطويل]

رَفِيعُ كَمَالٍ كَلِمَا زَادَ خَاطِرِي بِهِ أَمَلًا زَادَتْ مَحَاسِنُهُ حُسْنًا

وكيف لا وهو فارس المجال، ورب الروية والارتجال. تؤخذ
الفصاحة عن لفظه، وتروى فنون البلاغة عن حفظه. أبلغه الله المنى،
وأفرغ عليه حلة السرور والهنا^(١).



(١) توفي سيدي الوالد سنة ١٣٢٨هـ أي قبل عمه المؤلف سيدي الجدّ بسبع سنوات
(سنة ١٣٣٥هـ) تغمدهما المولى برضوانه. (بهجة البيطار).

المفاخرات في المناظرات

(٣)

غريب الأنباء في مناظرة الأرض والسما

تأليف

الشيخ محمد بن محمد المبارك الجزائري الدمشقي

(١٢٦٣هـ - ١٣٣٠هـ)

عني بها

الدكتور محمد حسان الطيان

جامعة الكويت - كلية الآداب

دار البشائر الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف

قال صاحبه وصديقه العلامة محمد جمال الدين القاسمي :

«الشيخ محمد بن الشيخ محمّد المبارك المغربي الجزائري ثم
الدمشقي أحد الأساتذة الأفاضل والأدباء البارعين. وُلد في بيروت سنة
١٢٦٣هـ أثناء قدوم أبيه إلى الديار الشّامية مُهاجرًا من بلاد الجزائر، لَمَّا
استولى عليها الفرنسيون. ثُمَّ يَمّم والده دمشق واستوطنها إلى أن توفي
سنة ١٢٦٩هـ. ونشأ ابنه على كمال وأدب، فحفظ القرآن الكريم، وتلقّى
طرفًا من العلوم العربية وغيرها على بعض الأساتذة، وحفظ المقامات
الحريرية عن ظهر قلب، وأكثر من مطالعة دواوين الشعراء، وصارت له
ملكة في الصناعتين فنظم ونثر، وأنشأ عدة مقامات أدبية.

واختصّ بالأمير عبد القادر الحسنى الجزائري، واقتصر على مدحه
وحصر جميع ما أنشأه من المحاورات والرحلات باسمه. ووظفه الأمير
مُؤدبًا لأطفاله، فكان له في دار الأمير محل على حدة يُقرء فيه أولاده
ويؤدبهم.

ثمّ صار في المدرسة الريحانية أستاذًا لها واختصّ بها، وأقام معه من
تلامذته من يعينه في تعليم الأطفال. وبعد وفاة أخيه الشيخ محمد الطيّب

سنة ١٣١٤هـ التفَّ حوله إخوانه ومريدوه وصار يُقرىء لهم كُتُبًا في الرقائق ليلتين في الأسبوع، يذهب فيهما مع إخوانه لدور بعض إخوانهم فيقرأ الدرس ثمة.

وكان يُجيد تصحيح ما يقرؤه ويُراجع لضبطه كتب اللغة ويُقابله على أصوله، وله دقة في ذلك، وقد استعرتُ من مصححاته: كتاب «سيرة ابن هشام»، وكتاب «الذريعة» للرَّاغِب الأصفهاني، وكتاب «المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحُسنى»، وكان عني بتصحيحها وضبطها. والفضل في ذلك لأستاذه وصديقه العلامَّة الأُوحد الشيخ طاهر أفندي الجزائري؛ فإنه كان يُشير عليه بمثل ذلك، والمترجم يأتمر بأمره ويتقبلُ نصيحته.

وكان كثيرًا ما يستعير من مُصححاتي والنَّوادر التي عندي فأعيره لما كان بيننا من أكيد المودة. وقد اقترحت عليه عام ١٣١٠هـ أن يتمم ما عندي من مدائح دمشق، على ترتيب حروف الهجاء، وكان نقص من ذلك المقفَّى على قافية الثاء المثلثة والخاء والذال والشين والضاد والطاء والغين والواو وأمثالها مما يقلل التقفية عليه، فأجاب وأكملها، وضممتُ ذلك إلى كتابي هذا - يعني: تعطير المشام - كما ستراه في محله منه عند ذكر مدائح دمشق المنظومة.

وأقلَّ الخروج من داره في آخر أمره إلاَّ لدعوة أو حاجة، واعتراه مرض أنهكه، ولكن تجلَّد في تحمله وتصبَّر له.

وكان لطيف المعشر، رفيق الحاشية، كريم الطَّبَع، سخي الكَفِّ، بشوش الوجه، كثير الترحيب لزياره، أديبًا في جلسته ومُحاضرته. له انبساطٌ مع إخوانه وإيناس، وبالجملة فكان بهجة أقرانه.

وكانت وفاته ضحوة الثلاثاء في ٥ جمادى الثانية سنة ١٣٣٠هـ في الصّالحيّة، وأوصى أن تُحمل جنازته بلا عمامة ولا غطاء، وصُلِّيَ عليه في الجامع السليمي في الصّالحيّة، ودُفِنَ على والده في سفح قاسيون في المقبرة المنسوبة لذي الكفل عليه السلام^(١).



(١) «تعطير المشام في مآثر دمشق»، للشيخ جمال الدين القاسمي (٣/٢٧، ٢٩)، بخط مصنفه، نسخة المكتبة القاسمية.

غريب الأنباء، في مناظرة الأرض وسماها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمدُ بديعِ السمواتِ والأرضِ، حمدَ مَنْ تقرَّبَ إليه بالنفل والفرض. وأصلي على مَنْ شرفَ اللُّهُ قدره وأعلى مقامه، وأثره على الورى بأسمى مكانةٍ وأعلى مقامة. وعلى آله الذين وشت بأسرارهم السنة البراعة، فوشت بتلك الظرائفِ واللطائفِ طرازَ البلاغة والبراعة.

وبعد:

فهذه محاضرةٌ فائقة، ومحاورة رائقة. ومناقشة دقيقة، ومنافسة رقيقة. ذات نثر كفرائد الجمان، ونظم كقلائد العقيان. أنشأتها لمن دام ودأب، على الاستمداد من خزانة الأدب. وسميتها بـ«غريب الأنباء»، في مناظرة الأرض والسماها»^(١)، فوافق اسمها تاريخَ تأليفها المصون، وفاق مسماها عقود اللؤلؤ المكنون.

وذلك أنه جرت بين الأرض والسماها، مساجلة أرق من الهواء، وأدق من الهباء. فسبكتُ تلك المعاني، في قوالب المباني، ثم وشَّختُها بما راق لطفًا وانسجامًا، ورشَّختُها لما غدا لراح الأنس جامًا:

[من البسيط]

مِنْ كُلِّ مَعْنَى يَكَادُ الْمَيْتُ يَفْهَمُهُ حَسًّا وَيَعَشِّقُهُ الْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

(١) طُبعت هذه المفاخرة في المطبعة الحفنية بدمشق سنة ١٣٠٢هـ.

وجعلتُها آيةً للألباء وذكراء، وإن من البيان لسحرا.

* * *

وكانت السماء هي الفاتحة لباب المجادلة، والمتصدية لإثارة نفع^(١) المناظرة والمناضلة. فجالت في ذلك المضمار وصالت، ونوّهت برفيع قدرها وقالت:

﴿ نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان: ٦١]، ومنح أشرف الخلق إليّ عروجًا. وقدّمني في الذكر، في محكم الذكر. وشرفني بحسن القسّم، وأتحفني بأوفر القسّم. وقدّسني من النقائص والعيوب، وأطلعني على الغوامض والغيوب. فأنا المنزهة عن كل دنس ووصمة، وجندي هم الرافلون في حلل الحفظ والعصمة. وبقاعي لم يعص الله عليها، ولم تُنسب سيئة مدى الدهر إليها. فلا يدخل حرمي شيطان، وليس له على أهلي سلطان. وإن استرقّ السمع مني، ليروي بعض الأخبار عني؛ قذفتُ بشهابٍ ثاقب، وألقيته في عذابٍ واصب.

وقد ورد أن الربّ ينزل إليّ كلّ ليلة، فيولي من تعرّض لنفحاته بره ونيله. فيا لها من تحفة جليلة، ومنحة جزيلة. يحقّ لي أن أجرّ بها ذبول العزّة والافتخار، وكيف لا والوجود بأسره باسطٌ إليّ أيدي الذلة والافتقار؟. فلي العزُّ الباذخ، والمجد الأثيل الشامخ. لتفرّدي بالرفعة والسموّ، وعلوّ المنزلة دون غلوّ.

* * *

(١) النقع: الغبار المرتفع والمنتشر يثور في الجو، قال الله تعالى: ﴿ فَأَنْزَلَ بِهِ نَقْعًا ﴾ [العاديات: ٤].

ولما أعربت عن فضلها بأرق عبارة وأدق إشارة، وأوحت إلى الأرض برمز: (إيّاك أعني واسمعي يا جارة)^(١)، سلّت الأرض سيف الانتصار من غمده، وبراعة مطلعها عبارة عن حسن الابتداء بشكر الله وحمده.

ونظرت إليها بطرفها شزرا، وقالت لها: ويك لقد كثرت نَزرا^(٢)، وارتكبت بما فهت به وزرا. أما إنه لا يعجب بنفسه عاقل، ولا يأمن مكر ربّه إلا غافل. ولا ريب أن ادّعاء صفات الحق شيمة غير محمودة، لأنها لما سواه تعالى عارية^(٣) والعارية مردودة. وما أباح نسبتها لغيره وأجاز، إلا على سبيل الاستعارة والمجاز. فلا ينبغي لأحد مجاوزة حدّه، في هزله وجدّه. ومن ادّعى ما ليس له بقوله أو فعله، فهلاكه أقرب إليه من شراك نعله.

وقد قيل: «من سعادة جدّك، وقوفك عند حدّك»، و«من فعل ما شاء، لقي ما ساء»^(٣). وما كفاك أن خطرت في ميادين التيه والإعجاب، حتى عرّضت بدمي وتعرضت لشتمي؟! إن هذا لشيء عجاب!! وهل اختصك الله بالذكر؟! أو أقسم بك دوني في الذكر؟! أو أترك بالتقديم، في جميع كلامه القديم. حتى تردّيت بالكبرياء، وتعدّيت طور الحياء؟! والله درّ من قال:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فاصنع ما تشاء

(١) من أمثالهم، يضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئا غيره. مجمع الأمثال (٤٩/١)، ومعجم الأمثال العربية (٣٧٦/١).

(٢) النَّزْر: القليل التافه، والمقصود جعلت القليل كثيرا.

(٣) من أمثالهم، يضرب لمن لا يبالي بما يفعل، مجمع الأمثال (٣٢٩/٢).

فلا وأبيك ما في العيشِ خَيْرٌ ولا الدنيا إذا ذهبَ الحياءُ

وكيف تزدرين أهلي بالذنوب والمعاصي، وأنت تعلمين أن الله هو الآخذ بالنواصي؟! على أن وقوعها لا يخلو عن حِكم؛ لحديث أصدق من نطق وأعدل من حكم: «لو لم تذبوا لجاءَ اللُّهُ بقومٍ يُذنبون ليُغفَرَ لهم»، فنفى عليه السلام بذلك نقصهم، وأثبت كمالهم.

وربما انتظمت الطاعة في سلك المعاصي والمعصية في سلك الطاعات، فإنه لا عبرة بصور الأعمال و «إنما الأعمال بالنيات». وقد تبدل السيئة حسنةً بالتوبة والاستغفار، وتنقلب الحسنة سيئةً بالعزّة والاستكبار.

وحسبك لو سلكتِ محجّةَ الإنصاف، ولم تلجئيني إلى الانتصار والانتصاف. ما أجاب به أسرتك الملكُ العلام، عمّا لم يدركوا كُنهُ حكمته وهم البررة الأعلام. مِنْ جَعَلَهُ فِيّ وجودَ خليفته، ومحلّ نظره من خليفته. ثم أطلعهم به على حقائق أسمائه، ففهموا سرّه في عالم أرضه وسمائه. وأمرهم له بالسجود، إعلاناً بعموم خلافته في الوجود. فمَنِّي الأستاذُ والمعلم، ومنك التلميذُ والمتعلم. وأنا مركز الإمام وأنت مركز المأموم، وما منّا إلّا له مقامٌ معلوم.

وفي نزوله تعالى إليك كما في الأخبار، أعظمُ شاهد على فضلي لدى الجهابذة الأخبار. وهل ذلك إلّا لتجليه للمستغفرين بالأسحار، وتوليّه لهم بلطائف المعارف والأسرار؟ فيهيّمون في تلك الحضرة، ذات البهاء والنصرة! هذا ولو ذكرتُ لك ما لي من المناقب والمزايا، لما وسِعَكَ إلّا الاعترافُ لي بحسن الشيم والسجايا.

* * *

فقابلتها السماء بوجهٍ قد قَطَبَتْهُ، ومَجَنُّ قد قلبته. وقالت لها في

الحال:

أيتها القانعة بالمحال، ما كنتُ أحسبُ أنك تجترئين على مبارزة مثلي، وتنكرين عليَّ ما ترنمت به من شواهد مجدي وفضلي. وهل خلتِ أنَّ التحدُّث بالنعم مما يُلام عليه، مع أنه أمرٌ مندوبٌ إليه؟، ومن أمثال ذوي الفطنة والعقل: «ليس من العدلِ سرعةُ العَدْلِ»^(١). وكيف نسبت إليَّ العجب والخلل، وفضلتِ العاصي على المعصوم من الزلزل؟، متى صار القبيح لدى الورى مستحسنًا ﴿أَمَنْ زَيْنٌ لَهُ سُوءٌ عَلَيْهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]. ولم جحدتِ ظهورَ شمسِ كمالي، وهل لك من الفضائل والفواضل كما لي. ولكن لك عندي عذرًا جليًا، وإن كنتِ ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]:

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الْفَمُّ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ

ولو رأيت ما فيك من المساوي عيانًا، لما ثنيت إلى حلبة المفاخرة عنانا^(٢). فأنتى تفوزين بأشرف الأقدار، وأنت موضع الفضلات والأقدار؟ وما هذا التطاول والإقدام، ووجهك موطىء النعال والأقدام؟! إن هذا إلاَّ فعل مكابر، دعوى عريضةٌ وعجزٌ ظاهر. وهل يحق للكثيف، أن يتغالى على اللطيف؟! أم ينبغي للوضيع، أن يتغالى على الرفيع؟! كلا إن ذلك لمن قلب الحقائق، فأين أنت من فهم الأسرار والدقائق!:

(١) من أمثالهم: يضرب لمن يتسرع في الملامة. معجم الأمثال ١٩٥/٢، ومعجم الأمثال العربية (١٢٩/٣).

(٢) العنان: سَيْر اللجام الذي تمسك به الدابة.

[من الطويل]

لَقَدْ هَزُلْتُ حَتَّى بَدَا مِنْ هُزَالِهَا كُلاهَا وَحَتَّى سَامَهَا كُلُّ مُفْلِسٍ
ألم تعلمي أنني مثوى الملائ الأعلَى، ومأوى مَنْ رفع الله مقامهم
وأعلَى؟!، ومطلع أنوار التنزيه والتقدیس، لا مربع آثار التمويه
والتدليس؟! ألا وإن ما تبديه من العمل المقبول، يصعد إليّ فأفتح له باب
القبول. وفي ذلك إشارة إلى حسن ما اشتملتُ عليه، وقد قيل: «شبيهُ
الشيء منجذبٌ إليه». فلمَ لم تنقادي لحكمي قولاً وفعلاً، وقد أفلح اليوم
من استعلَى؟!!

وكيف لا أنفرد برتبة التفضيل، وغذاء أهلي التسبيح والتهليل؟ وهم
سفراء الحقِّ وأمناء وحيه الرفيع، والمهيمون في شهود جلاله وجماله
البديع. وللهِ رواءٌ طلعتي الباهرة، المتلاثلة بالأنوار الزاهية الزاهرة. فكَمْ
جَلَّتْ بحسن منظرها الهمومَ والغموم، وتجلت لأرباب الألباب بدقائق
العلوم!. وكم لاحت منها نجوم الهدى لكل حائر؟! وحالت وهي رجوم
الردى لكل جائر!، وقد قال في شأنِي ذو المنح والمواهب: ﴿إِنَّا زَيْنًا أَلَمَاءَ
الدُّنْيَا بَرِيْنَةَ الكَوَکِبِ﴾ [الصفات: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات المحبِّرة،
المتلوَّة في صحف مكرَّمة مرفوعة مطهَّرة.

فكيف ضربتِ عن ذكر محامدي صفحًا؟ وطويت دون شهود
محاسني كشحًا؟ وحديث فضلي أسرى من المثل، وأسرع من القمر في
الثقل. فالزمني معي حسنَ الأدب، تظفري بكمال المني والأرب. وإن
عادت العقرب الغادرة، فإن النَّعال لها حاضرة.

فازمهرت الغبراء، واكفهرت طلعتها الغراء. فكأن وجهها أسف
رمادًا، أو أشرب سوادًا. وقالت لها:

أيتها المعتزة بطوالع أقمارها، والمغترّة بلوامع أنوارها، «ما كلُّ
بيضاء شحمة، ولا كلُّ حمراء لحمة»^(١). كم ذا أعيرك أذنًا صماء، وعينًا
عمياء!. وأنت تصولين عليّ بسيف الافتخار، وتنظرين إليّ بطرف
الاحتقار!. استنكافًا عن ركوني لرقّ العبودية، وسكوني تحت مجاري
أقدار الربوبية! وهل يوقع في الذنب والزلة، إلاّ التخلي من وصفي الفقر
والذلة؟!، والتحليّ بهما أولى وأحق، ولو كان صدور الغنى والعزّ بحق.
فكم بين مقام التذلّل، ومقام العبودية والتذلّل!.

فبمّ تزعمين أنك أتقى مني وأنقى؟ وما عند الله خير وأبقى. وقد
حظيت باجتلاء أنوار الدرّة اليتيمة، التي هي واسطة عقد الحكم
والأسرار الكريمة: «مَنْ تواضع لله رفَعَه، ومَنْ تكبّر وَضَعَه». فظفرت
من هذه الحكمة بحلية انكساري وذليّ، وسكرت بخمرة: «أنا عند
المنكسرة قلوبهم من أجلي»!! وبيننا أتعاطى براحة الشهود تلك الراحة،
التي تدفع النَّصَبَ وتجلب الراحة. إذا بعوائد الفوائد تُهدى إليّ، وخِلَعِ
الجمال والكمال تُخلع عليّ. وأنت واقفة لي على أقدام الخدمة، جارية
في قضاء مآربي بحسب الحكمة. قد كَفَّلِكَ^(٢) الحق بحمل مؤنتي،
وكفَّلِكَ بمساعدتي ومعونتي. ووَكَّلِكَ بإيقاد سراجي ومصباحي،

(١) من أمثالهم، ويروى: «ما كل سوداء نمرة ولا كل بيضاء شحمة»، مجمع الأمثال
(٢٨١/٢)، وجمهرة الأمثال (٢٨٧/٢).

(٢) عهد إليك، قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

وَوَكَّلِكَ^(١) إِلَى الْقِيَامِ بِشُؤْنِي فِي لَيْلِي وَصَبَاحِي . وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنِّي أَفْرَدْتُ لَخْدَمَتِهِ نَفْسِي ، فَصَاحَ فِي رِيَاضِ الْأَمَانِي بَلْبَلِ أَنْسِي ، مَتْرَجِمًا عَنْ سِرِّ الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ : « يَا دُنْيَا مَنْ خَدَمَنِي فَاخْدَمِيهِ ، وَمَنْ خَدَمَكَ فَاسْتخدمِيهِ » .

وكيف أعاب بتحمل الأذى، وإغضائي على القذى؟ وذلك دأب أهل الأدب والوفاء، العارفين أن الدنيا فناء الفناء . وكلُّ آتٍ فكأنَّ قد، فما أسعد من صبر وتجلد:

[من الطويل]

عَلَى قَدْرِ فَضْلِ الْمَرْءِ تَأْتِي خُطُوبُهُ وَيُحْمَدُ مِنْهُ الصَّبْرُ فِيمَا يُصِيْبُهُ
فَمَنْ عَزَّ فِيمَا يَتَّقِيهِ اصْطِبَارُهُ فَقَدْ قَلَّ مِمَّا يَرْتَجِيهِ نَصِيْبُهُ

وأنى يجزع ذو قلب ثابت، وفي الله عِوَضٌ من كلِّ فائت . وانتظار الفرج عبادة، قد ندب الربُّ إليها عباده . وإن زهوت بحسن عُزَّة، أضحت للعين قرَّة، «فَرُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ لو أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَه» . على أني بُيْتَةُ الْحَسَنِ لِكُلِّ جَمِيلٍ ، فَكَمْ بَهَرْتُ الْعُقُولَ بِظَرْفِ رَائِعٍ وَطَرْفِ كَحِيلٍ ! وَكَمْ ظَهَرْتُ بِشَمُوسٍ وَبِدُورٍ ، عَلَيْهِمْ أَفْلَاكُ الْمَحَاسِنِ تَدُورُ . إِذَا كَشَفَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَحِيَّاهُ وَسَفَرٍ ، كَسَفَ بَسْنَاهُ نُورَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ . وَإِنْ تَشَى تَيْهًا وَدَلَالًا ، أَزْرَى بَغْصَنِ الْبَانِ لَطْفًا وَاعْتِدَالًا .

وبالجملة فليس لي في الحسن مُجَارِيَةٌ ، فَكَمْ جَمَعْتُ بَيْنَ جَارِيَةٍ سَاقِيَةٍ وَسَاقِيَةٍ جَارِيَةٍ ! وَلَوْ أَمْلَيْتُ عَلَيْكَ فَصْلًا مِنْ هَذَا الْبَابِ ، لَسَمِعْتَ مِنْ بَدَائِعِ الْأَوْصَافِ مَا يُدْهَشُ الْأَبَابَ . وَليْسَ عَلْوُكَ شَاهِدًا لِكَ بِالرَّتْبَةِ الْعَلِيَّةِ ،

(١) وَكَّلَ إِلَيْهِ الْأَمْرَ : اعْتَمَدَ عَلَيْهِ فِيهِ وَفَوَّضَهُ إِلَيْهِ .

فضلاً عن أن يوجب لك مقام الأفضلية. فما كل مرتفعٍ نجد، ولا كلُّ
متعاضم ذو شرف ومجد: [من البسيط]

وإن عَلَانِي مَنْ دُونِي فَلَا عَجَبٌ لِي أُسْوَةٌ بَانْحِطَاطِ الشَّمْسِ عَنْ رُحَلِ

وكأنك يا هذه لا تميزين بين المكان والمكانة، وما أضل من جهل
قدره فتعدى طوره ومكانه! وقد ساغ لي أن أشتفَّ الأسماع، بما شاع من
مآثري وذاع. فمن أعظم ما فقت به حُسناً وجمالاً، وكدتُ بأخمصي أطأ
الثريا فضلاً وكمالاً: تكوينُ الله مني وجودَ سيد الوجود، فأفرغ عليَّ به
خِلاصَ المكارم والجود. فهو بدر الكمال، وشمس الجمال. وما أحسنَ قولَ
حَسَّانَ، في بعض مدائحه الحِسان: [من الوافر]

وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنٌ وَأَكْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ
خُلِقْتَ مَبْرَأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

فأكرمُ به من نبيِّ أسرني به وأرضى، كيف لا ولولاه ما خلق سماء
ولا أرضاً؟ وجعلني له مسجداً وطهوراً، وأقرُّ به عيني بطوناً وظهوراً.
وعزَّزه بخاصة عباده الأخيار، المؤيدين بصريح الآيات وصحيح الأخبار.
من اختصهم بمعراج الترقِّي، وفي حضرة الاستمداد منه والتلقِّي. وبردِّهم
إليَّ قد تفضل عليَّ، فهم في الحقيقة مني وإليَّ. فأنا بالفضل أحق، ﴿الْقَنَ
حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١].

* * *

ولمَّا نشرت الأرض صحف مفاخرها، وتلت على منابر العلا سَور
مآثرها. أبدت ما هو أدقُّ من وشي النسيم على بساط الأنهار، وأرق من

دمع الطلّ على وجنات الأزهار. فأبرقت السماء وأرعدت، وأرغت وأزبدت. وقالت:

أما علمت أن ريحك لاقت إعصارًا، وجدولك صادف تيارًا؟ فأقسم بمن بناني، ورفع سمكي فسوّاني. إن لم تتخطي حُطّة المكابرة، وتتخلي عن هذه المثابرة. لأغرقتك في بحار طوفاني، أو أحرقتك بصواعق نيراني. وهل امتطيت السماكين، أو انتعلت الفرقدين^(١)؛ حتى تفتخري عليّ، وتشيري بالذم إليّ؟! وتلك شهادة لي بالكمال، ولقد صدق من قال:

وإذا أتتكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ

أم حسبت أن لك في ذلك حجة، فخاطرت بنفسك في ركوب هذه اللُّجة، وكنت كالباحث عن حتفه بظلفه؛ والجادع مارن أنفه بكفه:

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ إِلَّا الْحِمَاقَةَ أَعَيْتَ مَنْ يُدَاوِيهَا

أمّا دعواك: «أني واقفة لك على أقدام الخدمة»، فهي مما يوجب لي عليك شكرَ الفضل والنعمة. أما روي عن عظيم القدر والجاه: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ». على أنني لا أريدُ منك جزاءً ولا شكورًا، بل عاملتُ ربي فكان سعيي لديه مشكورًا. بيد أنه لا يُساء إلى المتفضل المحسان و ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]!؟

(١) السماكان: نجمان نيران، والفرقدان: نجمان من نجوم الدب الأصغر.

ولو تفكّرت أن خادمَ القوم هو السيّد والمولى؛ لعرفت الفاضل من المفضول، أو تدبّرت أن اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى؛ لاستقلت من هذا الفضول. فإن في قيامي بشؤونك أوضح أمانة، على أن لي الولاية عليك والإمارة. وقد غذيتك^(١) بذرّ كالذرّ^(٢) واللّال، وربّيتك في حجر الرفاهية والدلال. وكسوتك بعد أن كنت عارية، ولم يك ذلك مني عارية.

ولمّا أمعنت فيك النظر، واجتليت منك وجوه العبر. ألفتك تدّعين حسن التدبير، وأنت متصفة بالسرف والتبذير. فأبقيتك تحت حكمي وتصرفي، وأسبلت عليك ستر برّي وتعطّفي. ولو آنس قلبي منك الرشد والكمال، لما صبا إلى ادّخار ذخيرة لك ولا مال.

وأما قولك: «مني سيّد الوجود، ومن اصطفاهم لحضرته الملك الودود». فإن كنتِ تفتخرين بأشباههم الظاهرة، فأنا أفتخر بأرواحهم الطاهرة. أما علمت أنها في ملكوتي تغدو وتروح، وبواردي بسطي وقبضي تشدو وتنوح؟. فأنا أولى بهم، وأحرى بالافتخار بحزبهم. وهل تكون رقة المباني، إلّا بحسب دقة المعاني؟ فمنك الأصدافُ ومني الدرّ، فما عندك من النفائس والغرر؟!

ومن قلّة عدلك وإتصافك. وعدم تحلّيك بالحق واتصافك: أنّك افتخرت بصفوة العباد، وتعاميت عن أهل البغي والعناد. مع أن أكثر قومك قد استحوذَ عليهم الهوى، وانقضَّ نجمٌ سوّددهم من سماء المجد

(١) غذيتك: غذوتك أي أطعمتك، قال صاحب القاموس: غذيته: غذوته. ولم يعرفه الجوهري فأنكره.

(٢) الدرّ: اللبن، والدرّ: كبار اللؤلؤ.

وهوى. فكم تجرّعوا عليك من ذنوب^(١) الذنوب، فسترت تلك العيوب واللُّهُ علّامُ الغيوب! وهل توهمت أن هذه العادة، عنوانٌ على الفضل والسعادة؟ كلا إنها لَشِنشِنَة^(٢) ذميمة، وجبلةٌ تأنف منها النفوس الكريمة. فإلى متى أطوي عرضك على غرّة، وأصون شغاك^(٣) عن فرّة^(٤)؟ وأنتِ تجعلين مفاخري هباءً منثورًا، وتعذّين مآثري كأن لم تكن شيئًا مذكورًا! وكلما أتيتك بأية محكمة أو حديث وارد، كنتِ في ذلك كمن يضرب في حديدٍ بارد! فأقلّي من الهديان والهدّز، وخذي لنفسك مني الحدّر؛ فإن نارَ بأسِي لا تُبقي ولا تدرّ.

* * *

فلما سمعتِ الأرضُ من السماء، مقالةً تقطر من خلالها الدماء. أطرقت لمحةً بارقٍ خاطف، أو نغبةً^(٥) طائرٍ خائف. ثم أقنعت رأسها، وصعدت أنفاسها. وقالت: لقد أكثرتِ يا هذه من اللغظ، وما آثرتِ الصواب على الغلط. فعلامٌ تهزئين بي، وتسخفين بحسبي ونسبي؟ وإلام تنقضين عرى أدلّتي، ولا تعامليني بالتي؟!، وحتامًا تقابليني بأنواع التأنيب، ولم تقفي على حقيقتي بالتنقير والتنقيب؟!!

(١) الذنوب من الدلاء: العظيمة أو الملائى ماءً.

(٢) الشنشنة: الطبيعة والسجية.

(٣) الشغا: اختلاف نبتة الأسنان بالطول والقصر والدخول والخروج. القاموس (شغو).

(٤) الغرّة: الغفلة في أثناء اليقظة، والفرّة: الابتسامة.

(٥) نغب الطائر: حسا من الماء ولا يقال شرب، والنغبة: الجرعة، ويضم. القاموس (نغب).

أَحْسِبُ أَنْ الْجِسْمَ مَا خُلِقَ إِلَّا عَبَثًا، وَلَا كَانَ لِلنَّفْسِ النَّفِيسَةَ إِلَّا جَدَثًا؟ وَفِي مِيدَانِهِ تَتَسَابَقُ الْفُهُومُ، وَتُدْرِكُ عَوَارِفُ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ. وَبِهِ تَتَرَقَّى الْأَرْوَاحُ، فِي مِرَاقِي الْفَلَاحِ. وَكَيْفَ لَا يَكُونُ مَقْدَسًا مِنْ كُلِّ غَيِّ وَغَيْنٍ^(١)، وَهُوَ لَا يَفْتَرُ عَنْ تَسْبِيحِ بَارِئِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ؟! وَلَوْ كَشَفَ لَكَ عَنْ حَقِيقَةِ مِنْ حَقَائِقِهِ، أَوْ رَقِيقَةِ مِنْ رَفَائِقِهِ، لَاعْتَرَفْتَ بِفَضْلِي اعْتِرَافِ وَالِهِ كَلْفٍ، وَعَرَفْتَ مِنْ أَيْنَ تُوَكَّلُ الْكَلْفِ.

وَأَمَّا مَا عَيْرْتَنِي بِهِ مِنْ صَوْنِ أَسْرَارِ الْأَشْرَارِ، الَّذِينَ اسْتَهْوَتْهُمْ دَوَاعِي الْغَفْلَةِ فِي أَوْدِيَةِ الْأَوْزَارِ. فَهَلْ وَقَعَ ذَلِكَ إِلَّا وَأَنْتِ نَازِرَةٌ إِلَيْهِ، عَالِمَةٌ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُطَّلَعَ عَلَيْهِ؟! فَمَا بِالكَ نَسِيتَ نَفْسَكَ أَصْلًا، وَنَسِيتَ إِلَيَّ مَا أَنْتَ بِهِ أَوْلَى؟ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ رَحْمَةَ الْوَالِدَةِ، مَعْذَرَةٌ لَهَا وَحُجَّةٌ عَلَيْكَ وَارِدَةٌ. مَعَ أَنِّي لَا أَزَالُ أَتَعَهَّدُ مَوْعِظَتَهُمْ بِلِسَانِ الْحَالِ، وَأَحَاوِلُ انْتِشَالَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْأَوْحَالِ. حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُمْ بِالتَّوْفِيقِ، إِلَى اقْتِفَاءِ مَنَاهِجِ التَّحْقِيقِ. فَكَمْ ذَا أَنْتِ عَلَيَّ مُتَحَامِلَةٌ، وَعَنْ آيَةِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ مُتَمَاحِلَةٌ؟ وَأَنَا لَكَ أَسْمَعُ مِنْ خَادِمٍ، وَأَطُوعُ مِنْ خَاتَمٍ.

عَلَى أَنْ لِي مِنَ الْفَضَائِلِ، مَا ثَبِتَ بِأَصْحَ الْبِرَاهِينِ وَالْدَلَائِلِ. أَمَّا فِيَّ بِقَعَةٌ مِنْ أَشْرَفِ الْبِقَاعِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لُضَمِّهَا أَعْضَاءٌ مِنْ تَمَمِ اللَّهِ بِهِ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ؟ وَفِيَّ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، كَمَا أَفْصَحْتَ عَنْ ذَلِكَ أَلْسِنَةُ السَّنَةِ؟ وَمَنِّي الْكَعْبَةُ وَالْمَشْعَرُ الْحَرَامُ، وَالْحَجَرُ وَزَمْزَمُ وَالرُّكْنُ وَالْمَقَامُ. وَعَلَيَّ بِيُوتِ اللَّهِ الَّتِي تَشَدُّ إِلَيْهَا الرِّحَالُ، وَ ﴿يُسَبِّحُ لَهَا فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ * رِجَالٌ ﴿[النور: ٣٦، ٣٧]. وَقَدْ جَعَلَنِي الْحَقُّ لِلْبَرِيَّةِ بَسَاطًا، وَأَوْدَعَ فِي

(١) غشاوة.

منازلي بحكمته أنسًا وانسأطًا. وأخرج مني طيبات الرزق فأكرمَ بها عباده،
وأتمَّ نعمته عليهم فجعل الشكر عليها عبادة. وجعل القرب مني عينَ
القرب إليه، وفي ذلك سرٌّ بديع لمن عثر عليه. لقول من حضَّ أمته على
ملازمة المساجد: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربه وهو ساجد».

وكفاني بذلك شرفًا وعلوًّا، وإن جحدتِ بآياتي ظلمًا وعُتوًّا.
وناهيك بما اشتملتُ عليه من الرياض والغياض^(١)، ذات الأنهار
والحياض^(٢)؛ التي تشفي بنسيمها العليل، وتنفي ببرد زلالها حرَّ الغليل.
وما أرقُّ قولَ من قال، عندما رتع في ظلالها وقال: [من الكامل]

لَمْ لَا أَهَيْمٌ عَلَى الرِّيَاضِ وَطِييْهَا وَأَظْلُّ مِنْهَا تَحْتَ ظِلِّ ضَافِ
وَالزَّهْرُ يَضْحَكُ لِي بِثَغْرِ بِاسِمِ وَالنَّهْرُ يَلْقَانِي بِقَلْبِ صَافِ

وحيثُ إن الشيءَ بالشيءِ يُذكر، والاستطراد لأدنى مناسبة لا يُنكر.
فدونك نبذة في فضل فصل الربيع، منمنمة البرود^(٣) بحسن وشي الربيع.
إذ لا يخفى أنه شامة بين الفصول، قد عُقدت لنشر مزاياه أبدع الفصول.
وجهه وسيم، وأنفاسه نسيم. رائق الديباجة، رقيق الزجاجة. غصن شبابه
رطيب، وبرد صباه قشيب. معتدل المزاج، متسع الفجاج. عاطر الأرجاء
في كل حين، بفنون الأزاهير والرياحين. أوقاته شبيهة بأوقات الجنان،
تبتهج بها النفس وينشرح الجنان، يتلو لسانُ حاله بصوت رخيم: ﴿فَرَّحٌ
وَرَّحَانٌ وَحَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ [الواقعة: ٨٩].

(١) جمع غَيْضَةٌ وهي مجتمع الشجر في مغيض ماء.

(٢) جمع حَوْض وهو مجتمع الماء.

(٣) جمع بُرْد وهو الثوب المخطط.

فهو ذو اليد البيضاء، والعيشة الخضراء. والموارد الصافية،
 والمطارف الضافية. فكم أسدى إلى الناس جميله، وبسط لهم بساط أنسه
 في جميله. ولا غزو أن يوسم بمديد الفضل والندى، وبه ترتشف الشمس
 من ثغور الأقاح قطر الندى^(١). يحكي الورق منه الورق^(٢)، فكأنه والغصن
 يراغ ورق، ويزري زهره بالزهر^(٣)، ويغري بالبيض والصفير. فما الدُّرُّ
 المحبوك، وما التبر المسبوك؟ غصونه ترقص فتميس وتميل، وطيوره
 تغني فتطرب بحسن الهديل. الورود تدعو إلى حسن الورود، وقد بدت
 كواكبها الدرّية في مطالع السعود: [من مجزوء الرمل]

كَتَبَ الْوَرْدُ إِلَيْنَا فِي قَرَاطِيسِ الْخُدُودِ
 يَا بَنِي الْأَنْسِ صَلُونِي قَدْ دَنَا وَقَتُّ الْوُرُودِ

تهبُّ في الأدواح منه الأرواح، فتحيي الأشباح وتنعش الأرواح.
 لياليه كلها أسحار، وأيامه ذات أنواء وأنوار. وسحابه ماطر، وتراه
 عاطر: [من البسيط]

ما الدهرُ إلاَّ الربيعُ المستنيرُ إذا وافى الربيعُ تجلى الثُّورُ والنُّورُ
 فالأرضُ ياقوتةٌ والجوُّ لؤلؤةٌ والنبتُ فيروزجُ والماءُ بلُّورُ

وما ألطف ما قيل في وصف أنواره، وقد حل النسيم أزهاراً:

[من الخفيف]

مرحبًا بالربيعِ في آذارٍ وبإشراقٍ بهجةِ الأزهارِ

(١) الندى: قطرات الماء على النبات، والندى الأولى: الجود والسخاء.

(٢) أي يشبه ورقه الفضة.

(٣) الكواكب.

من شقيقٍ وأقحوانٍ ووزدٍ وخزامٍ وسوسنٍ وبهارٍ
زهرة عند زهرة عند أخرى كاقترانِ الدِّينارِ بالدِّينارِ
أو كأوراقٍ مُصحفٍ من لَجِينِ مُذهباتِ الأخمسِ والأعشارِ

يزهو في خمائله المنثور، فيهزأ بالمنظوم والمنثور. ويلوح البنفسج
في برده البهّي البهيج، ويفوح فيفوق المسك بحسن الأريج. وزهو
الياسمين، كأنه درّ ثمين. وما أظرف ما قيل في النرجس: [من الكامل]
أرأيت أحسنَ من عيونِ النرجسِ أو من تغازلِهِنَّ وَسَطِ المَجْلِسِ
كالدُّرِّ يُسْفَرُ عَنْ يواقيتِ على قُضِبِ الزُّمُرْدِ في بساطِ السُّنْدُسِ

وقد جرت بينه وبين الورد، مناظرات تروق معانيها كالجواهر الفرد.
وهي لعمري ألطف من مخالسة القبل، وأظرف من مُغازلة المقل. فقال
منصفاً بينهما من حكم، والله درّه ما أعدله من حَكَم: [من الطويل]
ألست ترى في الروضِ باقاتِ نرجسٍ بدتْ حولها للناظرينَ ورودُ
فهذي حدودُ ما عليهنَّ أعينٌ وتلكَ عيونُ ما لهنَّ حدودُ
وما أوردتهُ فشيء نَزْر، وقطرة من بحر. إلا أن ما لا يدرك كله،
لا يترك قُله.

* * *

فأسفرت عن بدر طلعتها السماء، وهي تزهو في برد السنا والسناء.
وقالت تناجي نفسها عندما رقت السمر: حَتَّام «أريها السُّهى وتريني
القمر»^(١)؟! ثم عطفت عليها تقول، وهي تسطو وتصول:

(١) من أمثالهم، يُضرب لمن يغالط فيما لا يخفى. مجمع الأمثال (١/٢٩١)،
ومعجم الأمثال العربية (٢/٤٠٣).

أيتها المتعدية لمفاضلتي، والمتصدية لمناضلتي، متى قيس الثربُ
بالعسجد^(١)؟! أو شبه الحصى بالزبرجد^(٢)؟! إن افتخرت بشرف هاتيك
البقاع، التي زها بها منك اليفاع والقاع. فأين أنت من عرش الرحمن،
الذي تعكف عليه أرواح أهل الإيمان؟ وأين أنت من البيت المعمور،
والكرسي المكلل بالنور؟ وإن كَوَّنَكَ الحقُّ للخلق بساطًا، وجعل في
ربوعك لهم طربًا ونشاطًا. فقد جعلني سقفاً محفوظاً، لم يزل بعين العناية
ملحوظاً.

وكيف تفتخرين عليّ بروضة من رياض الجنة، وهي عليّ بأسرها
فضلاً من الله ومِنَّة؟! أم كيف تزعمين أنه «كتب لك بأوفر الحظوظ»؟
وعندي القلم الأعلى واللوح المحفوظ؟! وأما ازدهاؤك بالحياض
والأنهار، والرياض المبتهجة بورود الورود والأزهار. فليت شعري هل
حويت تلك المعاني، إلاً بنفحات غيوثي وأمطاري؟! أم أشرقت منك
هاتيك المغاني، إلاً بلمحات شموسي وأقماري؟! فكيف تباهينني بما
منحتك إياه، وعطرت أرجاءك بأريج نشره ورياه؟! ويا عجباً منك كلما
لاح عليّ شعار الحزن، خطرت في أبهى حلة من حلال الملاحة والحسن.
وإن افترت ثغور بدور أنسي، وقرت بديع جمالي عين شمسي. زفرت
زفرة القيظ، وكدت أن تتميزّي من الغيظ. وهذا دليل على ما جبلت عليه
من الحسد، ولا جرم أن ما في الباطن يظهر على الجسد: [من الطويل]

ويأبى الذي في القلب إلاً تبيئنا وكلُّ إناءٍ بالذي فيه يرشحُ

(١) الذهب.

(٢) حجر كريم ذو ألوان كثيرة.

ما هذا الجفاء، يا قليلة الوفاء؟! وهل صفت أوقاتك إلا بوجودي،
أو طابت أوقاتك إلا بوابل كرمي وجودي؟! ولو قطعت عنك لطائف الإمداد،
لخلعت ملابس الأنس ولبست ثياب الحداد. أو حجبْتُ عنك الشمسُ
والأقمار، لما ميّزت بين الليل والنهار. فهلا كنت بفضلي معترفة، حيث إنك من
بحر فيضي مغترفة؟ طالما عبثت أيدي الحدّان^(١) بلطائفك الزاهرة، ونفثت
أراقم^(٢) الليالي بسُوم سُمومها^(٣) في محاسنك الباهرة. فأهديت إليك
أزهارًا بديعة المحاسن، وأجريت لك أنهارًا من ماءٍ غير آسن؛ فتضاحكت
مباسمُ الرياض والغياض، غبَّ أن تباكت عيونُ الجداول والحياض.

﴿ فَلَآ أَقْسَمُ بِمَوْجِ التُّجُورِ ﴾ [الواقعة: ٧٥]، وما انطوت عليه
من الأسرار والعلوم. إن لم تغضِّي من طرفك بعض الغض. لأذوين بحرَّ
هجيري وزدَّ وجنتك الغض. وهل أنتِ أهل لمنافثي في معاني الفضل
والكمال؟ أو منافستي في مجال الحسن والجمال؟ وقد تفردتُ لا محالة
في البهاء والملاحة، وانفردتُ بجمعي بين الحماسة والسماحة. فأنتي يغترُّ
بزهرتك وأنت خضراءُ الدمن^(٤)؟ وهل نزهة حدائقك إلا برهة من الزمن؟

هذا وحيث أعربتِ عن زمن الربيع، وأعربتِ في وصف جماله
البديع. فلم أضربتِ عن بقية الفصول؟ وهل حسبت أن ذكرها ضرب من
الفضول؟ كلا إن سكوتك عنها مجردُ تغافل، ومحض تبأله وتجاهل. إذ
كُلُّ منها كَلٌّ على القلوب، مؤذِنٌ بهجوم الهموم وضروب الخطوب. وهل

(١) حدّان الدهر: حوادثه ونوّه.

(٢) جمع أرقم، وهو أخبث الحيّات.

(٣) السُموم: جمع سُم، والسُموم: الريح الحارة.

(٤) جمع دمنة، وهي المزبلة.

لها مزيةٌ أو منقبةٌ فاخرة، سوى أنها تُزهد في الدنيا وترغب في الآخرة:

[من البسيط]

إِنْ كَانَ فِي الصَّيْفِ رِيحَانٌ وَفَاكِهَةٌ

فَالْأَرْضُ مُسْتَوَقَدٌ وَالْجَوُّ تَتُّورٌ

وَإِنْ يَكُنْ فِي الْخَرِيفِ النَّخْلُ مُخْتَرَفًا^(١)

فَالْأَرْضُ عُريَانَةٌ وَالْجَوُّ مَقْرورٌ

وَإِنْ يَكُنْ فِي الشِّتَاءِ الْغَيْثُ مُتصَلًا

فَالْأَرْضُ مُحْصورةٌ وَالْجَوُّ مَأْسورٌ

وكيف تزعمين الشفقة على أولادك، ورعي ذمام^(٢) أهل محبتك

وودادك؟ وأنتِ تأكلين لحومهم أكلَ النَّهيم، وتشربين دماءهم شرب

الهِيم! فكم خليتِ بين ودودك ودودك، ولم تعدّي ذلك من جفوتك

وصدودك؟! ولا عجب فإن قلبك من حَجَر، وبقسوته ضرب المثل في

البدو والحضر.

* * *

فنزعتِ الأرض عن مقاتلتها، وعلمت أنها لا قبل لها بمقابلتها.

وحين عجزت عن العوم في بحرها. واستسلمت تائمها لسحرها، بسطت

لها بساطَ العتاب، متمثلة بقول ذي اللطف والآداب: [من الوافر]

إذا ذهب العتابُ فليس وُدٌّ ويبقى الودُّ ما بقي العتابُ

ثم قالت: اعلمي أيتها الموسومةُ بسلامة الصدر، الموصوفة بسمو المنزل

وعلو القدر: أن الله ما قارن اسمي باسمك، ولا قابل صورة جسمي بجسمك.

(١) اخترف الثمرة: جناها.

(٢) الذمام: العهد والأمانة.

إِلَّا لِمُنَاسِبَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَأُلْفَةٍ بَيْنَنَا قَدِيمَةٍ . فَلَا تُشَمِّتِي بِنَا الْأَعْدَاءَ ، وَتَسِيئِي الْأَحْبَاءَ
وَالْأَوْدَاءَ . فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الرِّزَايَا ، وَأَشَدِّ الْمَحَنِّ وَالْبَلَايَا : [مِنَ الْكَامِلِ]
كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الْفَتَى فَتَهُونَ غَيْرَ شِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ
أَلَا وَإِنَّ الْعَبْدَ مَحَلُّ النِّقْصِ وَالْخُلْلِ ، وَهَلْ يَسُوغُ لِأَحَدٍ أَنْ يَبْرِيءَ
نَفْسَهُ مِنَ الزَّلَلِ؟ وَمَنْ يَسْلَمُ مِنَ الْقَدْحِ ، وَلَوْ كَانَ أَقْوَمَ مِنَ الْقِدْحِ (١)؟! :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى الْمَرْءَ فَضْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِيهُ
هَذَا وَإِنْ لِي مَفَاخِرًا لَا تُنْكَرُ ، وَمَا تَرْتَجِلُّ عَنْ أَنْ تَحْصُرَ . كَمَا أَنْكَ فِي
الْفَضْلِ أَشْهَرُ مِنْ نَارِ عَلَى عِلْمٍ ، وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ يَحْصِيَ ثَنَاءً عَلَيْكَ لِسَانُ
الْقَلَمِ . فِإِلَى مَتَى وَنَحْنُ فِي جِدَالٍ وَجِلَادٍ؟ نَتَطَاعِنُ بِأَسِنَّةِ أَلْسِنَةِ حِدَادٍ؟!
وَهَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَجْرَّ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضِ ذَيْلِ الْكِبْرِ وَالصَّلْفِ ، بَعْدَ مَا كُنَّا عَلَيْهِ
مِنْ حَسَنِ الْوَدِّ وَالْكَلْفِ؟! وَلَكِنْ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ .

عَلَى أَنِّي مَا أَشْرَعْتَ قَبْلَكَ سِنَانَ الْمَنَازِرَةِ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ فَوَّقْتِ (٢) لِي
سَهَامَ الْمَشَاتِمَةِ وَالْمَشَاجِرَةِ . فَإِنَّ الْجِزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، وَأَتَى لِي بِالصَّبْرِ
وَأَنَا مَطْبُوعَةٌ عَلَى الْعَجَلِ؟ وَمَا يَبْدُو عَلَيَّ مِنْ لَوَائِحِ السَّرُورِ وَالْكَمَدِ ، لَمْ
يَكُنْ نَاشِئًا عَنْ بُغْضٍ لَكَ أَوْ حَسَدٍ . وَإِنْ جَنَحَ بَعْضُهُمْ إِلَى التَّشْبِيهِ ، وَسَلَكَ
فِي قَوْلِهِ مَسَلِكَ التَّمْوِيهِ :

إِنَّ هَذَا الرَّبِيعَ شَيْءٌ عَجِيبٌ تَضْحَكُ الْأَرْضُ مِنْ بَكَاءِ السَّمَاءِ
ذَهَبٌ أَيْنَمَا ذَهَبْنَا ، وَدُرٌّ أَيْنَ دُرْنَا ، وَفِضَّةٌ فِي الْفِضَاءِ

(١) قِطْعَةٌ مِنَ الْخَشَبِ مَسْتَوِيَةٌ .

(٢) فَوْقَ السَّهْمِ : جَعَلَ لَهُ فُوقًا ، وَهُوَ مَوْضِعُ تَثْبِيتِ الْوَتَرِ مِنْهُ .

وإنما أنا ذات ولد وبنين، لم أزل أعاني بهم كلَّ وَلَهٍ وَحَنِينٍ . فإن
 عاملتَهُم بِالْجَمِيلِ ، قابَلْتُكَ بالبِشاشَةِ والوجه الجميل . وإن حبستِ عنهم
 سَحَائِبَ المِنَحِ والمِنَنِ ، فتحكَّمتَ فيهم صنوفُ الصُّروفِ والمِخَنِ . قاسيْتُ
 لأجلهم كلَّ بَأْسٍ وبوسٍ ، فأورثني ذلك شدة التقطيب والعبوس . وما
 اتُّهمتَ به من اغتيالهم ، بعد زهوهم عليَّ واختيالهم . فمعاذ الله أن يصدر
 مني ذلك ، أو أصبو إلى سلوك تلك المسالك .

وكيف لا أكون حَرِيَّةً بحفظِ النفوس والأموال ، وبني في الحفظ
 والأمانة تضرب الأمثال؟ غير أن الأشباح ، بعد مفارقة الأرواح . تحنُّ إلى
 وصلي حنين الفرع إلى أصله ، فترجع إليَّ رجوعَ الغريب إلى أهله . ويحصل
 لها بالاتحاد بي غايةُ المنى ، حتى أصيرَ أنا هي وهي أنا . وهذه لعمرى ،
 حقيقة أمري . فانظري إليَّ بعين الرضى ، واصفحي بحقِّك عما مضى .

* * *

ولما سمعت السماء هذه المقالة ، التي تجنح إلى طلب السلم
 والإقالة ، قالت لها: مآربُ لا حفاوة ، ومشرَّبُ قد وجدت له حلاوة . وما
 ندبت إليه من المودَّة والألفة ، «فلا مِرَّ ما جدَّع قصيرُ أنفه»^(١) . ولو لم تلقي
 إليَّ القياد ، لعابنت مني ما دونه خرطُ القَتَاد . ولكن لا حرج عليك ولا
 ضير ، فإنك اخترتِ الصلح والصلح خير . وكيف جعلت العتاب شرطاً بين
 الأحاب ، أو ما سمعت قولَ بعض أولي الألباب؟ [من الطويل]

إذا كُنْتَ في كُلِّ الأُمُورِ معاتِباً صديقك لم تلقَ الذي لا تُعَاتِبُهُ
 وإن أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأيُّ الناسِ تصفو مُشارِبُهُ

(١) من أمثالهم ، يضرب لمن يضمير شيئاً يدل عليه فعله . مجمع الأمثال (١٦٩/٢) ،

ومعجم الأمثال العربية (٣١٤/١) .

وها أنا رادّة إليك عوائد إحساني، وموائد جودي وامتناني. فقريّ
عينًا وطيبى نفسًا. وتيهي ابتهاجًا وأنسًا. وأبشري ببلوغ الوطر، وزوال
البؤس والخطر.

فسجدت الأرض شكرًا، وهامت نشوةً وسُكرًا. وتهلّل وجهها
سرورًا، وامتلات طربًا وحبورًا.

* * *

وعندما ركد النسيم، واستقرّ أمر التسليم. رويثُ عنهما ما يزري
بالطلا^(١) في الكؤوس، ويأخذ بمجامع القلوب ويمتزج بأجزاء النفوس.
ورأيت كلاً منهما في سلوك تلك المحجة، تستدل على فضلها بأوضح بيّنة
وأقوى حجّة.

ثم نظرتُ في العالمين، نظرَ محقّق دون مَيّن؛ فألفيتُ هذا العالم هو
مركز دائرة السيادة، لأنه اجتمع فيه ما في العالم العلويّ وزيادة. وكيف
لا؟ وبه أقيم شرعُ ذي الكرامة، وسما عرش الخلافة والإمامة.

فجعلت أتوسّم وجوه الوجود. لأحظى بمن أوتي هذا المقام
المحمود. فأهديه هذه المعاني التي هي ﴿حُرٌّ مَّقْصُورَةٌ فِي الْحَيَاةِ﴾
[الرحمن: ٧٢]، وأذيّلها بمدحه إذ هو عبارة عن حسن الختام. فاهتديتُ
إليه بنشرِ ثنائه، وبِشْرِ طلّعه وسنائه. فإذا هو السيد الذي طلع من المغرب
بدرُ كماله، فسطعَ أفقُ المشرق بشمس جماله. وفرغَ دوحه النبوة، وأصلُ
المكارم والفتوة. ذو الحسب الطاهر، والنسب الباهر. السنيّ، حضرةُ
مولانا الأمير السيد عبد القادر الجزائري الحسني. لا زالت وجوه الآمال

(١) الخمر.

تستقبل شطرَ حرمه، ولا برحت وفودُها تطوف بكعبة برّه وكرمه؛ فإنه في
محيًا الدهر غرّة، ولعين المجد قرة: [من الطويل]

إذا زان قومًا بالمناقبِ واصفٌ ذكرنا له فضلًا يزينُ المناقبًا
وبالجملة فله شيمٌ حسنى، تفوق الشمس بهجةً وحسنا. بين حماسة
وسماحة، وفصاحة وصباحة: [من الطويل]

شمائلٌ لا بُردُ النسيمِ معطرًا حكاها ولا خدُّ الشَّمولِ مُوردًا
إذا شبَّ نار الوغى وأورى، فما أكثرَ القتلى وما أرخصَ الأسرى.
وإن جادَ لرائد الغوث والفرَج، فحدّث عن البحر ولا حَرَج. يتهلل وجهه
الشريف عندما تمطر كفه بالبيضاء والصفراء، ولا غرّو فإنه ابن خير من
أظلّته الخضراء وأقلّته الغبراء. فيا له من مُفردٍ كامل، قد جمع الله به
أشتات الفضائل: [من الطويل]

عطاءٌ ولا منٌّ وحُكْمٌ ولا هوى وحِلْمٌ ولا عَجْزٌ وعزٌّ ولا كِبَرٌ
ولما مثلتُ بين يديه، وحسنتُ خاتمةً مقامتي لديه؛ ظفرت بجميع
أوطاري، في سائر شؤوني وأطواري. فطففتُ أشكرُ الله تعالى على فضله
وأحمد، وأصلي على من اسمه في الأرض مُحَمَّدٌ وفي السماء أحمد.

* * *

[قصيدة بديعة في مدح النبي ﷺ]

ولمنشئها قصيدة بديعة في مدح النبي ﷺ، يُستخرج من كل بيت منها اسم من أسمائه الشريفة، على قاعدة فن المعتمى^(١) وهي هذه:
[من الكامل]

لله مولى قد حلا بفمي لهُ حمدٌ فما أعلى منارَ مقامه
المراد بالفم الميم، بعمل الاستعارة^(٢). وبكونه (له حمد)، فهو:
(محمد) عليه الصلاة والسلام.

آلى المحبُّ على المدى لا بآءَ عنهُ ولا انتهى عن نهجِ شرعِ غرامه

(١) المعتمى عند البلاغيين كلام موزون يدل على اسم عن طريق الرمز والإيماء، أو عن طريق القلب بزيادة فيه، أو التشبيه أو بحساب الجمل، وهو أسلوب يقبله العقل والطبع السليم.

(٢) تعتمد التعمية البديعية على جملة قواعد أو أعمال يتم بمعرفتها استخراج المعنى وهي: العمل التحصيلي: وبه يتم تحصيل حروف الكلمة المطلوبة، وهو ذو أقسام ثمانية، منها: الترادف والتشبيه والتلميح... والعمل التكميلي: لترتيب الحروف الحاصلة، وهو ذو ثلاثة أقسام: التأليف والإسقاط والقلب. والعمل التسهيلي: لتسهيل أحد العاملين وتوضيحه، وهو ذو أربعة أقسام: الانتقاد والتحليل والتبديل والتركيب.

أشير إلى حذف باء (المحب)، ومنتهى (المدى) بعمل الإسقاط^(١)، وهو في الاسم الكريم.

ولشطر وجه حماه مدّ أكفّه يشكو بزفرتيه لهيب أواميه وفيه أيضاً، والمراد بالشطر النصف، وبالوجه (المحيًا) بعملتي الاشتراك والترادف^(٢).

فجباه وصلّا منه أحمد للجوى وبدا فلا كلف بيذر تماميه قوله: (لا كلف) إشارة إلى زوال نقطة (أحمد) بعمل التصحيف^(٣) فيصير (أحمد) عليه السلام.

هو غرة الحسن التي في جبهة الفضلاء ذو ود لرعي ذماميه في (محمود) عليه السلام. وفاء (الفضلاء)^(٤)، تجعل ميمين لتكون ظرفاً، وفيه عمل الانتقاد^(٥).

من مات من أهل الهوى فيه فذا في الحبّ حيّ فائز بحماميه

-
- (١) حذف حرف أو أكثر من الكلمة، وقد أشير إليه هنا بكلمة (لا باء عنه).
 - (٢) الترادف بين لفظي المحيا والوجه، فقد ذكر الوجه وأراد المحيا، فإذا أخذنا شطره الأول (مح) وأضفناه إلى الكلمة التي تليه وهي (مد) كان الاسم (محمد).
 - (٣) من العمل التحصيلي، وهو تغيير بعض الحروف بزيادة النقط أو نقصها.
 - (٤) لعل في العبارة سقطاً، فالكلام ناقص، إذ لا بدّ من الإشارة إلى حرف الحاء أولاً، وهو في قوله: (غرة الحسن) بعمل الانتقاد، تكتنفه الميمان المشار إليهما لأن الغرة تكون وسط الجبهة، ثم توصل الحروف الثلاثة بقوله: (ود) لتكون (محمود).

(٥) الانتقاد: الإشارة إلى بعض أجزاء الكلمة ليؤخذ جزء الكلام المطلوب، كذكر الفرق والرأس والتاج والوجه وما أشبه ذلك، يراد به أول الكلمة.

المراد (بالحب): الود، بعمل الترادف، وفيه (حي) فهو (وحيد) عليه السلام.

بحرٌ خَضَمَّ حَوْلَهُ مَنْ حَامَ رُدَّ (م) بِهِ قَرِيرَ الْعَيْنِ مِنْ إِكْرَامِهِ فِي (مَاح) عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَاسْتِخْرَاجُهُ بِعَمَلِ الْقَلْبِ^(١) الْمَشَارِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ (رُدَّ).

كَمْ نَالَ أَقْصَى الْأَنْسِ مِنْهُ كُلُّ رَا جٍ فَاعْتَدَى فَرِحًا بِنَيْلِ مَرَامِهِ (أَقْصَى الْأَنْسِ)^(٢) السَّيْنِ بِعَمَلِ الْإِنْتِقَادِ وَإِذَا وَصَلَ بِهِ (رَاج) فَهُوَ (سَرَّاج) عَلَيْهِ السَّلَامُ.

عَقْدٌ غَدَا يَزْهُو عَلَى جَيْدِ الْعُلَا بِهِرَ الْعُقُولِ بِدُرِّهِ وَنِظَامِهِ الْمَرَادُ (بِالْعُقْد) الْمِيمِ بِعَمَلِ الْإِسْتِعَارَةِ، وَهُوَ عَلَى (جَيْد): (مَجِيد) عَلَيْهِ السَّلَامُ.

مَاحِي الظَّلَامِ بِنُورِ وَجْهِ غَايَةِ الْ- عِبَادِ وَالزَّهَّادِ كَشَفُ لثَامِهِ فِي (أَحِيد) عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِيهِ عَمَلَا الْإِنْتِقَادِ وَالْإِسْقَاطِ^(٣) الْمَشَارِ إِلَيْهِ بِكَشْفِ اللَّثَامِ.

وَبِحَسَنِ مَبْسَمِهِ بَدَا فَجْرٌ جَلَا ظُلْمَ الدُّجَى وَحَلَا ارْتِشَافٌ مُدَامِهِ

(١) ذكر ما يدل على عكس حروف الكلمة، والمراد هنا كلمة (حام).

(٢) أقصى الأنس، أي: آخر كلمة الأنس، وهو السين.

(٣) الإسقاط: حذف حرف أو أكثر من الكلمة بذكر ما يدل على ذلك، وهو هنا كشف اللثام، والمراد: إسقاط الميم من (ماحي) يبقى (أحي) فإذا أضيفت إلى الدال التي أشار إليها قوله: (غاية العباد) أي آخر كلمة (العباد) بعمل الانتقاد، صار الناتج: (أحيد).

في (مصباح) عليه السلام، وفيه عملا الاستعارة والترادف في (مبسم) و (فجر)^(١).

خَمْرٌ مَحَاغِينِ الشُّكُوكِ وَكَيْفَ لَا وَالشَّمْسُ تَبْدُو دُونَ سَاطِعِ جَامِهِ
المراد بالشمس: العين، بعمل الترادف^(٢)؛ وهي دون (جام) (جامع) عليه السلام.

وَبَلِغِظِهِ وَقَوَامِهِ قَدْ رَدَّ مُضْنِي الْوَجْدِ مَنْصُورًا عَلَى لُؤَامِهِ
في (صادق) عليه السلام، وفيه عملا الاستعارة والقلب^(٣).

يَرْوِي لِأَرْبَابِ الصَّبَابَةِ حَالَهُ رَشًا بِقَلْبِ الصَّبِّ رَشْتُ سِهَامِهِ
في (حاشر) عليه السلام، وفيه عمل التحليل والتأليف والتسمية^(٤) والقلب.

تَاجُ الْمَحَاسِنِ قَدْ سَمَا بَيِّنِ الْوَرَى وَعَلَا عَلَى أَوْجِ الْكَمَالِ وَهَامِهِ

(١) (مبسم) بعمل الاستعارة (ميم). و (فجر) بعمل الترادف (صباح). فالنتاج: (مصباح).

(٢) لأن من معاني العين الشمس. انظر: (اللسان: عين).

(٣) الاستعارة في (لحظة) تخرج (الصاد)، والقلب في (قوامه) تخرج (ما وق) إلا أن الواو ينبغي أن تكون دالاً حتى يصبح الاسم (صادق)!

(٤) التحليل: تجزئة اللفظ الواحد، والتأليف: جمع الألفاظ المتفرقة من مواضع متعددة. والتسمية: ذكر اسم الحرف وإرادة مسماه أو العكس. وقد تم كل ذلك في هذا البيت بالإضافة إلى القلب. فقلب كلمة (رشا) أخرج (أشر) والتسمية أخذت من كلمة (حاله) ولكن بتحليلها إلى جزأين، ثم أخذ الجزء الأول منها ليضم إلى الكلمة السابقة بعمل التأليف فينتج: (حاشر).

المراد بتاج المحاسن الميم بعمل الانتقاد^(١) وهو على (بين):
(مبين) عليه السلام.

الشمسُ تَعْشَقُهُ وَغُصْنُ الْبَانِ يَسْعَى شَطْرَ قِبْلَتِهِ بِلُطْفِ قَوَامِهِ
في (عاقب) عليه السلام، واستخراجه بعمل الترادف والاستعارة
والاشتراك^(٢).

وَبُصْبِحَ طَلَعْتَهُ بَدَا وَجْهُ الْهُدَى وَعَنْ الْوَجُودِ أَمَاطَ سِتْرَ ظَلَامِهِ
في (طه) عليه السلام، وفيه عمل الانتقاد^(٣)، كما لا يخفى على
كل جهبذ نقاد.

وَأَتَى بِسِرِّ يَالَهُ سِرًّا سَمَا إِذْ مَا تَرَى مِنْ شَكِّ فِي أَحْكَامِهِ
في (يس) عليه السلام، وفيه عمل التسمية والإسقاط والتحليل^(٤)،
وذلك في قوله: (ما تَرَى).

بِأَبِي وَأُمِّي نُؤُونُ حَاجِبِهِ وَبِي يَا لَيْتَنِي أَحْظَى بِرَمُزِ سَلَامِهِ

(١) لأنه أشار إلى ذلك بقوله: (تاج) وهو أول كل شيء.

(٢) الشمس: (عين) بعمل الترادف، وغصن البان: (ألف) بعمل الاستعارة، وشطر
قبلته: (ق) بعمل الانتقاد - وقد أغفل المصنف ذكره هنا - والنتائج: (عاقب).

(٣) (صبح طلعتة): أراد حرف (ط). و (وجه الهدى) أراد حرف (هـ) بعمل
الانتقاد، والنتائج: (طه).

(٤) التسمية في قوله: (يا له) إذ أخذ منها حرف (ي) وأسقط الباقي بعمل الإسقاط،
والتحليل في تجزئة كلمة (سر) إلى جزأين أخذ منهما الجزء الأول وهو حرف
(س)، فكان الناتج: (يس) وقد دل على الإسقاط بقوله: (ما تَرَى) والله أعلم.

في (نبي) عليه السلام، وفيه عملا الاستعارة والتخصيص والتنصيص^(١).

فَنَهَايَةُ الْأَوْطَارِ عَظْفُتُهُ وَكُلُّ السُّوْلِ لَثْمُ الثَّرْبِ مِنْ أَقْدَامِهِ
في (رسول) عليه السلام. وفيه عملا الانتقاد والتخصيص والتنصيص^(٢).

رَوْحِي وَرِيحَانِي بِذِكْرِ مَذِيحِهِ طِبُّ يَا فَوْادُ بِنَثْرِهِ وَنِظَامِهِ
في (طيب) عليه السلام، وفيه عملا التسمية والتخصيص والتنصيص^(٣).

قَسَمًا بِطَرَّتِهِ وَلَحْظٍ جَمَالِهِ وَيَدٍ حَبَّتْ مُضْنَاهُ كُشْفُ سِقَامِهِ
في (سعيد) عليه السلام، وفيه عمل الاستعارة والترادف والتخصيص والتنصيص^(٤).

إِنَّ الْمَحَبَّ فَوْادُهُ يَا سَوْ عَلِيٍّ أَمَدٍ مَضَى لَهُوًا كَطَيْفٍ مَنَامِهِ

(١) التخصيص والتنصيص: ذكر الحروف المطلوبة والتصرف فيها بنوع من أنواع التصرفات المقبولة. وقد حصل هذا هنا في قوله: (نون) فإذا أضيفت إلى قوله: (بي) كان الناتج: (نبي).

(٢) (نهاية الأوطار) تعني حرف الراء، بعمل الانتقاد؛ لأن نهاية كلمة الأوطار هي حرف الراء، وسائر الكلمة مذكور بنصه في قوله: (السول) فالناتج: (رسول).

(٣) التسمية في قوله: (يا) والتخصيص والتنصيص في قوله: (طب) والناتج: (طيب).

(٤) (الطرة) هي حرف (س) بعمل الاستعارة، و (اللحظ) هو (ع) بعمل الترادف، و (يد) تضاف كما هي بعمل التخصيص والتنصيص فيكون الناتج: (سعيد).

في (حامد) عليه السلام، وفيه عملا الانتقاد والتخصيص والتنصيص^(١).

يا قَلْبُ سُدُّ بولاءٍ أَشْرَفِ مُرْسَلٍ يَحْلُو به للمَرْءِ فَرَطُ هِيَامِهِ
في (سيد) عليه السلام، وفيه عملا التسمية والتخصيص والتنصيص^(٢).

في حُبِّهِ طابَ التذللُ والأسى فَارْزُدُ قِيَّاسَ العَقْلِ في استعظامِهِ
في (سائق) عليه السلام، وهو ظاهر لمن كان له قلب^(٣).

هو غاية القُصَّادِ أَسْرَعُ مَنْ دُعِي لا سِرًّا إِلَّا في اللِّجَا ودَوَامِهِ
في (داع) عليه السلام، وفيه عملا الانتقاد والإسقاط^(٤) المومى إليه بقوله: (لا سر).

مَبْدَا الحَقَائِقِ مُنتَهَاها مَنْ بَدَا كُـلَّ الخَلَائِقِ مِنْ نَدَى إِنْعامِهِ

(١) الانتقاد في قوله: (المحب فؤاده) فقد أشار إلى وسط كلمة (محب) بقوله: (فؤاده)، وهو حرف (ح). ثم أضيف إلى كلمة (أمد) بتمامها بعمل التخصيص والتنصيص، فحذفت الهمزة، فكان الناتج: (حامد).

(٢) التسمية في قوله: (يا) أراد حرف (ي)، والتخصيص والتنصيص في قوله: (سد)، والناتج: (سيد).

(٣) لأن التعمية هنا بعمل القلب، أي قلب الكلمة بذكر عكسها وهي كلمة (قياس) وقد أشار إلى ذلك قوله: (فاردد) والناتج: (سائق).

(٤) الانتقاد من كلمة (دعي) إذ أخذ منها حرفي (دع)، والإسقاط من كلمة (لا) إذ أسقط حرف اللام فبقي (ا)، والناتج: (داع).

في (حق) عليه السلام، واستخراجه بعمل الانتقاد غير خفي على أرباب النظر والانتقاد^(١).

وَجْهَ الْحَيَاءِ، وَفِي عَهْدٍ، خَلَهُ الرَّحْمَنُ، جِبْرَائِيلُ مِنْ خُدَامِهِ
في (حفي) عليه السلام، وفيه عملا الانتقاد والتحليل^(٢).

مَنْ أَمَّ سَاحَتَهُ عَلَى فَوْرٍ لَيُنْقَلِبَنَّ مَغْبُوطًا مَدَى أَيَامِهِ
في (رؤوف) على السلام، واستخراجه بعمل القلب^(٣)، ولا تخفى
الهمزة بعد ثبوت مركزها.

مَوْلَايَ يَا مَنْ فِيهِ هَيِّمٌ عَاشِقِيهِ فَمَا لَوَاهُمْ عَاذِلٌ بِمَلَامِهِ
في (مهيمن) عليه السلام، وفيه عمل التخصيص والتنصيص^(٤).

أَدْعُوكَ رَبِّ بِجَاهِهِ السَّامِي وَمَنْ هُوَ ذُو تَقَى^(٥) يَحْمِيهِ مِنْ آثَامِهِ
في (منتقى) عليه السلام، وفيه العمل المتقدم، وقل أن يخلو منه
بيت.

(١) لأن (مبدا الحقائق) يشير إلى حرفي (ح ق) في بداية كلمة الحقائق، وهما اللذان يُشكّلان الناتج: (حق).

(٢) الانتقاد في كلمة (وجه الحياء) إذ يخرج منها حرف (ح). والتحليل من كلمة (وفي) إذا أراد جزءها الثاني وهو (ف ي)، والناتج: (حفي).

(٣) وهو في كلمة (فور) وعكسها (روف) والهمزة توضع كما أشار المؤلف فيكون الناتج: (رؤوف).

(٤) من قوله: (من فيه هيم)، ففيه نص على الحروف المطلوبة.

(٥) أراد التخصيص والتنصيص، وهو في قوله: (من هو ذو تقى).

بالذِّكرُ أجرٌ فمي^(١)، وذَكَرٌ باطني بالحَقِّ عند الموتِ لاستِسلامِهِ
في (مذكَر) عليه السلام، وفيه عملاً الاستعارة والتخصيص
والتنصيص.

وَصَلَاةُ رَبِّي وَالسَّلَامُ لِحَاتِمِ^(٢) وَلَهُ ثَنَاءٌ فَاحٍ مِسْكُ خِتَامِهِ
في (محمد) عليه السلام، وفيه عملاً الاشتراك والترادف.
والحمد لله في البدء والختام.

* * *

(١) الاستعارة في قوله: (فمي) إذ يعني حرف (م)، والتخصيص والتنصيص في
قوله: (ذَكَر)، والناج: (مذكَر).

(٢) لعله أراد أن (الختام) مرادف لاسم (محمد) ﷺ، والله تعالى أعلم.

* * *

* تم الفراغ من هذه التعليقات ظهر الأحد ٢ ربيع الأول ١٤٢١هـ الموافق لـ ٤
حزيران ٢٠٠٠م في مكتبة كلية الآداب بجامعة الكويت - حرسها الله وأهلها -
وقد اقتصر في الاعتماد فيها على كتاب: (كتب الألغاز والأحاجي اللغوية)
لأحمد محمد الشيخ؛ لبعدي عن مكتبتي التي تضم من نفائس هذا العلم الشيء
الكثير والله الحمد، وقد وفقني الله لإخراج موسوعة فيه بعنوان «علم التعمية أو
استخراج المعنى عند العرب» بمشاركة د. محمد مرياتي، و د. يحيى مير عَلم،
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الكويت ٢ ربيع الأول ١٤٢١هـ

د. محمد حسان الطيّان

٤ حزيران ٢٠٠٠م

المفاخرات والمناظرات

(٤)

نصرة البهار في محاوراة الليل والنهار

تأليف

الشيخ محمد بن محمد المبارك الجزائري الدمشقي

(١٢٦٣ هـ - ١٣٣٠ هـ)

عني بها

الدكتور محمد حسن الطيان

جامعة الكويت - كلية الآداب

دار البشائر الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مقدمة المؤلف

قال مؤلفها بلغه اللُّهُ المنى والأرب^(١): هذه أولُ مقامةٍ أنشأتها في فن الأدب.

بيدَ أني أمعنتُ النظرَ ثانيًا في تحريرها، وأعملتُ الفكرَ في توشيحها بطرائف الظرائف وتحبيرها. ثم عززتها بمقامات فائقة، ومقالاتٍ رائعةٍ رائقة. منها: «أبهى مقامة في المفاخرة بين الغربية والإقامة». ومنها: «غريبُ الأنباء في مُناظرة الأرض والسماء». ومنها: «المقامةُ اللغزية والمقالةُ الأدبية». وقد تخلصتُ في جميعها إلى مدح السيد السند السريّ، العارفِ بالله تعالى الأمير عبد القادر الحسيني الجزائريّ.

وسببُ تألّفي لهذه المقامة المصونة، مُبشّرةٌ وقعت لي في ليلةٍ مباركةٍ ميمونة. وهي أني رأيتُ الأميرَ المشارَ إليه، قد أمرني أن أنظّم قصيدةً في الثناء عليه. ثم أتحنّني بجائزة فاخرة، وهديةٍ وافيةٍ وافرة. وأبدى لي من لطائف الأثائر، ما يتضمّنُ بحمد الله أعظم البشائر. فانتبهتُ وقد ثملتُ أنسا ومرحًا، وملتُ من هذه الرؤيا طربًا وفرحًا.

(١) طبعت هذه المحاوره في المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٣١١هـ.

وَأَلْهَمْتُ أَنْ أَقْدَمَ بَيْنَ يَدَيْ تِلْكَ الْقَصِيدَةِ، مُحَاوِرَةً تَحْتَوِي عَلَى حِكْمٍ
لَطِيفَةٍ وَأَمْثَالٍ مُفِيدَةٍ. وَحِينَ مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَلَوْتُهَا أَمَامَ جَمَلَةٍ مِنْ
الْفَضْلَاءِ لَدَيْهِ. وَصَلَنِي بِتَوْجِيهَاتِهِ^(١) الْفَخِيمَةِ وَدَعَوَاتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَأَمَدَّنِي
بِمَدِيدٍ مَنَّهَ وَوَافَرَ مَنَحَهُ الْعَمِيمَةَ؛ فَانْقَلَبْتُ فَائِزًا بِحَسَنِ الْقَبُولِ، حَائِزًا غَايَةَ
الْمَنَى وَنَهَايَةَ الْمَأْمُولِ.

محمد بن محمد المبارك
الجزائري

(١) كذا في الأصل، ولعل الأشبه بالصواب: «توجيهاته».

نزة البهار في محاورة الليل والنهار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أطلع الشمس ضياءً والقمر نورًا، و ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. والصلاة والسلام على من عنت لمجده الأملاك، وعنته الحضرة في خطاب: «لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك»، وعلى آله الوارثين منه أسمى السجايا والمآثر، وأصحابه الآخذين عنه أسنى المزايا والمفاخر. ما تعاقب الصباح والمساء، وتناوب الظلام والضياء.

وبعد:

فإني نظرت ذات يوم في اختلاف الليل والنهار، وما أودع الله في ساعاتها من دقائق الحكم والأسرار. وأصغيت لما يترجمه لسان الحال، لأسند ذلك إليه دون انتحال. فرويت عنه من حديثهما بدائع وغرائب، وقد قيل: «إن في الليل والنهار عجاب»:

[من مخلّع البسيط]

مَنْ لَمْ يُوَدِّبْهُ وَالِدَاهُ أَدَبَهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ

وصغت تلك المعاني، في مقامة رقيقة المباني. ذات نثر فائق،

[رجز]

ونظم بديع رائق:

تَكَادُ مِنْ عُدُوبَةِ الْأَلْفَاظِ تَشْرِبُهَا مَسَامِعُ الْحَفَاطِ

قد أبرزتها في معرض المحاور، لتجرح إليها أرباب المحاضرة،
وأودعتها غرراً من بنات الأفكار، ودرراً تزهو على البنات الأبار:

[من الخفيف]

كلماتٌ لو أن للدهر سمعاً مالٌ من لطفها إلى الإصغاءِ

فهي مقامةٌ لطيفةٌ تغني عن مقامات البديع، ومقالةٌ ظريفةٌ تحتوي
على بديع المحاسن ومحاسن البديع. بل فُكاهةٌ أحلى من عيش الصِّبا،
ونقطةٌ أرقُّ من نفحة نسيم الصِّبا. أخلصتُ في حسن تخلصها لمدح أمير
المغرب، وضمنتها معنى «المرقص والمطرب» فهي «عنقاء مغرب»^(١).
وسميتها: «نضرة البهار»^(٢) في محاوره الليل والنهار.

وذلك أنه أبدى السنا والدجى ما هو للأذن قرطٌ وللعين قرّة، فكلما
أسفر ذاك عن بياض الغرّة قابله هذا بسواد الطرّة. ثم صار الهزل جدّاً،
واشتدّ النزاع بينهما جدّاً. استنجد كلٌّ منهما أميره، وأفسى له سرّه
وضميره.

* * *

وإذا بالليل حمل على النهار، فصبغ حمرةً وردته بصفرة البهار.
وخطر يجرُّ ذبولَ تيهه وعجبه، مرصّعاً تيجان مفاخره بدرر شهبه. وقد
كساه بدر الكمال بردَ الجمال، ولوائح المهابة والجلال تلوح عليه في ذلك
المجال. فصدر النقول بأحاسن رواياته، وحيّر العقول بمحاسن كناياته.

(١) طائر متوهم يضرب مثلاً للأمر النادر. وفي أمثالهم: «أعزّ من عنقاء مغرب».
معجم الأمثال العربية (٣/٢٢٩).

(٢) البهار: كل شيء حسن منير، وهو اسم نبات طيب الريح.

ثم قال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦]. ففتح باب المناقشة في هذا الفصل، وعقد أسباب المنافسة بقوله الفصل:

«فإنَّ الحربَ أولُها كلامٌ»

ثم تنجلي عن قتيل أو أسير كلام.

* * *

ولما بلغ الليل غايته، بزغ الفجر ورفع رايته. وقال إذ جال في معترك المنايا:

«أنا ابنُ جَلَا وطلّاعُ الثنايا»

فتقدّم في ذلك الميدان وجلّى، تاليًا قوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢].

ثم استوى على عرش السنا والسناء، وأطلع شمس طلعت في الأرض والسماء. فأعرب عن غوامض الرقائق والحقائق، وأعرب في نشر ما انطوى من الأسرار والدقائق. بعبارة تمتزج بأجزاء النفوس لنفاستها، وبراعة ترتشف من سلافتها القلوب لسلاستها. فللّكه دره ما أفصحه من ترجمان، قد جلا من نقود معارفه ما أزرى بعقود الجمان. وما انحدر من منبره، حتى أيدّ دعوى خبره بشاهد مخبره.

* * *

فانتدب إليه الليل، ومال عليه كلّ الميل. وجعل نجوم النّيّرات له رجومًا، وما غادر منه أطلالًا ولا رسومًا. ولمّا طرّزَ البدر بُرد الدجى،

ورصّع إكليله بزُهر العلا فاستهوى الحِجَا^(١). قال:

أحمدُ من جعلني خلوةً للأحباب، وجلوةً لعرائس^(٢) العرفان
ونفائس الآداب. وخلقتني مثوى لراحة العِبَاد، ومأوى لخاصّة الشُّبَّانِ
والعِبَاد، والله درُّ من قال فأجاد:
[من الخفيف]

أيُّها الليلُ طُلْ بغيرِ جُنَاحٍ ليسَ للعَيْنِ راحةٌ في الصَّبَاحِ
كيف لا أبغضُ الصَّبَاحَ وفيهِ بانَ عَنِّي نورُ الوجوهِ الصَّبَاحِ
أتردّد على أرباب المجاهدة بفنون الغرائب، وأتودّد إلى أصحاب
المشاهدة بعيون الرغائب. تدور في ساحتهم بدور الحسن والبهاء، وتُدار
من راحتهم كؤوس الأنس والهناء. فتُحييهم نغمات السمر، وتُحييهم
نسمات السحر. فأحياناً وصلي بالتهاني مقمرة، وأفناناً فضلي بالأمانِي
مثمرة. وحسبي كرامةً أني للناس خيرٌ لباس، أقيهم بلطف الإيناس من
كل باس. ومن واصل الإدلاج وهجر طيب الكرى؛ قيل له: (عند الصباح
يَحْمَدُ القومُ الشُّرَى)^(٣):
[من الطويل]

وما الليلُ إلَّا للمُجَدِّ مَطِيَّةٌ ومِيدَانُ سَبَقٍ فاستبقُ تبلغِ المنى
ففتنَ بمعاني بيانه البديع، وتفتنَ في أفانين التصريح والترصيع. ثم
أتمَّ خطبته بالتماس المغفرة والعفو، واستعاذ بالله من دواهي الغفلة
ودواعي اللهو.

* * *

(١) الزُّهر: النجوم، والحجَا: العقول.

(٢) جُلِيَت العروس على بعلها جِلْوَةً: عُرِضَتْ عليه مجلُوةً.

(٣) من أمثالهم، يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة، مجمع الأمثال (٣/٢).

فوثب إليه النهار، وصال عليه صولة ملك قهّار. وصعد على منبره
ثانيًا، وقد أضحى التيه لعطفه ثانيًا. فأثنى على من جلّى عنه ظلمة
الحجاب، وتجلّى له باسمه النور وتوّجه بسورة من الكتاب. وزانه بأبهى
سراج وهّاج، فأوضح بسناه السبيل والمنهاج. ثم صاح:

أيها الليل، هلأ قصرت من إعجابك الذيل؟ ولئن دارت رحي
الحرب، واستعرت نار الطعن والضرب. فلاسبين مخدراتك وهي عن
الوجوه حاسرة، وأنت تتلو يومئذ: ﴿تِلْكَ إِذَا كَرَّهَ حَاسِرَةٌ﴾
[النازعات: ١٢].

فما دعاك إلى حلبة المفاضلة، وما دهاك حتى عرّضت بنفسك
للمناضلة؟ وهل دأبك إلا الخداع والمكر، وترقّب الفرصة وأنت داخل
الوكر؟ أما حضّ القرآن على التعوذ برب الفلق وندب، ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾
وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ؟ [الفلق: ٢، ٣].

فبرّتي يُستعاذ من شرّك، ويُستعان على صنوف صروف غدرك.
وهب أنك تجمع المحبّ بالحبيب، إذا جار عليه الهوى وحرار الطيب.
فكم يقاسي منك في هاجرة الهجر، ويثنّ أنين الشكلى حتى مطلع الفجر!
[من الطويل]

بيتٌ كما باتَ السليمُ مسهّدًا وفي قلبه نارٌ يشبُّ لها وقدُ
فيساهر النجوم، ويساور الوجوم. وقد هاجت لواعج غرامه،
وتحركت سواكنُ وجده وهيامه. فأنشد، وزفيره يتصعد: [من الطويل]
أفضّي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهَمّ بالليلِ جامعُ
نهاري نهارُ الناسِ حتى إذا بدا لي الليل هزّني إليك المضاجعُ

على أن العاشق الواله، يشكو منك في جميع أحواله. فكم قطع
آناءك بمواصله أنيه، مُتملماً من فرط شوقه وحنينه! فلما أن حظي
بالوصال، تمثّل بقول من قال:

الليلُ إنِ واصلتُ كالليلِ إنِ هَجَرْتِ أشكو من الطولِ ما أشكو منِ القِصرِ
ولئنِ افتخرتَ ببدرِكَ الباهرِ الباهي، فإنما تُباري ببعضِ أنوارِ
وتباهي. وهل للبدر عند إشراق الشمس من نور، أو لطلعة حسنه من
حدور البطون ظهور؟ ومن ادّعى أنك تساويني في الفضل والقدر، أو زعمَ
أن الشمس تقبّس من مشكاة البدر؟! ومتى استمدّت الأصول من الفروع؟
[من الوافر]

«وما أغنى الشموس عن الشموع»؟

فبي تتجلّى محاسن المظاهر الكونية، وتتحلّى بجواهر الأعراض
اللونية. وأنى يخفى حسني وجمالي على شاهد، أو يفتقر فضلي وكمالي
إلى شاهد؟ وعرضي عارٍ عن العار، وجميع الحسن من ضيائي مستعار:
[من الوافر]

وليس يصحُّ في الأذهان شيءٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلٍ
أما كفاك بيّنةً وزادك ذكرى وتبصرة، قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ
وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]؟ و﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ
سَتَوَى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: ٦١]؟ وأين منزلُ أهل الغفلة من منزل أهل
اليقظة والحضور؟!

وإن كنتَ مَغْنَى الأُنس والأفراح، تفعل بعقول الناس فعل الراح؛
فهل حسبتَ أن السكونَ خيرٌ من الحركة، وقد أجمع العالم على أن

(الحركة بركة)^(١)! فَإِنَّ لِي بِكُلِّ خَطْوَةٍ حُطْوَةٍ، وليس لجوادي كِبُوءٌ ولا لصارمي نُبُوءٌ. وَإِنْ صرَّحْتَ بِالذِّينِ ﴿يَبِيئُتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ [الفرقان: ٦٤] معرَّضًا بِكُلِّ غَافِلٍ لَاهٍ، فلي في كُلِّ مَجَالٍ ﴿رِجَالٌ لَا لُئْلِهِمْ بَحْرٌ لَّيَالَى وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]. وَأَيْنَ مِنْ أَحْتَجِبُ بِظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، مِمَّنْ أَضْحَى يَنْظُرُ بَعِينَ الْإِعْتِبَارِ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ أَلَا وَإِنْ أَوْلَى الْأَبْأَابِ رَأَوْا الدُّنْيَا دَارَ الْأَسْبَابِ، فَلزَمُوا الْأَدَبَ مَعَ اللَّهِ بِاسْتِعْمَالِهَا وَقُلُوبِهِمْ عَاكِفَةٌ عَلَى الْبَابِ.

وَقَدْ أَتَحَفَنِي اللَّهُ بِالصَّلَاةِ الْوَسْطَى فَأَوْتَرَ بِهَا صَلَوَاتِي، وَشَرَعَ فِيهَا الْإِسْرَارَ لِأَسْرَارِ اخْتَصَّتْ بِهَا أَهْلُ جَلَوَاتِي. وَكَفَانِي شَرْفًا ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فَيَا لَهُ مِنْ شَهْرٍ أَيَّامُهُ أَعْيَادٌ وَمَوَاسِمٌ، نَفْحَاتُ أَنْسِهِ نَوَاسِمٌ وَثُغُورٌ حَسَنَةٌ بِوَاسِمٍ. فَمَا ثَرِي مَأْثُورَةٌ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، وَمَفَاخِرِي مَنْشُورَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالْحَدِيثِ. وَمَحَاسِنِي وَاضِحَةٌ لِأَوْلَى الْأَبْصَارِ، (وَهَلْ تَخْفَى الشَّمْسُ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ؟!).

فَاكْفَفْ عَنِ الْجِدَالِ وَأَمْسِكْ، وَلَا تَجْعَلْ يَوْمَكَ مِثْلَ أَمْسِكَ. وَسَالِمٌ مِنْ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِ قُدْرَةٌ، فَقَدْ قِيلَ: (مَا هَلْكَ أَمْرٌ عَرَفَ قُدْرَتَهُ). أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ آفَةِ الْعَجَبِ وَالْكَبْرِيَاءِ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَخْلُصَ أَحْوَالَ أَسْرَتِي مِنْ أَوْصَالِ التَّصْنَعِ وَالرِّيَاءِ.

* * *

(١) مِنْ أَمْثَالِ الْمَوْلِدِينَ. انْظُرْ: مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ (١/٢٣٠)، وَمَعْجَمُ الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ (١/٤٣٨).

ولما انهارَ رُكنَ النهارِ، ابهارَ الليلَ^(١) وتبرقعَ بالاكفهرار^(٢). فسدَّ ما بين الخافقين بسواده، وطفق يرمي بسهام جداله في جلاده. وقدم بين يدي نجواه سورة القدر، آيةً على ما حازه من كمال الرفعة والقدر. وثنى بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، فأشار إلى الحبيب حين تجلَّت له قرّة عينه ليلى.

ثم قال: سحقًا لك أيها النهار، فقد أسست بنيانك على شفا جُرفِ هار. تناضلني ومني كان انسلاخك وظهورك، وتفاضلني وبني أرخت أعوامك وشهورك؟! قد أطعت هواك في عصياني وعقوقي، وأضعت مندوبَ مطالبني وواجب حقوقي! ألم يأن لك أن تخشع للذكر، فتعترف لي برتبة التقديم في الذكر؟ وشتان بين المتوكل وصاحب السبب، وكم بين لذة الراحة ومرارة التعب؟ وهل الأعمى سوى المحجوب عن المحبوب؟ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ﴾ [الحج: ٤٦].

كيف تعيرني بلون السواد، وهل يقبُح السواد إلا في الفؤاد؟! أم كيف تعينني بالخداع و«الحربُ خُدعة»^(٣)؟، وليس الشيء في موطنه بغريب ولا بدعة. أما تشهد العوالم من هيبتي حيارى، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾؟ [الحج: ٢]. فكم أرقتُ ملوكًا أكاسرة، وأرقتُ دماء أسودٍ كاسرة؟ وكم أوريثُ نار الوغى تحت العجاج^(٤)، وقد

(١) ابهارَ الليل: انتصف، أو تراكبت ظلمته. القاموس (بهر).

(٢) شدة الظلمة.

(٣) من أمثالهم، يروى بفتح الخاء وضمها. مجمع الأمثال (١/١٩٧).

(٤) الغبار.

أزوّرت اللحاظ واغبرت الفجاج^(١)؟ فأنا البطل الذي لا يُصطلى بناره، ولا يأخذ منه الموتورُ بثاره.

وافتخارك عليّ بالصلاة الوسطى، ليس إنصافاً منك ولا قسطاً. وهب أنك انفردت بتلك الصلاة الجليلة، فأين أنت مما أوتيته من الصلّات الجزيلة؟ ألا وإن أعمالي تزهو أنوارها، وتزكو عند الحق تعالى أسرارها. وهل من نوافلك كانت تلك الفريضة، حتى تطاولت عليّ بدعواك الطويلة العريضة؟! أما كان افتراضُ الصلاة في ليلة العروج، فما بالك تدّعي الارتقاء إلى هذه البروج؟! وما أعجبتني قطّ دعوى عريضة، ولو قام في تصديقها ألف شاهد^(٢).

وأما افتخارك عليّ بفضل شهر رمضان، وما نزل فيه من السبع المثاني والقرآن، فهل صحّ لك صيامه إلاّ بي بدءاً وختاماً، وقد تميّرت عليك بفضيلة إحيائه تهجّداً وقياماً؟! على أنني محلّ النية و«نية المرء خيرٌ من عمله»^(٣)، لأنها بمثابة الروح له وبها يحظى الراجي ببلوغ أمله. هذا وإنني أتكفل للصائم بمديد الراحة ووافر الأجر، حتّى يتبيّن له الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. وكيف تفتخر بالكتاب المنزّه في مزاياه عن المشاركة، والله تعالى يقول فيه: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣].

(١) جمع فجع وهو الطريق الواسع بين جبلين.

(٢) كذا في الأصل، ولعل في العبارة سقطاً يقيم سجعتهما وإن كان معناها قائماً.

(٣) من الأمثال التي رواها أبو عكرمة الضبي في كتابه ص ٣٦. معجم الأمثال العربية

(٤/٣٢٦).

وقد زعمت أنك انفردت بجمع فنون المجد والفضل، ولم تخف
يوم الفصل ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ [المرسلات: ١٤].

هل في مطالع سعودك أشرقت بدورُ العيدين، أم على جناح جُنْحِك
أُسْرِي بنور طلعة الكونين، ثم عُرج به عليه السلام إلى منزلة قابِ
قوسين؟! وهل في تجليات أسحارك يقول الرب: هل من سائل؟ فيناجيه
العبد متضرعاً إليه بقلبٍ خاشع ودمعٍ سائل، متوسلاً إلى حضرته بأعظم
الوسائط لديه وأكرم الوسائل.

ومما اختصتُ به من الفضائل والمفاخر، أنه في دولتي وُلدَ سيِّدُ
الأوائل والأواخر. وناهيك بليالي شهرِ اللّهِ رجب، التي تأكد فضلُ
مبتدئها بالخبر ووجب. وكيف لا؟! وفي طالعتها السعيد حملت أمانة،
بأكرم نبيٍّ به أُمَّتُهُ من المخاوف أمانة. فهي فاتحةُ الأوقات الزاهية الزاهرة،
وواسطةُ عقدها بحسن خاتمة النبوة الباهرة.

* * *

فطلع النهار طلوعَ الأسد من غابه، وكسر جيوش الدُّجى حين كَثُرَ
عن نابه. وشمّر للحرب العوان، غير ناكلٍ ولا وان. ناشراً في الأفق رايته
البيضاء، وأسنته لامعةً بين الخضراء والغبراء. وقال:

والذي كساني حُلل الملاحه، وأطلق لساني بالبلاغة والفصاحة،
لأمحونَّ سطور الدُّجى من طروس الوجود، ولأثبتنَّ حسن أحوالي في
مقامات أهل الشهود. فإني معروفٌ بالوفاءِ وصدق الخبر، موصوفٌ
بالصفاءِ الذي لا يشوب صفوه كدر. كيف يباهيني الليل بمكارم
الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنا أتحدث بنعم الله وهو موسومٌ بكفران

النعم؟! ألسْتُ مظهرَ الهداية والدلالة، وهو مظهرُ الغواية والضلالة؟! فكم أرشدتُ من أضلّه، وأعززتُ من أهانه وأذلّه؟! وكم أظهرتُ منه عيبًا كان غيبًا، فابيضتُ عينه حزناً ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ سَيْبًا﴾ [مريم: ٤]؟! كل ذلك وما تخلّى عن ظلمةِ ظلمه، ولا تحلّى بحلية الإنصاف في نشره ونظمه:

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يُرَى

وكيف يزعم هذا العبد الآبق، أنه لسيدته في حلبة الشرف سابق، وقد قال الواحد القهار: ﴿وَلَا أَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]؟! متى قام على منابر العلا بنو حام، أو جلس أحدهم في ديوان الفخر بين أبناء سام؟! إن هو وإيمُ الله إلا كافر، وبشموس أنوار الشهادة غير ظافر. لو كان من السعداء لفاز بدار النعيم، ولولا شقاؤه لما شابهة سوادَ طبقات الجحيم. وماذا يؤمّله من الجزاء ويرجوه، ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]؟! أما درى أن صحيفته سوداء مظلمة، وصحيفتي تُفصح عن نفس مؤمنة بالله مسلمة؟! وأنى يرقى كتابه إلى عليّين، وهو من ظلمات الحجاب في سجّين؟؟.

ثم أقبل عليه، وأنشد مشيرًا إليه: [من السريع]

يا مُشَبَّهًا فِي فِعْلِهِ لَوْنُهُ لَمْ تَعُدْ مَا أَوْجَبَتْ الْقِسْمَةَ
خُلُقِكَ مِنْ خُلُقِكَ مُسْتَخْرِجٌ وَالظُّلْمُ مُشْتَقٌّ مِنَ الظُّلْمَةِ

وقال له: كيف تدّعي فوق حالك؟! وأيّ فضل لمن منظره أسودّ حالك؟! أما علمت أن الظاهر للباطن عنوان، كما أن اللسان عن الجنان ترجمان؟ فإنّ الحسن في الجميل، آيةٌ على أنه ربّ الحسنى والجميل،

لقول من لجزِيل الإحسان نرجوه: «ابتغوا الخير عند حسان الوجوه»:

[من المنسرح]

لا تسأل المرءَ عن خلائقِهِ في وجهِهِ شاهدٌ من الخبرِ

فأنا مفتاح خزائن الأرزاق، وبني يُستفتح بابُ الكريم الرزاق.
وكفاني دليلاً على الفضل والكمال: «أنَّ الله تعالى جميلٌ يحبُّ الجمال».

لقد سمعت أقاويلك التي قدّمتها بين يديك، وزعمت أنّها حجّةٌ لك وهي حجّةٌ عليك. ولا جرمَ أن «لسان الجاهل مفتاح حتفه»، وكم من باغٍ قُتِلَ بصارمٍ بغيه وحيفه. أمّا انسلاخي منك فمن أملح المُلح لي والغرر، وهل يحق لأصناف الأصداف أن تنافس نفائس الدرر؟! أليست «تلدُ الأمةُ ربّتها» حرّةً نجيبه، وقد قالوا: (إنَّ الليالي حَبالي، يلدنَ كلَّ عجيبةٍ)؟! وأما تقدّمك عليّ فمن العادة، تقدّم الخدم بين يدي السادة: [من الكامل]

أوَ ما ترى أن النبيَّ محمدًا فاق البريّةَ وهو آخرُ مرسلِ

على أنه «أول ما خلق اللّه النور»، كما ورد عن جابر في خبره المأثور. وأما تحلّي صفوتك بتجلّي الحقّ تعالى في السحر؛ فليس إلّا لمن أحيأ أحيانك بالمجاهدة والسهر. على أن أوقاتي كلها أسحار، فكم جلوتُ بشموس الأنوار غياهب الأستار؟!

وأما زهُوك^(١) بقضية ظهور سيد ولد آدم، الذي هو نتيجة مقدمات الكون وزبدة العالم؛ فهل وقع اتفاق الرواة على ذلك، وأنّي لك هذا وصبح طلعتة يمحو سوادك الحالِك؟

(١) زها يزهو زهُواً وزهُواً: تكبر وأعجب بنفسه.

وأما خبر الإسراء فعني روته الأمة، ثم بلغه الشاهد للغائب بعد أمة^(١). فما لاحت أسراره إلا بمطالعي، ولا زاحت أستاره إلا بطوالعي.

وما أشرت إليه من بقية معانيك، التي أضاعت بها في الخافقين نجوم معاليك؛ فأين أنت من يوم عرفة، الذي عرفه بأبهى الخصائص من عرفه؟ وأين أنت من يوم عاشوراء، الذي يعظم فيه الشكر والصبر على السراء والضراء؟ وناهيك بسمو شأن العيدين، فما أجلهما من موسمين سعيدين؟

وكيف تفاخرنى بساعة تبدو منك مرة في كل عام، ولي في كل أسبوع أمد تمتد فيه موائد الجود والإنعام؟! على أن يومه لأشتات الكمالات جامع، يهتز فيه بذكر الله تعالى كل جامع. فيا له من يوم يستجاب فيه الدعاء، ويستجد الثناء على رب العزة والثناء. ولو تأملت ما لي من بديع الأوصاف والشمائل، لما اجترأت على مجاراتي في حلبة الفواضل والفضائل.

هل في معاهدك كانت الصحابة تتلقى القرآن، وترقى في مراتب الإحسان بمشاهدة إنسان عين الإنسان؟ أم في مشاهدك وردت وقائع الجهاد، وعبد الله وحده على رؤوس الأشهاد؟ فأخبار أختياري سارت بها الركبان، وماست بنسيم رقتها معاطف البان. وقدري فوق ما تصفه الألسن، وعندى ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١].

(١) الأمة هنا: الحين من الدهر، قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيْنَا أُمَّةٌ مَعْدُودَةٌ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ [هود: ٨].

فدع عنك قول الزور والمين، (فقد بين^(١) الصبح لذي عينين).

* * *

ولما أفاض النهار، في حديث يفضح الأزهار، أبداع في كنياته وتلويحه، وأغرب في تعريضه وتصريحه.

فابتدر إليه الليل، وأجلب عليه بالرجل والخيول. وامتطى جواده الأدهم، واعتمَّ بعمامة سواده وتلثم. فأنسى بفتكاته عنترة بني عبس، حين أمسى يتوعد عمارة بالقتل والرمس. ثم نشر في الأفق ذوائبه السود، وعبس وبسر^(٢) فأسر بسطوته الأسود، وقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالسَّفَقِ * وَالْأَيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٦ - ١٨]، لأسبين رومي النهار، ولأجعلته عبرة لذوي الاعتبار. فلقد تزيًا المملوك بزئ الملوك، وادعى مقام الوصول صاحب السير والسلوك!! أما كفاه ازدرائي وتحقيري، حتى حكم بتضليلي وتكفيرتي؟! كم أسبلت على عوراته ذيل ستري، وهو لا يبالي بهتك أستاري. وكم أودعت مكنون سره في خزانة سري، وهو يبوح بمصون أسراري. أف له من فاضح، أما يكفيه ما فيه من المفاضح؟: [من الطويل] أنم بما استودعته من زجاجة يرى الشيء فيها ظاهرًا وهو باطن كيف احتج لتقدمه بحديث جابر، مع أن ما رواه لكسري أعظم جابر. فإنه برهن على تقدمي عليه، لو أدرك سرًا ما أوما إليه. وعلام جعل السواد على النقص علامة، وهو مشتق من السؤدد لدى كل علامة؟ أما درى أني حزت من الكمال الحظ الأوفر، حتى تحلى ببديع وصفني العنبر

(١) بين الشيء: تبين وأنضح.

(٢) بسر: نظر بكرهه شديدة، أو كلع وتغير، قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾.

والمسك الأذفر^(١)!؟:

[من البسيط]

إن كنتَ عبدًا فنفسي حرّة كَرَمًا أو أسودَ الخَلْقِ إني أبيضُ الخُلُقِ
وهل يُزري بالخال سوادهُ البارِع، أو يُغري بالبرصِ بياضُه الناصع؟
وفي بياض المشيبِ عِبْرَةٌ وأيُّ عِبْرَةٍ، فكم أجرى من الآماقِ أعظمَ عِبْرَةٍ:

[من الطويل]

لَهُ منظرٌ في العينِ أبيضُ ناصعٌ ولكنَّهُ في القلبِ أسودُ أسفَعُ
ومن عاب نعت الشبابِ وفضلَ وصفِ الشيبِ، فقد غاب عن شهودِ
العيبِ وعالمِ الغيبِ. (فما كلُّ بياضٍ شحمة، ولا كلُّ حمراءٍ لحمة)^(٢).
هذا وإن السوادِ حلية أهل الزهد والصلاح، وهل يسترِق الأسودُ إلا سُودُ
أحداق الملاح؟! بيد أن الحرَّ لا يبالي بالجمالِ الظاهر، وإنما يباهي
بالفعلِ الجميلِ والقلبِ الطاهر. فإنَّ تفاوتِ المراتبِ، بحسبِ تفاوتِ
المناقبِ:

[من الطويل]

وما الحسنُ في وجهِ الفتى شَرَفٌ لَهُ إذا لم يكنُ في فعلِهِ والخلائقِ
ألا وإنَّ لي أخلاقًا، لو مزج بها البحرُ لعذبَ مذاقًا. فإنني أكنتم
الأسرارَ، وأعمي عيون الأشرار. وأريح الكرامِ الكاتبين، وأبيح الكرامة
للطالبين. وكم أعددت للأنسِ مقاعد، وفي الأمثال: (ربَّ ساعٍ
لقاعد)^(٣)؛ فإن ظلي ظليل، ونسيمي عليلٌ ليليل. تهدأُ بي الأنفاسُ،

(١) من أمثالهم، يضرب في موضع التهمة. انظر: مجمع الأمثال (٢/٢٨١)، والرواية فيه: ولا كل سوداء تمرة.

(٢) ذفر الشيء: اشتدت رائحته، ومسك أذفر: أي جيد.

(٣) مجمع الأمثال (١/٢٩٩)، ويروى معه: «وآكلٍ غير حامد».

وتسكن الأعضاء والحواس . وتتجلى بنات الأفكار، وتجتلى البنات الأبيكار . وتمتدُّ من أصناف الإحسان موائد، وتميد من أعطاف الحسان موائد^(١) . وهل للنهار مُحيًا كطلعة القمر، أو شعراً كالدجى فليله سواد ذلك الشعر . أو منقطة كالجوزاء، أو قرطاً كالثريا ذات السنا والسناء . أو نهراً كالمجرّة فيا له من نهر، تزهو على الزهر نجوم رياضه الزهر . وأية زهرة تباهي الزهرة، أم أية قلادة تضاهي في نظمها النثرة^(٢) . وماذا أعدُّ من شيم لا تنتهي عدداً، ولو كان مداً البحار السبع لها مَدّاً .

* *

ولما أنهى مقاله وملّ مقامه، شمّر للرحلة أذياله وقوّض خيامه، فتهلّل وجهه الصباح، وهلّل بذكرِ فالق الإصباح . وازدهاه السرور والابتهاج، كأنه ربُّ السرير والتاج: [مجزوء الرمل]

فكَأَنَّ الصَّبْحَ لَمَّا لَاحَ مِنْ تَحْتِ الثَّرِيَا
مَلِكٌ أَقْبَلَ فِي الثَّأِ جِ يُفْقِدَى وَيُحْيَا

وبرز إلى المبارزة من بابها، إذ كان من فرسانها وأربابها . فسلب الليل لباسه، وأذاقه شدّته وبأسه . وقال له: أيها المعجب بنفسه، المغرب في نقشه صحيفة زوره بنقسه^(٣)، (ما كلُّ سوداء تمرّة، ولا كلُّ صهباء

(١) جمع مائدة، وهي اسم فاعل من ماد يميد . أما الموائد الأولى فهي موائد الطعام، وبين الكلمتين جناس لا يخفى .

(٢) النثرة: كوكب في السماء كأنه لطح سحاب حيال كوكبين، تسميه العرب نثره الأسد، وهي من منازل القمر . اللسان (نثر) .

(٣) النَّقْسُ: المِدَاد .

خمرة). ألم تعلم أننا أبهى مُحَيًّا، وشتان ما بين الثرى والثريَّا. أين سوادك من بياضي، وما زهر نجومك إن تلاً زهر رياضي؟! وكم أطلعت بدورًا في مواكب السيَّارة^(١)، فأضحت تزهو بجمالها على الكواكب السيَّارة:

[من الطويل]

إذا ركبوا زادوا المواكبَ بهجةً وإن جلسوا زانوا صدورَ المجالسِ

وهل لك مثلُ الغزاة^(٢)، التي انفردت في الملاحة لا محالة؟! فأنا الذي ضاء صباح الصبابة من محيَّاه، وضاع^(٣) عبير العنبر من نشر أنفاسه وطيب ريَّاه. ولولاي ما عُرف الحسن والجمال، ولا سعى على وجه الأرض بدر الكمال. ولا تميز الحي من الميت، ولا بدا للعيان سرُّ هذا البيت:

ثلاثةُ تجلو عن القلبِ الحزنَ الماءُ والخضرةُ والوجهُ الحسنُ

فبي تفوح روائح الأزهار، وتلوح لوائح الأنوار. وتقتبس الفوائد، وتلتمس الفرائد. وما لاح جيدي الحالي وجيدك العاطل، إلا تلا لسان الحال: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ [الإسراء: ٨١]. وقد قدمت أنني لك فاضح، أو ما علمت أن «الحقَّ أبلج» واضح؟ فإني نظرت إليك بنور علام الغيوب، فظهر لي ما بطن في سرك من العيوب. فجعلتُ مطويَّ معاييك كتابًا منشورًا، وصيرت منظوم كواكبك هباءً منثورًا. فأنا الناقد البصير، والله الوليُّ لي والنصير. وكيف تحاول من لواك عن اتباع هواك، وأنت

(١) السيَّارة: القافلة.

(٢) الغزاة: الشمس.

(٣) ضاع المسك وتضوَّع وتضيَّع: تحرك فانتشرت رائحته.

تدعي رتبة الكمال فهلاً نَهَاكَ نُهَاكَ^(١)؟ :

وَمِنَ الْبَلِيَّةِ عَدْلٌ مِنْ لَا يَرْعَوِي عَنْ جَهْلِهِ وَخَطَابٌ مِنْ لَا يَفْهَمُ

وَهَبَ أَنِي وَاشٍ بِالْأَسْرَارِ نَمَامٍ، أَوْ مَرْتَكِبٌ فِي الْأَنَامِ جَمِيعِ الْأَثَامِ،
فَلَسْتُ أَقُودُ الْمَعشُوقَ إِلَى الْعَاشِقِ، فَاسْتَرَهُمَا بَرْدَائِي عَنِ الرَّقِيبِ وَالرَّاشِقِ.

وقال مشيراً إلى ذلك، من سلكتَ به هاتيك المسالك: [من السريع]

بِتْنَا عَلَى حَالٍ يَسْرُ الْهَوَى وَرُبَّمَا لَا يُمْكِنُ الشَّرْحُ
بِوَابِنَا اللَّيْلُ وَقَلْنَا لَهُ إِنَّ غَبْتَ عَنَّا هَجْمَ الصَّبْحِ

* * *

فوجم الليل لبراعة تلك العبارة، وبلاغة ما لاح له من الرمز
والإشارة. ثم وثب للمقال، كأنما أنشط من عقال^(٢)، وقال:

(رُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ)^(٣)، ومظلومٍ خَيَّبَ الدَّهْرَ أَمَلَهُ. فإلى متى
يسوءني النهار؟ وحتى متى يسومني عذاب النار؟ طالما أعرتة أذناً صمّاء،
وعيناً عمياء. وهو لا يثنى عن المقابلة، ولا يرعوي عن المحاربة
والمقاتلة. ومن العجب أنه عدّ تحدّثي بالنعمة إعجاباً، وجعل تصدّري في
ديوان المآثر شيئاً عجاباً!! وصرّح بوضع أحاديثي وهي متواترة باشتهار،
وقد قيل: (كلامُ الليلِ يمحوهُ النهارُ)^(٤).

(١) الثُّهَى: العقل.

(٢) نشط العقدة: شدها، وأنشطها وانتشطها: مداها حتى انحلت. أساس البلاغة (نشط).

(٣) من أمثالهم، انظر: مجمع الأمثال (١/٣٠٥)، ومعجم الأمثال العربية (٤/١٣٨).

(٤) من أمثال المولدين، انظر: مجمع الأمثال (٢/١٧٢).

ولما لاح ذنب السَّرحان^(١) في أفق المشرق، صاح متمثلاً بقوله:
(البلاءُ مُوكَّلٌ بالمنطق)^(٢). فقام يعثرُ في ذيله، وقد كفكف واكف سيله.

* * *

فما لبث أن تنفَّس الصباح، وأظهر من سناه ما أخفى ضوء
المصباح. ورفرف بجناحه الأبيض على الدجى، فاقتنصه من وكره بعدما
سكن وسجى:
[من الخفيف]

فكأنَّ الصباحَ في الأفقِ بازٍ والدُّجى بين مخلبيهِ غرابٍ
وقال: تَبَّأ لك أيها الليل، فلقد أوتيت من المين أوفر نيل. أيُّ
حديثٍ لك صحيح وضعته، وأيُّ حقٍّ لك صريح أضعته: [من السريع]
عليك بالصدق ولو أئنه أحرقك الصدق بنار الوعيد
وابغِ رضى الله فأغبى الورى من أسخط المولى وأرضى العبيد
نعم لك في السمر خبرٌ مرفوع، بيد أنه مكروهٌ في السنَّة موضوع. قد
اشتهرت لكن بأقبح الأوصاف، وعدلت لكن عن سبيل العدل والإنصاف.
تكتم عن المرء ما يرديه: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾
[الأحزاب: ٣٧]. وفي المثل: (الليلُ أخفى للويل)^(٣)، فما أصعب
مراسك قبل افترار سهيل^(٤). وهل يترنم بذكرك إلا غافل، وأنى يغترُّ بك

(١) السَّرحان: الذئب، وفي حديث الفجر: «كأنه ذنب السَّرحان». اللسان (سرح).

(٢) من أمثالهم، انظر: مجمع الأمثال (١٧/١)، والرواية فيه: «إن البلاء موكل بالمنطق»، وهو ينسب إلى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه.

(٣) من أمثالهم، انظر: مجمع الأمثال (١/٢٥٥)، ومجمع الأمثال العربية (٤/٤٤٨).

(٤) نجم مشهور.

عاقل ونجمك أفل؟! وكيف تفتخر عليّ، وأنت تفتقر إليّ؟ طالما أيقظتُ من أغفلته، وأطلقتُ من قيّدته وأعللته. ويبيّضتُ ما سودّته من الصحائف، وبيّنتُ ما أخفيتّه من اللطائف. فقابلتُ الإحسانَ بالكفران، وعادلتُ العدلَ بالعدوان. فراقبِ الحقَّ في سرِّك وعلانيتك، فإنه سبحانه مطّلع على نيّتك.

* * *

ولما سلب النهار بأساليب بيانه العقول، سكت الليل مَلِيًّا ثم أنشأ يقول:

فعينُ الرضى عن كلِّ عيبٍ كليلَةٌ كما أنَّ عينَ السخَطِ تُبدي المساويا

كيف أتصدّى للكذب، وأتردّى باللهو واللعب؟ وأنا المنعوت بالالطف والظرف، والموسوم بالصمت وغيض الظرف. كيف أورث الغرور، وأوترُّ الغفلة على الحضور؟ وأنا الداعي إلى ذكر الله وحده، والساعي في ردِّ الكثرة الوهمية إلى عين الوحدة. كيف أكفر بالعشير، ولو لم يقابل بالعشير؟ وأنا الموصوف بالستر الجميل، والمعروف بشكر المعروف والجميل؟ وهل أحجُبُ البصر عن شهود عالم الكثافة، إلّا لأكشف لعين البصيرة عن عالم اللطافة؟ وبذلك يتحقّق العبد بفنائه عن وجوده، فيمدّه الربُّ تعالى بسرِّ بقاءه من خزائن جوده. فلو راعى النهار حقوق المجاورة، لما راعني بأسنة المناظرة والمحاورة.

* * *

وما نمَّ بسرّه وباح، حتى بان محيّا الصباح. فحمل على عسكر الدجى بعموده، فنثر من دُرر دراربه تنظيم عقوده. ثم لاح في وجه الشرق

حاجب الشمس، فاستنقذ ما استرقه لئس الليل من الحواس الخمس. فكأنه
جدوة نار، أو قطعة من دينار: [من المتقارب]

تري الأرض منه وقد فضضت ولون السماء وقد ذهبها

ثم قال النهار لليل، وقد هجم عليه هجوم السيل:

أيها المدعي مقام الدعوة إلى الله، وهو في حال الغفلة عن
مولاه لاه. كيف تسنمت ذروة هذا المنبر، كأنك تكتب بالمسك
وتختم بالعنبر؟ لقد أطلت فيما (لا طائل تحته) ولا معنى، فكم ذا
(أسمع جعجعة ولا أرى طحنا)^(١). فلو كنت ممن انتخب غرر الشيم
وانتقى، لاتعظت بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾
[النجم: ٣٢]. فتنبه من غفلتك أيها الليل، قبل أن تدعو بالشبور والويل.
والأفرقت طلائع سوادك أي تفریق، ومزقت سوابغ ظلامك أي تمزيق.
(فما كل مرة، تسلّم الجرة).

* * *

فاسود وجه الليل، وانقلب بحشف^(٢) وسوء كيل. وندم على
مناضلة النهار، ندامة الفرزدق حين فارق النوار^(٣). (ولما سقط في يده)،

(١) من أمثالهم، يضرب لمن يعد ولا يفي، انظر: مجمع الأمثال (١/١٦٠)، والرواية
فيه: «جعجعة ولا أرى طحنا».

(٢) الحشف أردأ التمر، ومن أمثالهم: «أحشفا وسوء كيل» مجمع الأمثال
(٢٠٧/١).

(٣) النوار زوجة الفرزدق، وقد طلقها فندم على ذلك وقال:

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقاً نواراً

ورُزِيَء في عَدَدِهِ وَعُدَدِهِ؛ تَرَدَّى بالسواد، ولبس ثياب الحداد. ثم لاح هلاله للعين، كَمِنْجَلٍ صِيغَ من لُجَيْن^(١)، فأنشد وقد أرَّقه البين:

[من السريع]

انظُرْ إلى حَسَنِ هلالِ بَدَا يجلو سَنَا طَلَعَتِهِ الحِنْدِيسَا
كَمِنْجَلٍ قَدِ صِيغَ من فَضَّةٍ يحصُّدُ من زَهْرِ الدُّجَى نَرَجِيسَا

وقال: من ينصفني من هذا الجائر، وينصت لي فأبته شكوى الواله الحائر؟؟ قسماً بالحجر الأسود العظيم المبرّة، وكل أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّه، ما أضمرت للنهار شراً، ولا أدعت له سرّاً. فحتّام أعاني حدّ الطُّبَا، (وقد بلغ السيلُ الزَّبى)^(٢)؟! والله در المعنى، حيث قال في هذا المعنى:

وكنْتُ كالمتمنّي أن يرى فَلَقًا من الصبّاح فلما أن رآهُ عَمِي

* * *

فانتبه طَرْفَ النهار، وازدَهَرَ سراجُه أيّ ازدهار. وشرَعَ يتلو سورة النور بكمال الابتهاج، والشمس ترقم آية جماله بالذهب الوهاج. وقابل الصبحُ جنح الليل فارتسمت سطورُه البيض في ألواحِه السود، ثم قال:

أيها الليل البهيم: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ [يوسف: ٩٥]، كيف تدّعي أنك مظلوم، وتشتكي من جورِي وأنت الظَّلوم؟ وهب أني قاتلتك ظلماً فأنت البادي، وهل قابلتك إلا بما واجهتني به في المبادي؟

(١) اللُّجَيْن: الفضة.

(٢) من أمثالهم، يضرب لما جاوز الحدّ. مجمع الأمثال (١/٩١).

وها أنا برهنت على فضلي بشهودِ عدُول، ليس للمنصف عن تزكية
شهادتهم عدُول. فاستقلَّ من دعوى المجد والفخر، فقد ﴿حَصَّصَ الْحَقُّ﴾
[يوسف: ٥١]. ووضح الفجر.

وإن أبيت سلوكَ مَحَجَّتِي، ولم تتضح لك أدلَّةُ حَجَّتِي، فهلمَّ إلى
حضرة الأمير، ﴿وَلَا يَبْنِيكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

* * *

فأنكر الليلُ زعمه التفردَ بالفضلِ وادِّعاه، وأجاب في عَرَضِ أمرهما
على الأمير دُعاءه، وقال: (على الخبير سقطت) ^(١)، (وعند ابنِ بَجْدَتِها
حطَّطت) ^(٢)، فإنَّه الحاكم العادل، والعالم العامل.

* * *

فأمليا عليه جميع الواقعة والمجادلة، وما جرى لهما في المفاضلة
من المناضلة. وسألاه أن يكون بينهما حَكَمًا، ويوليها من لطائف مواقفه
حِكَمًا.

* * *

فقام في ذلك المقام خطيبًا، وقال مُلَبِّيًا دعوتهما ومجيبًا:

حمدًا لمن أعطى كلَّ شيء خلقه ثم هداه، وأسداه من جزيل نعمه
وجميل كرمه ما أسداه. وصلاةً وسلامًا على إمام الأصفياء الأطهار،

(١) من أمثالهم، يضرب لمن يظفر بمن يلبي طلبته، انظر: مجمع الأمثال
(٢/٢٤).

(٢) يقال: عنده بجدة ذاك، أي: علم ذاك، من بجد بالمكان إذا أقام به. ومن
أمثالهم: «أنا ابن بجدتها» مجمع الأمثال (١/٢٢).

المنزل عليه ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [القصص: ٧٣]، وعلى آله وصحبه الذين طلّعوا في سماء العُلا شموساً وبدوراً، فازدان بهم الوجود حسناً وجمالاً وازداد بهجةً ونوراً.

وبعد: فيا أيها المَلَوَان^(١)، أما علمتُمَا أنكما أحوَان؟ قد أبرزكما الحقُّ مثلاً لعالم الغيب والشهادة، وضربكما مثلاً معلناً بوجوب الإقرار له بالشهادة. فلا ينبغي لأحدٍ أن يتجاوز حدّه ومداه، فإن لكلِّ مقامًا معلوماً عند ربّه لا يتعداه. على أنكما في المجد والشرف (رضيعا لبان)، وفي مضمار العزِّ والفخر (فرسا رهان). وأما كونكما ابني ضرتين ظلمة وضياء، فإن الدهرَ يجمع بينكما في الانتساب إليه والانتماء. فليشدَّ كلُّ منكما عضدّه بأخيه، وليحذر من تفريطه في حقوقه وتراخيه. وعليكما باطراح رداء الافتخار، فإن العبد لا يسودُّ إلّا بالافتقار. بارك الله فيكما وبلغكما المرام، ما سطعتْ شمسُ الأكوان ولاح بدرُ التمام.

* * *

ولما أصلح ما بين الليل والنهار، بهر الألباب بعوارف معارفه أيّ انبهار. فلكّه فوائدُ كفرائدِ اللؤلؤ في السِّلْكِ، أو كؤوسٍ ﴿ مِنْ رَجِيحٍ مَخْتُومٍ * خَتَمُهُ مِسْكٌ ﴾ [المطففين: ٢٥، ٢٦].

وقد قلت مادحاً لحضرته الشريفة، مقتبساً من مشكاة أسرارهِ المنيفة:

قد أسفرت بين العُدَيْبِ وحاجرٍ خَوْدٌ سَبَّتْ أَهْلَ الهوى بمحاجرٍ

(١) المَلَوَان: الليل والنهار، قال الشاعر:

نهار وليل دائمٌ مَلَوَاهُمَا على كلِّ حالِ المرءِ يختلفانِ

هيفاء طُرْتُهَا غَدَتْ تحكي دجى
لَمَّا بَدَتْ تَخْتَالُ تِيهَا خَلْتُهَا
فَجَلَّتْ بِيَاقُوتِ المَبَاسِمِ لَوْلَا
أَسْرَتْ فُوَادِي فِي الغَرَامِ وَأَطْلَقَتْ
ضَنْتٌ بِحُسْنِ وَصَالِهَا يَا لَيْتَهَا
أَنْتَى يَشَاهِدُ طَرْفُ صَبٍّ مَا دَرَى
يَا عَاذِلِي كُنْ عَاذِرِي فَالْوَجْدُ فِي
لَوْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ مَنِيَةَ خَاطِرِي
هِيَهَاتَ يَصْحُو مِنْ سُلَافَةِ حَبِّهَا
أُرَبَّتْ عَلَى كَلِّ المَلَاكِ لَطَافَةً
كَالشمسِ إِنْ سَفَرَتْ وَغَصِنِ البَانِ إِنْ
يَصْفُو بِطَيْبِ وَصَالِهَا عَيْشِي كَمَا
مَوْلَى حَكَّتْ أَخْلَاقُهُ فِي لَطْفِهَا
بَزَعَتْ بِيَدِ كَمَالِهِ شَمْسُ العَلَا
أَكْرِمَ بِهِ بَرًّا غَدَا بَحْرًا طَمَا
أَضْحَى بِأَسْرَارِ الغَيْبِ مُحَدَّثًا
فَانظُرْ (مَوَاقِفُهُ) وَحَسْبُكَ أَنَّهَا
اللهِ أَكْبَرُ كَمَّ بِهَا مِنْ آيَةٍ
تَهُ يَا زَمَانَ بِهِ وَطَاوَلْ إِنْ تَشَا
فَهُوَ ابْنُ أَكْرَمِ شَافِعٍ وَمَشْفَعٍ
قَدْ حَازَ أَنْوَاعَ المَعَالِي جَمَلَةً
إِنْ رُمْتَهُ فِي حَلِّ مُشْكَلَةٍ جَلَا

لَيْلٍ وَغُرَّتْهَا كَصَبْحِ زَاهِرِ
بَدْرًا عَلَى غَصَنِ رَطِيبِ نَاصِرِ
أَجْرِيَتْ مِنْهُ عَقِيقَ دَمْعِ هَامِرِ
دَمْعِي وَمَالِي فِي الهَوَى مِنْ نَاصِرِ
مَنْتَ عَلَيَّ وَلَوْ بِطَيْفِ زَائِرِ
طَعَمَ الكَرَى طَيْفَ الغَزَالِ النَافِرِ
حَكَمَ الهَوَى تَاللَّهِ أَعْظَمُ جَائِرِ
يَوْمًا لَكُنْتَ بِهَا أَجَلٌ مَخَاطِرِ
يَا صَاحِ صَاحِ أُسْكِرْتَ بِنَوَاطِرِ
وَتَفَرَّدْتَ بِبَيْدِيعِ حُسْنِ بَاهِرِ
خَطَرْتَ وَإِنْ نَظَرْتَ فَأَخْتُ جَاذِرِ
يَحْلُو المَدِيحُ بِذِكْرِ (عَبْدِ القَادِرِ)
مَسْرَى النِّسَائِمِ فِي رِيَاضِ أَزَاهِرِ
فَدَعَا إِلَى نَهْجِ النَبِيِّ الطَاهِرِ
فِي كَلِّ عِلْمِ بَاطِنٍ أَوْ ظَاهِرِ
يُبْدِي حَقَائِقَهَا بِلَطْفِ أَشَائِرِ
تَرْوِي صَحِيحَ حَدِيثِهِ المَتَوَاتِرِ
قَدْ أَفْصَحَتْ عَنْ كَلِّ مَعْنَى نَادِرِ
نَجْمَ السُّهَى بِمَنَاقِبِ وَمَآثِرِ
وَأَجَلٌ مَذْكَورٍ وَأَشْرَفِ ذَاكِرِ
بِوَرَاثَةِ مَنْ كَابِرٍ عَنْ كَابِرِ
دَرَرَ المَعَانِي فِي أَرْقٍ مَظَاهِرِ

وإذا سألتَ عن السَّماحةِ كَفَّهُ
 ولو اطلَّعتَ عليه في يومِ الوغى
 يا مُفردًا في جمعِ أَشْتاتِ العلا
 لِلَّهِ دَرْكُ سَيِّدًا أوصافُهُ
 إنَّ عُدَّتِ العلماءُ فهو إمامُهُم
 إنَّ الكمالَ بأسرِهِ في أسرِهِ
 سَعَدَتْ بسيرةِ فضيلِهِ أوقائِهِ
 أيامُهُ جُمِعَ وأعيادُ ليا
 مَنْ أُمَّهُ في حاجةٍ يحظى بوقْتِ إجابةٍ ومديدِ فضلٍ وافرٍ
 لا زالَ بدرًا في سماءِ المجدِ مخفوفًا بغيرِ كالنُّجومِ زواهرٍ
 يشدو لسانُ الحالِ فيه مؤرِّخًا ثَمَلَ الوجودُ بسرَّ عبدِ القادرِ

٤١٢ ٢٦٢ ٥٠ ٥٧٠



المفاخرات والمناظرات

(٥)

أبهي مقامة
في المفاخرة بين الغربة والإقامة

تأليف

الشيخ محمد بن محمد المبارك الجزائري الدمشقي

(١٢٦٣هـ - ١٣٣٠هـ)

عني بها

الدكتور محمد حسن الطيان

جامعة الكويت - كلية الآداب

دار البشائر الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبهى مقامة في المفاخرة بين الغربة والإقامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمدك يا من أودع في أصداف الأفكار، دُرَرَ المعارف والأسرار.
فاستخرجت أيدي القريحة منها نفائسَ هاتيك الفرائد، ونظمتها عقودًا
تزدهي بجمالها نحوورَ عرائس الخرائد. ونستهديك أنمي صلوات الصلاة
وتسليم التسليم، إلى حضرة نبيك مظهر الهداية والتعليم، وآله الفائزين منه
بحسن القرب والتكليم.

أمَّا بعد: فاعلم أيها الأديب الأريب، والفظن اللبيب. أنني أدمنتُ
التردد على فرقة من أهل الرقة والأدب، فألفيتهم لاقتناص شوارد المعاني
ينسلون من كل حَدَب^(١) قد نثروا يواقيت المواقيت في عقد الصِّبا، لاقتناء
رقيق معانٍ أرق من نسيم الصِّبا. فظفروا ببديع الفنون وفنون البديع، وسما
قدرهم إلى سماء المجد الرفيع.

فغدوت أجتني من رياض معارفهم العاطرة، أنوارًا زاهرة. وأجتلي
من حياض لطائفهم الناضرة، أسرارًا باهرة. وأُشَنَّف سمعي بلطيف
أحاديثهم التي هي أشهى من العافية إلى العليل، وأحلى من زلال الوصال
لدى صبِّ تأججت في أحشائه نارُ الغليل.

(١) الحَدَب: ما ارتفع وغلظ من الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾

[الأنبياء: ٩٦].

فاقترح عليّ يوماً صديقٌ لي وكان أذكى وأنبه، ممّن أحرز قصباتِ السبق في تلك الحلبّة، أن أنشئ مقامة في المفاخرة بين الغربية والإقامة^(١). مشتملة على محاضرة لطيفة، ومحاورة ظريفة. فهبت البروز إلى هذا المضمّار، دون أن أستعد له بسوابق الأفكار، مخافةً من شامت يمزق عرضي بأسنة الإنكار. وصرت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى متردداً بين التأخر والإقدام، ثم بدا لي أن الامتثال أولى من الأدب وأحرى فقلت: سعيًا على الرأس لا على الأقدام.

وظفقتُ أُجِيل قِداح الأنظار، وأقدح في ذلك زنادَ الأفكار. حتى تمكّنتُ من انتهاز الفرصة مني يدُ الإمكان. فاختلست هذه اللؤلؤة الفريدة من سمط الفصاحة والبيان. وما ذاك إلاّ أنني استجلبت بواسطة الفكرة غريبًا ومقيمًا، واستنطقتُ لسان حالهما فتناظرا كما هو دأبهما حديثًا وقديمًا. وتسابقت خيلهما في تلك الحلبّة، هذا ينتصر للإقامة وذاك ينتصر للغربة. وتقابلا في مجال المفاضلة والمفاخرة، وتقاتلا بنصال المفاضلة والمناظرة.

* * *

فأنشأ يقول الغريب: الحمد لله الوليّ القريب. المنزل في كتابه:
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١]، المجزل نواله لمن قام بأداء النفل والفرض. والصلاة والسّلام على من نبأ عن الله بصحيح الأخبار، وعلى آله السادة وصحبه القادة الأخيار.

وبعد: فإنّ الله تعالى أودع في الغربة أسرارًا عجيبة، وعلومًا غريبة.

(١) طبعت هذه المفاخرة بدمشق سنة ١٢٩٦هـ.

لا يظفر بها إلا من كان عليّ الهمة، يجلو بسنا بصيرته حنادس^(١) كلّ مدلهمة .
[من الطويل]

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر في رأيه غير رمحه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

وقد امتلأت بطون الكتب والأسفار، بدمّ السكون إلى الإقامة ومدح
التغريب والأسفار. وترجمت السنة السنّة عن ذلك منوهة بفضل الغربة
سرًا وجهرًا، مع ما ورد فيها عن علماء الأدباء وأدباء العلماء نظمًا ونثرًا.
قال عليه السلام: «موت الغريب شهادة»، فأعظم بها من منقبة وأكرم بها من
شهادة. وقال عليه السلام قولاً سديدًا: «من مات غريبًا مات شهيدًا». .
وورد عنه: «سافروا تغنموا»، «سافروا تصحوا وتُرزقوا». . إلى غير ذلك
من الأخبار. وإلى هذا المعنى أوما بعضهم في قوله وأشار: [من الكامل]
خاطرُ بنفسك كي تصيبَ غنيمَةً إنَّ الجلوسَ مع العيالِ قبيحُ
وما أرق قول من قال، فأبدع وأجاد في المقال:

[من مجزوء الكامل]

نقل ركابك في الفلا ودع الغواني في القصور
لولا التثقل ما ارتقى دُرُّ البحور إلى الثُحور
ما الماكثون بأرضهم إلا كسُكَّانِ القبور

وقال من حكى في نظمه الباهر، عقود اللآليء والجواهر:

[من الطويل]

تنقل فلذاتُ الهوى في التنقل ورد كل صافٍ لا تقف عند منهل

(١) الحنادس: جمع حنْدَس وهو الظلمة.

ففي الأرض أحبابٌ وفيها منازلٌ فلا تبكِ مِنْ ذكري حبيبٍ ومنزلٍ
ولا تستمع قولَ امرئِ القيسِ إنَّهُ مضلٌّ ومن ذا يهتدي بمضللٍ

وكفاني شاهدًا هجرةً من نزلتُ عليه السكينة، من مكة المشرفة إلى
المدينة. فلو لم تكن الغربية عند الله أفضلَ من الإقامة، ما اختارها لحبيبه
عليه السلام وجعل في غير وطنه مقامه. وفي تخفيف الصلاة عني وإسقاط
الصيام، ما لم تكن لي نيةً في طولِ المُقام، إشارة إلى ما استوجبته بالغربة
من علو المنزلة والمقام.

ثم سطا وصال، وأنشد وقال: [من البسيط]

قالوا نراك كثيرَ السَّيرِ مجتهدًا في الأرض تنزلها طورًا وترتحلُ
فقلتُ لو لم تكن في السَّيرِ فائدةً ما كانت السَّبْعُ في الأبراجِ تنتقلُ

* * *

فلما سمع المقيم هذا المقال، أعرب عن مكنون سرّه وقال:
الحمد لله الذي أحلَّ أحبائه دار المقامة، وجعل الاستقامة علامةً على من
رفع لديه مقامه. والصلاة والسلام على من أسكن أمته مسكن العزّ
والأمان، وعلى آله وصحبه وتابعيهم مدى الدهور والأزمان.

وبعد: فإن الله عزَّ وجلَّ جبل أرباب الفطن، على التعلُّق بحبِّ
الوطن. وجعل ذلك من الإيمان، كما ورد في حديث رواه أهل المعرفة
والإيقان؛ فهو مثنوى العزِّ ومأوى الأمن والراحة، وبه ينال المرء غاية
مطلوبه ونهاية مرغوبه ويجد نشاطه وانسراحه. تحنُّ إليه أفئدة الناس، لما
أودع الله فيه من كمال اللطف والإيناس: [من الكامل]

نقلُ فؤادك حيثُ شئتَ من الهوى ما الحبُّ إلاَّ للحبيبِ الأوَّلِ

كم منزلٍ في الأرضِ يَأْلُفُهُ الفتي وحنيئُهُ أَبَدًا لأوَّلِ منزلِ
وللهِ دُرٌّ من قال من فرسانِ البيانِ، سقى اللهُ ثراه صَيِّبَ الرحمةِ
والرضوانِ: [من الطويل]

بلاذٌ أَلْفَنَاهَا على كُلِّ حالَةٍ
وقد يُؤَلَّفُ الشَّيْءُ الذي ليسَ بِالْحَسَنِ
وتُستعذَّبُ الأرضُ التي لا هَواؤُها
ولا ماؤُها عذِبٌ ولَكِنَّها وَطَنُ

فالإقامة فيه إذا من أعظم الفضل والمِنَّة، وكيف لا وهي من النعيم
الذي أتحف الله به أهل الجنة. كما أن فراقه من أجلِّ الرزايا، وأكبرِ المِحَنِ
والبلايا؛ يوقع المرء في مصائدِ المصائبِ، ويلقيه بين أنيابِ النوى
والنوائبِ. ولهذا كان الصبر على الغربة حميدًا، وقتيلها إن رضي بقضاء
الله شهيدًا. ولكن أين من يقوى على حملِ أعباءِ ما لها من المؤونة، إن لم
يتداركه الله منه بكمالِ اللُطفِ والمعونة؟ ويؤيِّد ذلك قولُ من قال، ممن
ابتلي بهذا الداءِ العضالِ: [من الخفيف]

لَيْتَ شِعْرِي إلى متى أَتَشَكَّى سَفَرًا ما لَهْ وَلو مِتُّ آخِرُ
بَطْنِ ساري الوحوشِ قَبْرِي فما أَبُ رَحُّ في المَوْتِ والحياةِ مَسافِرُ

وليتدبر من كان من أهل العلم والدراية، قوله تعالى:
﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ...﴾ الآية، [النساء: ٦٦]، كيف عطف
خروج القوم من الديار، على قتلهم أنفسهم بيانًا لما في ذلك
من ارتكاب الأخطار. وليرتشف من رحيق التحقيق في علِّه

وَنَهَلِهِ^(١)، بكأس خبير: «السفرُ قطعةٌ من العذاب، فإذا قضى أحدكم نَهْمَتَهُ^(٢) فليُعَجِّلِ الرجوعَ إلى أهله».

وليس في خروج سيّد الوجود، عن محلّ منشئه ووطنه المعهود. دليلٌ مُشعِرٌ بفضل الغربية على الإقامة بحال؛ فإنه من جملة الأذى الذي رماه به أهل الكفر والضلال. وكيف تكون للعاقل رغبة في الغربية، وهي مسكن المسكنة والكربة. شرابها سراب، وديارُ أهلها خراب. فكم أَلقتِ المرءَ في المكاره، فغدا يتمنى الموت وهو للحياة كاره: [من الهزج]

وكم قد رَوَّعَتْ قَلْبًا وسأقتِ نحوهُ حُزْنَا
وملّلت بعد أن مالّت وأذوتُ بالردى غُصْنَا

صاحبها بين الناس من حقير ذليل، يحتاج من قوّة نظره إلى دليل:
[من البسيط]

إنَّ الغريبَ الطويلِ الذليلِ مُمتَهَنٌ فكيفَ حالُ غريبٍ ما لَهُ قوْتُ

قد نَبَتْ^(٣) به ربوعه وأوطانه، وبانت عنه أهله وأخذائه. فأمسى يقاسي أنواع الأهوال والشدائد، ليس له على خطوب دهره مساعفٌ ولا مساعِد. يشكو من حرّ هاجرة الهجر، والبين قد قلب القلب منه على الجمر. هذا وأهل الإقامة في جنّة يتنعمون، فهم في ظلالٍ وعيون، وفواكة مما يشتهون.

(١) النَّهْلُ: الشرب الأول، والعلّ: الشرب الثاني أو متابعة الشرب.

(٢) النَّهْمَةُ: الحاجة.

(٣) من نبا ينبو: لم يستو في مكانه المناسب له.

فتلخّص من هذا أن المقيم في نعيم مقيم، كما أن الغريب في عذاب أليم: [من الوافر]

ولو فازَ الغريبُ بمُلْكِ كسرى ونالَ من العُلا أقصى مرادِهِ
لباتَ وقلْبُهُ في حَرِّ نارٍ لتربةِ أهْلِهِ وهَوَا بلادِهِ

وإن افتخرَ بالرخصة في الصلاة والصيام، توهّمًا منه أنه لمزيد الاعتناء بشأنه والإكرام. فهو في ذلك كمن بحث عن حتفه بظلفه^(١)، وجدع بكفه مارن^(٢) أنفه، وقد قيل في المثل: «لسانُ الجاهل مفتاح حتفه»^(٣). وذلك أنه لما كان أسيرَ الفتور والملل، كثيرَ القصور والخلل. قاصراً عن بلوغ رتبة الكمال، منحرف المزاج عن درجة الاعتدال. عامله الحق تعالى على ضعفه بلطفه ورفقه، وأسقط عنه الصوم مع قصر الصلاة في حقه. وهل ثمَّ شرفٌ أعظمُ من أن يكلفَ السيدُ عبده، ويشغله بحسن القيام بوظائف خدمته مقرّباً عنده؟! فإن زيادة التكليف، تدل على كمال التشريف، و«المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف». وهذا مما يتبادر إلى الأفهام، المقدّسة من شائبة رِقِّ الأوهام.

* * *

فما استتمَّ إيرادَ هذه الجملة، حتى حمل عليه الغريبُ حملةً وأيّ حملة. وقال له: ويليكَ لقد تعاليتَ وتغاليت في دعواك، أما تخشى في

(١) الظَّف: الظفر المشقوق لكل حيوان مجترٍ. ومن أمثالهم «كالباحثة عن حتفها بظلفها». انظر: معجم الأمثال العربية (٩٣/٣).

(٢) مارن الأنف: طرفه، أو ما لان منه.

(٣) لم أجده.

ذلك من عالم سرك ونجواك؟ فالأم تتخذني مرمى همزك ولمزك فيما فيه تفيض، مع أنني من العُلا في الأوج وأنت في الحضيض؟! وعلام تحقرني، ولا توقرنني؟ وتستخفُّ بأمرني، مع عظم قدرتي؟ وحتامَ تعاملني بأنواع الصدود والإعراض، وتسعى في تشتيت ما أرومه من المقاصد والأعراض؟ وتعيّرني بما يتعرّف به إليّ مولاي من عُور المنح في صور المِحن والمصائب، فأقابل منها بدرع التجلّد وتُرْس التصبّر كل سهم صائب. مع أنه شهادة لي بالفضل والكمال، لو كنت ممن يعقل ضرب الأمثال:

ومن البليّة عدلٌ من لا يرعوي عن جهله وخطابُ مَنْ لم يفهم
أما علمت أن ذلك يدل على المقام الأكمل؛ لحديث: «نحن معاشر الأنبياء أشد بلاءً، الأمثل فالأمثل». فإن معاناة الخاصة لأنواع البلايا، سنّة الله قد خلت في البرايا:

لا تحسبِ المجدَ تمرًا أنتَ آكلُهُ لَنْ تَبْلُغَ المجدَ حتّى تَلْعَقَ الصِّبرا
وما وقع ما وقع لأحدِهِم بسببِ اغترابه، ولا يبُعدُه عن أهله وأصحابه بعد اقترابه. وهل لغير الله تأثير بحال أو همّة، في سلب نعمة وجلب نِقمة؟ فاحذر من الوقوع في الغلط، وكن لي على هذا الفضل ممن غبَط. وكيف تستدل لو كنتَ ذا عقل كاملٍ وجنان، على مدح الإقامة بكونها من نعيم أهل الجنان؟ إلّا أنّ تلك لدار القرار، وهذه دار التجاءٍ إلى الله فرار. أم كيف تزعم أنك الآن من النعيم في جنة، ومن شرر شرور الدنيا في وقاية وجنة^(١)؟ كلاً إنّ هذه دعوى بغير بيّنة ولا شاهد، لا يقول

(١) الجُنة: الوقاية والسترّة.

بها من عرف حقيقة هذه المواطن والمعاهد: [من الطويل]

لعمرك ما الدنيا بدار إقامةٍ ولكنّها دارُ انتقالٍ لمن عقلُ
إذا ضحكك أبكت وإن هي أبكت توت وإن أعطت فأياها دوت

نعم ورد أن «الدنيا سجنُ المؤمن وجنة الكافر»، فإن كان هذا
مُناك فأفّ لما أنت به ظافر. ولو نظرت أن الدنيا قنطرة نُصبت للعبور
عليها والمجاز؛ للاح لك وجهُ الحق في الفرق بين الحقيقة والمجاز.
ولطالت منك الهمم وقصرت الآمال، وما سكن قلبك إلى وطن
ولا مال: [من المتقارب]

مجازُ حقيقتها فاعبروا ولا تعمروا هونها تهنُ
فما حُسنُ بيتٍ له زخرفُ تراه إذا زلزلت لم يكنُ

وأنى للنبيه أن يطلب كل ما يشتهي ويروم، وقد جاء في
الأثر: «اخشوشنوا فإنّ الحاضرة لا تدوم»^(١). وهل حسبت أن العلا
يناله أسير الكرى، أو ما قيل: «عند الصّباح يحمد القوم الشرى»؟
ما أراك إلاّ سكنت لنسيم أسحارك وطيب أوقاتك، وكأني بك قد
انقضت مدة ميقاتك. إن هي إلاّ سحابة صيف، أو طروق طيف، أو زيارة
ضيف: [من البسيط]

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدرُ
وسالمتك الليالي فاغترزت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

(١) من أمثال العرب، يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة. مجمع الأمثال
(٣/٢).

ولله در من قال، فنظم دُرَّ المقال : [من البسيط]

في جبهة الدهر سطرٌ لو نظرتَ له أبكاك مضمونه من مقلتيك دَمَا
احذر إذا كانت الأيام مقبلةً من يامن الدهر يوماً قط ما سلماً

واستدلالك على عدم تأهلي لنيل رتب الكمال أصلاً، بما
أكرمني الله به من الرخص منةً منه وفضلاً. قد تعرّضت فيه للوعيد الشديد،
وإن عددت نفسك من أهل التأويل والرأي السديد. ويلزمك عليه أن تثبت
نقصان أجري بيّنة صريحة، مع ردّ ما ورد حائثاً على سلوك سبيلي من
الأحاديث الصحيحة.

وأما استدلالك بحديث الصادق المؤتمن، على مدح حبّ الوطن.
فأقول: أما ما ذهب إليه أهل الإشارة. الفائزون في الدارين بعموم
البشارة، فالمراد به: الوطن الأصلي الذي كتنا فيه في عالم الأرواح، قبل
التشكل في هياكل الصور والأشباح. فإن المؤمن لا يزال متعلقاً به لبقاء
نفسه على طهارتها الأصلية، وإشراف شمس معانيه الروحية، على ظلال
مغانيه الجسمية. ودوام تشوّفه وتشوّقه إليه لما فيه من رفع الحجاب، ولذّة
الإطلاق وحلاوة الخطاب. وعلى هذا المعنى العجيب، فمائمٌ إلاّ
غريب: [من السريع]

لله أوقات تقضت لنا ما كان أحلاها وأنهاها
مرّت فلم يبق لنا بعدها شيء سوى أن نتمناها

وأما إن قلت: إن المراد به مسقط رأس الإنسان، مدّعياً ورود ذلك
عن أرباب العلم والعرفان! قلت: إن جنح إلى هذا أيضاً أهل المعارف
والأسرار، فربما كان دخولهم إلى معنى الحديث من باب «حسنات

الأبرار»^(١). فإنَّ مدح الشيء لا ينافي القدح فيه من جهة أخرى، ورب منحة عند قوم تكون محنة بالنسبة إلى آخرين وكلُّ يأخذ ما هو به أخرى ﴿قَدْ عَلِدَ كُلُّ أُنَاسٍ مِّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]. وذهب كلُّ فريق مذهبهم.

فدع عنك كثرة القيل والقال، وأرض بالحقِّ غير كارهٍ ولا قالٍ^(٢). قانعاً بالسَّلامة فإنها إحدى الغنيمتين، وإلاً انقلبت بصفقة مغبون ورجعت بخُفي حنين. وندمت حيث لا ينفعك التَّدَم، وأيقنت أن ليس لك معي في هذا الميدان قَدَم.

وإن رمتَ البيان وقلت: ليس الخبرُ كالعيان^(٣)! فعند الامتحان يُكرم المرءُ أو يُهان^(٤). ثم ترنمٌ منشداً، وقال مستشهداً: [من الرمل]

حُبُّكَ الأوطانَ عجزٌ ظاهرٌ فاغتربْ تَلَقَّ عن الأهلِ بَدَلْ
فبمكثِ الماءِ يبقى آسناً وسُرى البدرِ بهِ البدرُ أكتمَلْ

* * *

وبعد ما فرغ من إنشائه وإنشاده، تصفَّح المقيم ما أبداه مع حسن استشهاده. فأضحى تارةً يحمرُّ وجهه خجلاً، وآونةً يصفّرُ فرقاً ووجلاً.

-
- (١) يريد: المقولة المشهورة: «حسنات الأبرار سيئات المقربين».
- (٢) القالي: المبغض، من قلى يقلي إذا أبغض، قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.
- (٣) من أمثالهم، ويروى: «ليس الخبر كالمعاني»، قال المفضل: يروى أن رسول الله ﷺ أول من قاله. مجمع الأمثال (١٨٢/٢)، وانظر معجم الأمثال العربية (٢٦١/٣).
- (٤) من أمثالهم، مجمع الأمثال (٣٧/٢).

وما كان إلا أقرب من لمح البصر مدى، وأسرع من إجابة الصدى للندا. حتى نهض كأنما نشط من عقال^(١)، وجال في مجال البراز والنزال. وطفق يرشقه بسهام الملام والتأنيب، ويرمقه بطرفه شزرا، قائلاً له: أعرض عن هذا أيها الغريب ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]. كم تحمّلتُ ضرّك وأذاك، وتجمّلتُ بصبري على عنّاك في بلوغ منّاك. حتى رميتني بالكفر والزندقة، فيما تفوّهت به من الشَّقْشَقَةِ واللَّقْلَقَةِ^(٢)؛ وبعد هذا تزعم أنني جفوتك آذيتك، مع أنني طالما قربتك إلى حضرتي وآويتك. ولو انتهجت المحجة الواضحة والطريقة المثلى، لاعترفت أن اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى. فعليك بالأتّصاف بجميل الإنصاف، والتخلّص من سُؤم هذه الأوصاف: [من السريع]

كُنْ مَنْصَفًا وَأَسْلُكُ سَبِيلَ التَّقَى فَاَلْبَغْيُ لَيْلٌ جَنَحُهُ مَظْلِمٌ
وَاجْتَنِبِ الظُّلْمَ وَلَا تَأْتِهِ وَاللَّهِ لَا يَفْلَحُ مَنْ يَظْلِمُ

وقد أشرت إلى بعض أسرار أهل المواجيد والأشواق، ومتى شاركتهم في الحصول على تلك العلوم والأذواق؟! أراك تخبط خبط عشوا، وتجعلُ اللهُوَّ في مسارح البطالة هو الغاية القصوى. وأدّعت أنك أرتويت من عين المنح والمنن، لتتجرأ بذلك على صرف الحديث عن ظاهره توصلًا إلى ذمّ حبّ الوطن!! وزعمت أنك تركته نظرًا وزهدًا، وتجلّدت على لسع النحل لتجني بالصبر عسلًا وشهدًا!! ما هذا منك إلا

(١) العقال: الرباط الذي يُعقل به.

(٢) الشَّقْشَقَةُ: الهذر، شقشق الفحمل شقشقة إذا هدر. واللَّقْلَقَةُ: شدة الصوت والجلبة.

محضُ افتراء، وتفترنُ في فنون أساليب الجدال والمراء. فهلاً صبوت^(١)
في قولك صوبَ الصواب، وتأسيت بمن قال من أهل الاغتراب:

[من المنسرح]

أطالَ بينَ الدِّيارِ ترحالي قصورُ مالي وطولُ آمالي
إنْ بئْتُ في بلدةٍ مشيتُ إلى أخرى فما تستقرُّ أجمالي
كأنني فكرةُ المُوسوسِ ما تبقى مدى ساعةٍ على حالِ

وهب أنك من أهل التجلّد والصبر، فأين أنت من مقام الرضى
والشكر؟ فشتان ما بيني وبينك، فلا تموّه بزخرفتك زُورك ومينك^(٢). وهل
يتأتى أن يترك المرءُ أوطانه وأهله، ويخلع خلعَ عزّه لابساً للغربة ملابس
الفقرِ والذلة؟! إلا لمزعج شديد يبعثه على ذلك رَغماً على أنفه، ويقضي
عليه مفارقةً حبه ومباعدةً إلفه. فيتشتت شمله بمن كانوا إلى المنى أدنى
الوسائط والوسائل، ويتمثل بقول القائل، ودمعه على الخدود منهملٌ
وسائل:

لولا الضروراتُ ما فارتقنكم أبداً ولا تنقلتُ من ناسٍ إلى ناسٍ
وينشدهم عند الوداع، وغراب البينِ عليه ناعقٌ وناع: [من الوافر]

أودّعُكم وأودّعُكم جناني وأنثرُ أدمعاً مثلَ الجمانِ
فلو نُعطى الخيَارَ لما افترقنا ولكنْ لا خيارَ مع الزمانِ
فيحصل في الغربة، على كلِّ ضيق وكربة. يُعاين أنواع التعب

(١) أي: ملت، من صبا يصبو.

(٢) الزُّور: الكذب والباطل. والمين: الكذب.

والشقاء، ويعاني شدة الوحشة بعد أنس القرب واللقاء. لغته تصير من قبيل الشواذ، وربما انتبذت في زوايا الإهمال أي انتبذ. وهو مطرود عن الأبواب ممقوت، يقنع بعد الملابس البهيّة والمآكل الشهية بالشثرة والقوت. إذا مرض لا يُعاد، وإن مات فهو للوحوش زاد. قد سطا عليه الدهر وصال، وجرّعه مرارة النوى بعد أن ذاق حلاوة الوصال:

[من الكامل]

إنَّ الغريبَ لَهُ مخافةٌ سارقٍ وخضوعٌ مديونٍ وذِلَّةٌ وامقٍ
وإذا تذكَّرَ أهلَهُ وبلادَهُ ففؤادُهُ كجناحِ طيرٍ خافقٍ

وليت شعري هل تستوي لذة المنادمة مع الأحبة بما رقّ وراق، ولوعة من أضحى يتقلّى بنار البعد والفراق؟! هيهات هيهات! إن لذة الأنس بالأحباب، لا تقاس بمقاساة ألم البين عند أولي الألباب، بل لا لذة في الدنيا سواها، فلا ينبغي أن يخرج من تحت لواها: [من الطويل]

عليك بإخوان الصفاء فإنهم عمادٌ إذا استنجذتهم وظهورُ
وإن قليلاً ألف خِلٌ وصاحبٍ وإنَّ عدواً واحداً لكثيرُ

وما أحسن قول من قال فأجاد، وأفاد بما شهد له مضمار الأدب

بطول التجاد: [من الكامل]

ثنتان لو بكتِ الدماءَ عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهابِ
لم يقضيا المعشَرَ من حقيهما فقدُ الشبابِ وفُرقةُ الأحبابِ

اللهم إلا إذا ألجا الأمر إلى ذلك، فيضطر المرء حينئذ إلى سلوك

مَضيقِ تلك المسالك: [من الطويل]

إذا لم تُكُنْ إلاَّ الأسنَّةُ مركبًا فما يسعَ المضطَّرُّ إلاَّ ركوبُها

وقال بعضهم يصف حاله عند الوداع، فأبدع في ذلك غاية الإبداع:

[من الطويل]

ولمّا التقينا للفراق عَشِيَّةً وطرّفي وقلبي دامعٌ وخَفُوقُ
بَكَيْتُ فأضحكتُ الوُشَاةَ شَمَاتَةً كَأَنِّي سحابٌ والوُشَاةُ بُرُوقُ

فأذعنُ للحقّ أيها الغريب، ولا تك منه في شكّ مُريب. فإنني بك
بصير، ولا يَنبُتُكُ مثلُ خبير. وهذه بتلك والبادي أظلم، ومن أصرّ على
بغيه فَنَيَّرُ ليلِهِ قد أظلم.

* * *

فحدّق الغريب عند ذلك وحملتق، ورفع رأسه بعد أن أطرق. وبدت
على وجهه علائمُ الغُضَبِ، وهمّ أن يُذيقَهُ من البأس كأس العَطَبِ. ووقف
على أقدام إقدامه، ناشراً في حَوْمَةِ ميدانِهِ أعلامَ إعلامه.

فاشتعلت بينهما نارُ النزاعِ والشُّقَاقِ، وقامت حربُ الجِلاَدِ^(١)
والجِدالِ على ساق. وجال كلُّ منهما في ذلك المجال وسطاً^(٢) وصال
بنصال النُّضالِ.

ثم قال الغريب للمقيم: اعلم يا ذا الذهن العقيم، أن الحُكْمَ على
الشيء فرغ عن تصوّره فِكْراً، وكيف تحكّم على ما لم تُحِطْ به خُبْراً؟! فإن
من جهل شيئاً عاداه، وفقد التمييز فيه بين ضلاله وهُداه. وإنني قد عَلِمْتُ
المشربّين، وتفقّهتُ في المذهبيّين. فوجدت بينهما بوناً كبيراً، وفرقاً

(١) الجلاَد: الضرب بالسيف في القتال.

(٢) تطاول وصال، والسَطْو: القهر بالبطش.

كثيرًا. وألفت الغربية قد انفردت بكل مزية، وغدت لأهل اللطف والأدب خير مطية. فكم وكم حصل في الغربية، من انجلاء الهم والكربة. وطابت الأوقات، وساعت الأوقات. وتهذبت أخلاق من ليس له في الأدب من خلاق، وفاز بالغنى من كان يشكو دهره من الإملاق: [من الكامل]

وإذا عليك الرزق ضاق ببلدةٍ وخشيت فيها أن يضيق المكسبُ
فارحل فأرض الله واسعة الفضا طولاً وعرضاً شرقها والمغربُ

فهي من أعظم الأسباب التي تجلو الضيق والحرَج، وتهدى أرواح أدواحها نشر البشر وأرج الفرج. حسان معانيها في خيامها مقصورة، لا يحظى بها إلا من ترك قصوره.

وبالجملة فلا يجنح إلى الأوطان إلا من سكن إلى راحة نفسه، واغترَّ بأنس أوقاته وأوقات أنسه. وبعُدت عليه المسافة وطالت الشقة، وما درى أن الثواب على قدر المشقة. وإن بذر الراحة والتوان^(١)، لا يُنتج إلا ثمار المذلة والهوان. وليته شعر بقول الشاعر، المومي إلى ذلك بالطف الأشائر^(٢): [من السريع]

دع الهوينا وانتصب وكتسب واكدح فنفس المرء كداحة
وكن عن الراحة في معزلٍ فالصنع موجود مع الراحة

وما دام مشفقاً على تلاف مهجته، ولم يَغص في يمّ الاغتراب ولجته. فليس يظفر بفرائد الفوائد والمسائل، وإن قيل إن السلامة

(١) التوان: التواني وهو التقصير والفتور. حذف الياء للسجع.

(٢) جمع إشارة، ولم أقف عليه فيما يدي من معجمات العربية.

في الساحل:

[من البسيط]

حُبُّ السَّلامَةِ يثني عزمَ صاحِبِهِ عن المعالي ويُغري المرءَ بالكسَلِ
فإن جَنَحْتَ إليه فاتخذُ نَفَقًا في الأرضِ أو سُلَّمًا في الجوّ فاعْتزِلِ

وأما من كان مطمح نظره الرفيق الأعلى، والفريق الطالب من كل
كمال نفسه وأعلى. فإنه لا يختار الراحة على التعب، ما دام في دار
التكليف والنَّصَب. يقول بلسان حاله، في حالة نزوله وارتحاله:

[من الوافر]

أرومُ من المعالي مُنتهاها ولا أرضى بمنزلةٍ دَنَيْتَهُ
فإمَّا نَيْلُ غَايَةٍ ما أَرَجَّي وإمَّا أن تصادفني منيَّتَهُ

يعانق المشاقَّ والأهوال، في كل حال من الأحوال. ويؤثر ما يورثُ
المجدَّ والسؤدد، ولو أتلف فيه نفسه وأجهد:

[من الخفيف]

وإذا كانتِ النفوسُ كبارًا تعبتُ في مُرادِها الأجسامُ
فتراه في دهره بين صادر ووارد، قد ورد بسامي همته أعذب

الموارد، لا تطمئن به دار، وليس له دون مطلوبه قرار:

[من البسيط]

يومًا بحزوى ويومًا بالعقيق وبالـ عذيبٍ يومًا ويومًا بالخليصاء

لا يقيده وطنٌ ولا قريب، ولا يلتقي به واش ولا رقيب. بل أينما
انشراحُه وانبساطه، أناخ راحلته ومدَّ بساطه. ملقيًا هنالك عصا التسيار
والتَّرحال، مصغيًا لما غدا يترنم به قائلًا لسان الحال:

[من البسيط]

ومجلسٍ راقٍ من واشٍ يكدرُهُ ومِنْ رقيبٍ لَهُ باللَّومِ إيلاهُ
ما فيه ساعٍ سوى الساقِي وليسَ بِهِ بين النَّدامى سوى النَّمَامِ نَمَامُ

فيشاهدُ العجائبَ والغرائب، ويكسب التجارب ويجلب المكاسب. ويزيده ذلك علمًا بقدرة الله وحكمته، ويدعوه إلى شكر فضله ونعمته. فإن قلت: قد يفوته بذلك إدراك العلوم والمعارف، والاطلاع على بديع الأسرار واللطائف! قلت: كلاً وحاشا إنه الجدير بأن يحصل منها على الحظِّ الأوفر، كيف لا وقد قال من ضاع^(١) عَرَفُ^(٢) معارفه كالمسك الأذفر: [من الطويل]

تَعَرَّبَ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلَا وَسَافِرٌ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَجْتَبُ هَمٌّ وَأَكْتَسَابُ مَعِيشَةٍ وَعِلْمٌ وَأَدَابٌ وَصُحْبَةٌ مَاجِدِ

فإن من سلك هذا المسلك من السادة الأبرار، انكشف لهم أسرار العلوم وعلوم الأسرار. لازموا طول زمانهم السياحة والغربة، فشرّبوا من دن^(٣) الوصلة والقربة. غضّوا أبصارهم عن زُخرف هذه الدار، لعلمهم أنها ليس لها عند الحبيب مقدار. ثم نظروا إليها بعين التدبُّر والاعتبار، لمعرفة أنهم موطن ابتلاء واختبار. فهم المنعوتون بأولي الألباب، الذين خرقوا بسوابق هممهم أسوار الأسباب: [من الكامل]

قَوْمٌ بِهِمْ شَرُفُ الزَّمَانِ كَلَامُهُمْ شَرَكُ الْعُقُولِ وَعُقَلَةُ الْأَحْدَاقِ
أَشْخَاصُهُمْ فَنِيَتْ وَلَكِنْ ذِكْرُهُمْ أَبَدًا عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي بَاقِي

وغدوت تدعى الخصوصية بانتظام شملك بالأصدقاء والأحباب، أو ما بلغك أنها آية منسوخ حكمها عند أولي الألباب؟! إن ذلك لشيء

(١) ضاع المسلك وتضوع وتضيّع: تحرك فانتشرت رائحته.

(٢) العرف: الرائحة مطلقاً، وأكثر ما يستعمل في الطيبة منها.

(٣) الدن: وعاء ضخم للخمر ونحوها.

طويت صُحُفُهُ وجفَّتْ أعلامه، وخبَّتْ نارُهُ وتنكَّستْ أعلامُهُ: [من البسيط]
أينَ الخليلُ الذي يُرضيكَ باطنُهُ مع الخطوبِ كما يرضيكَ ظاهرُهُ
ولعمري إنك لو اطلعت عليهم لوَّيت منهم فرازًا، ولما وجدت في
قلوبهم تعظيمًا لك ولا وقارًا: [من الطويل]

وزَهَّدني في النَّاسِ معرفتي بِهِمْ
وطولُ اختباري صاحبًا بعدَ صاحبٍ
فلم تُرنِي الأيامُ خِلاً تُسرُّني
مبادئه إلاَّ ساءَني في العواقبِ

فكم ممَّن يدَّعي المحبة، وما في خزانة سرِّه من بُرٍّ^(١) البرِّ حَبَّة. وكم
ممن يظهر كمالَ الوداد، وهو من أعدى الأعداء والحساد: [من البسيط]
كم من صديقٍ غدا يُرضيكَ جانبُهُ لينا ولكِنَّهُ في اللسعِ ثعبانُ
يسقيكَ ظاهرُهُ شهيدًا وباطنُهُ سُمًّا ففسي فيه ماءٌ ويرانُ

وقد قال من حلَّى بدررِ غرره جيدَ البلاغة والبيان، وشتَّف بأقراطه
الجوهرية منَّا المسامع والآذان: [من البسيط]

أعدى عدوك أدنى من وثقتَ به فحاذر النَّاسَ واصحبهم على دَخَلٍ^(٢)
فإنما رجلُ الدنيا وواحدُها مَنْ لا يعوُّلُ في الدنيا على رجلٍ
وما أظرفَ قولَ القائل:

إيَّاكَ تغتَرَّ أو تخدَعُكَ بارقةٌ
مَنْ ذِي خِدَاعٍ يُرِي بشرًا وألطفًا

(١) البرُّ: القمح

(٢) الدَّخَلُ: الريبة.

فلو بلوتَ جميعَ الناسِ قاطبةً
وسِرَّتَ في الأرضِ أوساطًا وأطرافًا
لم تلقَ فيها صديقًا صادقًا أبدًا
ولا أخًا يبذلُ الإنصافَ إن صافى

وقال غيره وأجاد: [من الوافر]

سمعنا بالصديقِ ولا نراهُ
وأحسبُه مُحالًا نمقُوهُ
على التحقيقِ يوجدُ في الأنامِ
على وجهِ المجازِ من الكلامِ

وقال الآخر وأفاد: [من الكامل]

لمَّا رأيتُ بني الزمانِ وما بهم
أيقنتُ أنَّ المستحيلَ ثلاثةُ
خِلٌّ وفيَّ للشدائدِ أصطفي
الغولُ والعنقاءُ والخِلُّ الوفي

ولكن من لم يكن له من نفسه واعظ، فهيهات أن تؤثر فيه الزواجر
والمواعظ. ومن لم يكتف بالتلميح والإشارة، سمع ما لا يطيقه بصريح
العبارة. ثم جعل يتبخر في مقامه، ويترنم ببديع نظامه: [من الكامل]

سِرُّ طالبًا غاياتها إمَّا تُرى
لا تُخِلِدَنَّ إلى المقامِ فإنَّما
فوقَ الثريا أو تُرى تحتَ الثرى
سيرُ الهلالِ قضى له أن يُقَمِّرا
لا تبكِ دارًا فالفتى من إن دعا
دمعًا عصاه وإن دعا دم^(١) جرى
أين الكناسُ من العرين^(٢) وأين غُرُّ

لان اللوى في المجد من أسدِ الشرى

(١) في الأصل: دمًا، ولا يصح.

(٢) الكناس: بيت الظباء، والعرين: بيت الأسود.

لو ينتج الوطنُ العُلا ما سارَ عَن
ولو استتمَّ بمكةٍ لمحمَّدٍ ما رامَ لم ينصبَ بيثربَ منبرا
غُمدان^(١) سيِّدُ حميرٍ مُستنصرا

* * *

فأجابه المقيم قائلاً بصوت حزين: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ
فَيَسَّ الْقَرَيْنِ﴾ [الزخرف: ٣٨].

كيف جنحتَ للظلم مع أن مرتعه وخيم، وأثبتت في كلامك نقصي
وقدري عند الله فخيم؟ ولكنَّ المؤمن مرآةُ أخيه، وكلُّ إناء يرشح بما فيه. أما
علمت أن الإقامة في هذه الدار، دليلٌ على السكون تحت مجاري الأقدار؟
كما أن الهيمان^(٢) في كل واد، دليلٌ على عدم إشراق أنوار اليقين في الفؤاد.

وبالجملة والتفصيل، فما أنصفت في التفضيل. وما أعليت رتبة من
ظعن على من قطن، وأغليت قيمة من تغرب على من لازم الوطن. إلاَّ
تجاهلاً منك أو جهلاً، وتحكُّماً في أمر لست له أهلاً.

أما عرفت أن الوطن دار، بها فلك السُّعود قد دار؟ منيعة المصادر
والموارد، وسيدة المعالم والمعاهد. لياليها بالأنس والسنا مقمرة،
وأفنانها بفتون الهنا مثمرة. يلوح زهبي بشرها على صفحاتها، ويفوح بهي
نشرها وشذي نفعاتها. قد مدَّت على أبنائها وارف ظلَّها، وحبَّتهم وافرَ
وبلها وظلَّها^(٣). وجادت لهم بجياد الفخر والعزِّ، وخلعت عليهم خلعاً

(١) غُمدان: كعثمان قصر مشهور من مضارب الأمثال باليمن.

(٢) الهيمان: مصدر هام يهيم: خرج على وجهه في الأرض لا يدري أين يتوجه.

(٣) الوَبَل: المطر الشديد. والظَلُّ: المطر الخفيف، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِيبْهَا
وَأَيْلُ فَطَلَّ﴾.

أبهى من الحرير والخزّ. فيها يعرف مقدارهم، ويرفع في العلا منارهم. وينمو مالهم، ويسمو كمالهم. تفتح لهم أبواب الفضل والإنعام، كمودّة القربى ومواصلة الأرحام. وتدير لهم من راح الأفراح، ما يجلو عنهم جميع الهموم والأتراح. فكم اجتلوا على صفاها أقداح الصّفاء والهنا، واقتنوا من ثراها أنواع الثراء والغنى.

وقد زعمت أنّك جرّبت الحالتين: الغربة والإقامة، فوجدت الأولى أولى فضلاً واستقامة. وما أراك تروم إلاّ إغوائي بذلك وإغرائي، متوهماً أنّي أنسخ بمتشابه أقوالك محكم آرائي. كيف أترك قرابة وأهلاً، وحيّاً يحييني بلسان حاله: مرحباً وأهلاً؟! وأرضى بصحبة من لا يعرف منّي الفرع ولا الأصل، ولا يعطف عليّ إن واددته بحسن القرب والوصل؟!]

[من الطويل]

يفارقني من لا أطيعُ فراقه وَيُصْحَبُنِي فِي النَّاسِ مِنْ لَا أُرِيدُهُ
وأشتري الوحشة والإفلاس، بكمال الغنى والإيناس؟! وقد بلغت أوطاري في أوطاني، وقرّت عيني بما خوّلني فيها مولاي وأولاني. ومن قوة جهلك، وقلة عقلك. اعتقادك أن الفضل على نفسك مقصور، وفي أمثالك من أبناء جنسك محصور! ولقد ضيّقت واسعاً بكثافة فهمك وعدم لطفك، ويأبى الله إلاّ أن يُنمّ نوره رغماً على أنفك.

أما علمت أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ويختصُّ به من خلق مفضولاً على التوحيد ونشأ؟ لا يدركه أحد بحاله ولا بهمته، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ﴾ [يونس: ٥٨]. ليس مستقرّاً في محل فيقصد، ولا في ذروة جبل فيرقى إليه ويصعد. ما كان لك سوف يأتيك على ضعفك، وما لم يكن لك لن تناله بقوتك.

وفي هذا القدر كفاية للنبي الأريب، فانتبه من سكرة غفلتك أيها
الغريب. وارجع إلى محلّ احترامك واحتشامك، فإن الذي تطلبه تركته في
مقامك.

* * *

فلمّا سمع الغريب مقالته ووعاها، وسرت في أوصاله حميّاها^(١).
أقامه فرط انزعاجه وأقعد، ونظر إليه نظر ازدراء وأنشد: [من الطويل]
لقد هزلت حتّى بدا من هزالها كُلاها وحتّى سَامها كُلُّ مُفلسٍ
ثمّ قال له: ما أنت عندي في إعجابك بحالك، واستحسانك ثوب
دناءتك الحالك. إلّا كما قال بعضُ الحكماء: «استُ في الماء وأنفٌ في
السماء»؛ لو كنت عاقلاً لمقتّ حالك مفضّلة ومجملة، ولكن قيل في
المثل: «استراح من لا عقل له»^(٢): [من المتقارب]

ومن جهلتُ نفسهُ قدرهُ رأى غيرهُ منه ما لا يُرى
وهل للإنسان أن يجنح إلى الكسل اعتماداً على السابقة؟ كلا إن
ذلك دليلٌ على همّته الدنيئة ونفسه الآبقة: [من الطويل]

على المرء أن يسعى لما فيه نفعهُ وليسَ عليه أن يساعدهُ الدهرُ
كم ذا أحدّثك بما منحتهُ من الأخلاق الجميلة. والخصال الحميدة
والخلال الجليلة. وأنت تنافسني تارة بنموّ مالك في حزنك وسهلك،

(١) حُميّا كل شيء: شدته وحدته.

(٢) من أمثالهم، يضرب للجاهل لا يفكر في شيء فيهتم. جمهرة الأمثال للعسكري
(١/١٤٧)، وانظر معجم الأمثال العربية (٣/١٩٥).

وآونةً باجتماعِ شملك بقرابتك وأهلك : [من الطويل]

وما المأل والأهلون إلا ودائعُ ولا بدَّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ

وطوراً تباهيني براحة ذاتك، وحصولك على سائر شهواتك
ولذاتك . إن هذا لعمر الله لأمرٌ عجيب، ونبأٌ غريب : [من الكامل]

سارت مشرقةً وسرت مغرباً شتانَ بينَ مشرقٍ ومغربٍ

وهل توهمت أنني في ظعني وسيري، آكل من رزق غيري؟
أوفقدت في ذلك الألفة، ووجدت كل التعب والكلفة . وحرمت لذة
المنادمة والأنس، في مخالطتي لجميع الإنس . كلاً إن الهموم لا تطرقُ
ساحة راحتي ولا الأكدار، أينما نزلتُ بي مطايا الأقدار : [من البسيط]

مَن كان مثلي فالدنيا له وطنٌ وكلُّ قومٍ غدا فيهم عشائره

وما أحسن قول من قال، وأصدق منه المقال : [من الطويل]

إذا كان أصلي من ترابٍ فكلُّها بلادِي وكلُّ العالمينَ أقاربي

وإذا مسني في بلدة ظلم أو جور، من أهل البغي والفجور . بنتُ
عنها راحلاً، راکباً كنت أو راجلاً : [من الوافر]

وما ربعُ القطيعةِ لي بربعٍ ولا نادي الأذى منِّي بنادي

وما أطف قول القائل : [من البسيط]

لا يجلسُ المرءُ في أرض يُهانُ بها إلا من العجزِ أو من قلةِ الحيلِ

وإن رأيت من صديق لي ما أكرهه، واريتهُ في لحدِ التناسي وعظمتُ

لقلبي فيه أجره. ولم أك الدهرَ عنه سائلا، دون أن يتخذ إليَّ للقرب
وسائلا: [من المنسرح]

إذا صديقٌ أنكرتُ جانبَه لم تعيني في فراقه الحيلُ
في سعة الخافقين مضطربٌ وفي بلادٍ من أختها بدلُ

وإذا زعمت الاختصاصَ بفضيلة صلة أرحامك، فأنتى لك أن تأمن
مني في نزاعك عليها وزحامك. ومع هذا فربما لا يقوم أداء هذه الحقوق،
بما يرتكبه أمثاله من سوء العقوق. كيف وقد قيل «الأقارب كالعقارب»،
فهل يسوغ للبيب أن يدنو منهم أو يقارب؟! «ربَّ أخٍ لم تلده أمك»^(١)،
وشقيق كان منه شقاقك وهمك: [من البسيط]

لا يمتنعك خفض العيش في دعة نزوع نفسٍ إلى أهلٍ وأوطانٍ
تلقى بكل بلادٍ قد حللت بها أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيرانٍ

وإن ادّعت أن في الإقامة يسمو قدر المرء وشانه، وينمو عزه
ويعظم سلطانه. فقد عظمت بذلك الفرية، ونسبت الشيء إلى غير أهله
دون مزية: [من البسيط]

إنَّ العُلا حَدَّثَنِي وهي صادقةٌ فيما تحدتُ أن العزَّ في النقلِ
لو كان في شرفِ المأوى بلوغٌ مني لم تبرح الشمسُ يوماً دارةَ الحملِ

ولله در من قال، فأبدع في المقال: [من مجزوء الرجز]

إن كنتُ تبغني وطنًا من العُلا فاغترِبِ

(١) من أمثالهم يضرب في إعانة الرجل صاحبه حتى كأنه أخوه، جمهرة الأمثال
(٤٨١/١)، ومعجم الأمثال العربية (٤٦/١).

فالسُّمُرُ فِي غَابَاتِهَا مَعْدُودَةٌ فِي الْقَضَبِ
وَالشَّمْسُ لَا تُرْقَبُ فِي الْـ مَشْرِقٍ لَوْلَمْ تَغْرِبِ

ومن غرر الأقوال، المشحونة بفنون الحكم وضرب المثال:

[من البسيط]

مَا فِي الْمَقَامِ لَدِي عَقْلٍ وَذِي أَدبٍ مِنْ مَطْلَبٍ فَدَعِ الْأَوْطَانَ وَاغْتَرِبِ
لَمْ يَشْرُفِ الدَّرُّ لَوْلَا هَجْرُ مَوْطِنِهِ وَالبَدْرُ مَا تَمَّ حَتَّى جَدَّ فِي الطَّلَبِ
وَالْأَسَدُ لَوْلَا فِرَاقِ الْغَابِ مَا افْتَرَسَتْ

وَالسَّهْمُ لَوْلَا فِرَاقُ الْقَوْسِ لَمْ يُصِبِ
وَالتَّبْرُ كالتَّربِ مَلَقَى فِي مَعَادِنِهِ وَالعُودُ فِي أَرْضِهِ نَوْعٌ مِنَ الحَطَبِ
فَإِنْ تَغَرَّبَ هَذَا عَزَّ مَطْلَبُهُ وَإِنْ تَغَرَّبَ ذَاكَ بِيَعِ بِالدَّهَبِ

على أن أهل الغربية من أرباب العقول، المتضلعين من علمي
المنقول والمعقول، تألف نفوسهم الخمول. وتأنف من الشهرة والظهور،
لعلمهم بما يتحمل صاحبها من الأثقال التي تقصم الظهر. فهم الذين
لا يريدون علواً في الأرض، الوجلة قلوبهم من هول يوم العرض:

[من الطويل]

أُولَئِكَ أَبَائِي فَجِئَنِي بِمِثْلِهِمْ إِذَا جَمَعْتَنَا يَا جَرِيرَ الْمُحَافِلِ

يبدل أحدهم في الله ماله وجاهه؛ ليكون له بذلك عنده وجاهه.
وينظر فيما يتوجه على طالب الشهرة من المقت والملامة، فيفر من ذلك
طلباً للعافية والسلامة:

لَقَدْ رَضِيَتْ هَمَّتِي بِالْخُمُولِ وَلَمْ تَرْضَ بِالرُّتَبِ الْعَالِيَةِ
وَمَا جِهَلْتُ طَيِّبَ طَعْمِ الْعُلَا وَلَكِنَّهَا تَطْلُبُ الْعَافِيَةَ

وربما ذاق بعضهم اللذة في الذلّة، ووجد الكثرة في القلّة. وعزفت
نفسه عن ورود أبهى المحافل والمجالس، مذ عرفت من هو أكرم مؤانس
ومجالس. أو يُزري بمثل هذا عدم انتشار صيته بين الخلائق، وانقطاع
المناسبات بينه وبينهم والعلائق؟! : [من المجتث]

ليسَ الخـمـولُ بـعـارٍ على امرئٍ ذي جلالٍ
فليلهُ القـدرُ تخفَى وتلك خيرُ الليالي

أم يعيبه عدم ترفّعه في طعامه وترفّعه في لباسه؟ كلاً إنه لدليلٌ على
قوة تجلّده وشدة باسه. وهل يحصل الفوز في الدار الآخرة، باجتناء
المطاعم اللذيذة وإنشاء الملابس الفاخرة؟! [من البسيط]

لا تنظرنَّ إلى ثوبٍ على رَجُلٍ وانظرْ إلى ما حوى من علمٍ أو أدبٍ
فالعُودُ لو لم تَفُحْ منه روائحهُ ما فرّق الناسُ بين العودِ والحطَبِ

ولو رمّت مدّ أطناب الإطناب في فضاء فضائلي، لأوردت لك في
ذلك ما يشفي الغليل من دلاء دلائلي. وفتحت لك باباً ما لك به من طاقة،
ولا قدر عليه من هو مثلك ولا أطاقه. وقد نصحت لك إن سمعت قولي،
وإلى الله أتبرأ من قوّتي وحولي.

* * *

فتكلّم المقيم بعد أن سكت طويلاً وقال: أما علمت أيها المخادع
المحتال، أن الله لا يحبّ الفخور المختال؟ كيف شهدت لنفسك بالكمال،
وهذا غير مسلم؟! أين أنت من آية ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ﴾ [النجم:
٣٣]. قد رفضت كلامي ظهرياً، واتخذتني هزواً وسخرياً. أما أنذرك
القرآن بلسان التوبيخ واللوم، في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ

قَوْمٍ؟ [الحجرات: ١١]. وجنيت عليّ لتحدّثني بنعم الله بسوء شتمك
وسبّك، وكأنك ما طرقت سمعك آية: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ [الضحى: ١١].

كيف تهتك بسنان^(١) لسانك ثوبَ عرضي، وتفتك بي وأنت في
حيّي وأرضي؟ مع أن لك عندي حسن ذمة وحرمة، وما قلت ما قلته تشفياً
ولكن رأفة بك ورحمة.

ولست أرى هذا التطاول على بعضنا والاعتداء، ينتج لنا سوى إساءة
الأحبابِ وشماتة الأعداء. وهيهات أن يسلم أحدنا للآخر في الفضل، إلّا
بحكم حكم عدل في القول والفصل. وأنتى لنا به في زمن عاد فيه الإسلام
غريباً، بعد أن كان مقيماً في أوطانه وإلى النفوس حبيباً؟! وإن كانت
الأمّة لا تخلو من أمام ظاهر على الحق، يؤتي كلّ أحد بأمر مولاه ما
استوجبه واستحقّ. وحبذا ذاك إن عثرنا عليه، وجذبنا أعنة العناية إليه.
فإن وافقتني على ابتغائه، فهلمّ بنا إلى الجدّ في طلب لقائه.

* * *

فأجابه إلى ذلك موافقاً، وعزم أن يكون في السير مرافقاً، بعد أن
عنّفه على ما ارتكبه في كلامه، وهدّده عن العود إلى مثله مدى أيامه.

وبينا هما في الحديث ورد عليهما شيخ كبير، تقضي له الفراسةُ بأنه
عارف بأحوال الزمان خبير. يخطر في كمال الأبهة والعظمة والجلال،
وتلوح على وجهه لوائح الفضل والكمال. فحيّاً بتحّيّه وسلامه، وأنس
بحدِيثه وكلامه. فاستبشرا بحصول المنى والوטר، بعد أن أنعما فيه النظر.
وطلباً أن يكون في هذا الأمر حكماً، ويمنحهما من لطائفه أسراراً وحكماً.

(١) السنان: نصل الرمح.

﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ [ص: ٢٢]،
وأول منا رتبة الفضل مَنْ تَاهَلَ لها واستحقَّ. وأعلمنا: هل الغربة أفضل أم
الإقامة؟ حتى يعرف كلُّ منا منزلته ومُقامه.

فامتنع من ذلك وطلب الإقالة. فأعادا عليه مثل تلك المقالة. فقال:
إن كان ولا بدَّ فتعاليا بنا إلى مجلس الائتلاف، بعد خَلْع خَلْعِ التعصُّبِ
والاختلاف. فبايعاه على الطاعة والقبول، فيما يقضي به بينهما ويقول.

فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وصلى على نبيه ومن انتمى إليه. ثم
قال:

أمَّا بعد، فإني أرى لكل منكما حُجَّة، تسلك به إلى مغنى الفضل
أوضح محجَّة. وإن أبيتما إلَّا التفصيل، وتعيين أحقكما برتبة التفضيل.
فاعلما أوَّلًا أنه ما مُدِحَتِ الغربة لذاتها ولا الإقامة، بل لما ينشأ عنهما على
يد من حاز الفضل والاستقامة. وألهم بنور التوفيق رشده، وبلغ في الكمال
أشدّه. من رَغِي الذَّمَامِ، وصلية الأرحام. وحفظ الجار، والنظر في
ملكوت السموات والأرض بعين التفكير والاعتبار. فإن فتحتما أقفال
كنزي، واستخرجتما منه أكسير إشارتي ورمزي؛ أيقنتما أن السرَّ في
الساكن والنازل لا في المساكن والمنازل. ولكن مع هذا فلا ريب أن الله
خواصَّ في الأمكنة، كما أن له خواصَّ في الأشخاص والأزمنة. وبهذا
القدر يتميز أحدكما على الآخر لا محالة بقدره الجليل، فأقول إذا وظنني
فيكما بحمد الله جميل:

أما صاحب الإقامة، فحاله يدل على حسن الاستقامة. لكونه ارتشف
من كأس الرضى والتسليم، رحيقًا ختامه مسك ومزاجه من تسنيم.

وأما صاحب الغربة، المتلاشي بين حضورٍ وغيبة. فمناهل علومه رائقة، ورياض لطائفه فائقة. لا يسبقه في الفضل سابق، ولا يلحقه في شأوه لاحق. قد عرف الزمانَ وبنيه، ومازَ الغافل من العاقل النَّبيه. وجمع أشتات الفضائل، وأطلع على آثار من غَبَر من الأوائل. فأنى يُجَارَى هذا في مضمار فضائله، أو يُمارَى فيما تفرَّد به من حسن شمائله؟ وهو إن رجع إلى مقام الوطن، بعد أن ذاق أحوال الغربة في السرِّ والعلَن. جنى منه جنى أنسه وراحته، وجلا راحة التهاني براحته.

ثمَّ أخذ يزيل عنهما ما أضرَّ بهما من الجفا والبين، ويوقع بينهما أنواع الألفة ويصلح ذات البين. حتى شكر كلُّ منهما معروفه وجميله، ونظر صاحبه بعين الرضا فرأى جميع أحواله جميلة.

فلمَّا عاينت هذا الأمر العجيب، ورأيت ما مال إليه الشيخ من تفضيل الغريب. مع ما أبدى في وصف كلِّ منهما من مكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيم، التي من أجلها مُدِحَتِ الغربةُ والإقامة بينَ سائر الأمم. حرَّك ذلك منِّي ساكنًا، وأظهر سرًّا كان كامنًا. شوقًا إلى من تحقَّق بتلك الصفات العظيمة، وتخلَّق بجميع هاتيك الأخلاق الكريمة. لقيامه في وطنه بالذَّبِّ عنه بنفسه وماله، مع مساعفة من التجأ إليه ببلوغ آماله. وسيرِّه في رعاياه بجميل السيرة، المنبئة عن صفاء الطويَّة وحسن السَّريرة. ثم انتقله في هجرته إلى صفوة الله من بلاده، التي إليها يجتبي صفوته من عباده. فاستقام فيها على بذل المعروف، وإغاثة المضطرِّ والملهوف. وتعاطي أسباب النجاح والنجاة، وأولى من أمِّ حماه ما أمَّله ورجاه. من ارتقى أوج السيادة، وقرَّت به عين السعادة. وأعلا الله مقامه فانفرد بأبهى مقامه، في الغربة والإقامة. ذي الهمم العلية، والشِّيم الزكية، حضرة

سيدنا وسندنا الأمير عبد القادر بن محيي الدين، متّعنا الله بوجوده،
وأمدّنا بفضله وجوده؛ في الدنيا ويوم الدين.

فقلت معترفاً بالعجز والتقصير، عن حصر بعض مزايا هذا الشهرم
الخطير:

أيا نسيمَ الصبا قد زدّني وصبًا بذكرٍ من هامٍ عقلي فيهمُ وصبًا
أجريتَ درّ دموعي كالعقيق بتد كارِ العقيقِ فجارى فيضها السُّحبا
باللّه حيّ عُرَيْبَ الحيّ عن كَلَفِ بهم يباتُ الليالي يرصدُ الشها
فؤادُهُ قد غدا مُصلّى بنار جوى وجسمُهُ يبدِ الأشواقِ منتهبًا
حتّامٌ أخفي غرامي والدموعُ بهِ تنمُّ والوجدُ لا يخفى إذا غلبًا
جلّ المصابُ وعزّ الصبرُ وأسفي والبينُ من مقلتي طيبَ الكرى سلّبا
وفي سبيل الهوى ذقتُ الهوانَ فكم وكم به شمتُ من أهوالِهِ عَجبا
كم ذا أعللُّ بالآمالِ كلَّ مدى نفسي ولمّا أنلُ ما كنتُ مرتقبا
عطفًا على مغرمٍ مغرئٍ عليه لقد جارَ الهوى والتوى أودتْ به عَطبا
أما كفى ما جرى من كلِّ نائبةٍ يكادُ يقضي المعنى دونها نصبا
قد حزنَّ لي وشكى في الأيكِ ساجعةً ورقَّ لي وبكى الجلمودُ منتحبا
يا لائمي في التصابي لو عدلتَ لما عدلتَ صبا حليفَ الوجدِ مكتبا

ولو ترى في الهوى العذريّ عذريّ ما

أمسيتَ قطُّ ضلالَ العذلِ مُرتكبا
وبي غزالٌ غزا منّي الحشا بظبا^(١) أجزائه فاسترقَّ القلبَ وانقلبا
بديعُ حسنٍ حميّا حبه سلبتُ تنسكي ومحياهُ الفؤادَ سبى

(١) الظُّبا: جمع ظُبة، وهي حدُّ السيف وما أشبهه.

كالشمس حسناً وكالبدْرِ المنيرِ سنًا والغصنِ قَدًّا إذا ما رَنَحَتْهُ صَبَا
غَيْبِي أَرَاهُ بِهِ عَيْنَ الرَّشَادِ وَذَلَّ

سِي عِزَّتِي وَعِذَابِي فِيهِ قَدْ عَذَّبَا
ويلاه من رَشَأُ أَفْتَى بِسَفْكِ دَمِي يومَ الفِراقِ وَأَفْنَى مُهْجَتِي وَصَبَا
وطالَمَا بِاللِّقَا قَدْ جَادَ دُونَ قَلِي والقَلْبُ فِي القُرْبِ مِنْهُ نَالَ مَا رَغِبَا
أَجْنِي وَرُودَ البِهَا مِنْ رُوضِ وَجْتِهِ وَمِنْ لِمَاهُ أَذُوقُ الرِّاحِ وَالضَّرْبَا^(١)
يا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَحْظَى بِرُؤْيَتِهِ يَوْمًا وَأَقْضِي بِهِ مِنْ وَصِلِهِ أَرْبَا
وهل تَعُودُ لِيُيَلَّاتِ سَلْفَنَ لَنَا نَجْلُو سُلَافَ الهَنَا فِي غَفْلَةِ الرُّقْبَا
والهَفَّ قَلْبِي الشَّجِي مِنْ أَغِيدِ جَمَعَ الضَّ

سَدَّيْنِ فِي وَجْتِيهِ المَاءِ وَاللَّهْبَا
هذا يَجُودُ بِهِ وَذَاكَ يَمْنَعُهُ وَلَيْتَهُ كَانَ لِي بِالْعَكْسِ قَدْ ضَرَبَا
وقَدْ حَمَى ظَلْمُهُ^(٢) مِنْ ظَلْمِهِ فَمَتَى يُطْفِي غَلِيلَ عَليْلِ فِي الحِشَا التَّهْبَا
أَحَلَّ حَلَّ عُرَى مِيعَادِهِ وَرَأَى إِنْجَازَ إِيْعَادِهِ فِي شِرْعِهِ وَجَبَا
ما شِمْتُ^(٣) أَنْقَضَ مِنْهُ لِلْعَهودِ وَلَا مِثْلَ الأَمِيرِ وَفَا عُجْمًا وَلَا عَرَبَا
فخِرُ الأَمَاجِدِ عِبدُ القَادِرِ الحِسْنِي أَرْقَاهُمْ نَسَبًا أَنْقَاهُمْ حَسَبَا
سَمَا السَّمَاكِينِ قَدْرًا فِي العُلا وَعَلَى أَوْجِ المَجْرَّةِ فَخْرًا ذَيْلُهُ سَحَبَا
إِنْ شَاءَ إِنْشَاءَ أَبْكَارٍ مَخْدَرَةٍ فَمَا بِلَاغَةِ سَحْبَانٍ إِذَا خَطَبَا
كَاللَيْثِ وَالغَيْثِ فِي بَاسٍ وَفِي كَرَمِ
يُفْنِي أَناسًا وَيُحْيِي إِنْ سَطَا وَحَبَا

(١) الضَّرْب: العِسل الأَبْيض.

(٢) الظَّم: ماء الأَسنان وَبَرِيقِها.

(٣) ما رَأَيْتَ مَتَحَقَّقًا.

أعدّه الدهرُ قدماً حسنَ خاتمةٍ لهُ فنالَ بهِ تالله ما ارتقبا
فيا لهُ من إمامٍ مفردٍ جمعتُ بهِ المعالي وحازَ الفضل والأدبا
مولاي عطفاً على عبدِ رضاك غدا أقصى مناهُ من الدنيا وما كسبا
فلْيَهْنِ إنَّ أبَّ مقبولاً وعادَ قريراً العينِ يختالُ في بُردِ الهنا طرباً
وهاكها بنتَ فكرٍ لا تروم سوى الـ قبولٍ مهراً وتأبى غيرهَ طلباً
عذراً فإن ثناءَ العبدِ يقصُرُ عن عُلاكٍ مهما عليه دام أو دأبا
لازلت في الدهرِ محفوظَ الجنابِ ومن قدِ انتمى لحمى عليكِ وانتسبا
ولا بَرِحَتْ لكلِّ العالمين ملا ذا ما بدا وجهُ شمسِ الحُسنِ أو غرباً
بُشرايَ فزُتُ لدى تاريخها بهدي ونلتُ في مدحِ عبدِ القادرِ الأربا
٢١ ٤٨٦ ٩٠ ٥٢ ٧٦ ٣٣٦ ٢٣٥

* * *

انتهت هذه المقامة في سلخ ذي الحجة سنة ١٢٩٦، لمنشئها
الأديب الفاضل محمد الشيخ نجل المبارك^(١).

(١) محاضرة لطيفة، ومفاخرة شريفة. رشيقة التسجيع، رصيفة الترصيع، حوت
البلاغة بالبيان البديع. أظهرت مقام المقيم الأريب، وأسفرت عن علو شأن
الغريب بطرز عجيب. راقَتْ ورَقَتْ ورَقَتْ وأعلا المقامات، بمدح أمير الأمراء
والسادات. شمس العلوم والمعارف المشرقة في المشارق والمغارب، بدر
الحقائق البادي للصادق لكنّه ليس بأفل ولا غارب. القطب الذي عليه تدور رحى
العرفان، والنجم الذي يهتدي به الحيران. خاتمة المحدثين، وارث علوم الأنبياء
والمرسلين. صاحب الشأن الشامخ، والقدم الراسخ، والشرف الباذخ. السيّد
السند السني، الأمير عبد القادر بن محيي الدّين الحسيني:
الألمعي الذي أدنى فضائله كانت نهاية أقوام مبادئها =



=

فوق السهى رتبًا عزَّت مراقيها	نجل السراة الأولى شادوا بمجدهم
فمَن لها مطفىءٌ والله مذكىها	فهم مصاييح نور للإله بدت
أن المحاريب يتلى مدحُهم فيها	وحسبهم شرفًا تعنو الرقاب له
نمت إليه فقل من ذا يضاهيها	مفاخر من أبي الزهرا إلى حسن
كليلة القدر دام سعد رائيها	قد صار في الخلق مقدارًا ومنزلة

عزَّز الله تعالى قدره، ورفع في الملاء الأعلى ذكره. آمين.

فحازت به أبهى مقامة، أعلى غايات الكرامة. وفاه لسان حال الأفاضل والأفاخر، يتلو منشدًا يفاخر: «كم ترك الأول للآخر». وكيف لا وولي عهدها، وناظم لآلئ عقدها. بديع الزمان وحسانه، وخطيب العصر وسحبانه. الأجل: محمد الشيخ نجل الولي الصالح، الشيخ محمد المبارك الجزائري. لا زالت أقلامه بالعلوم تجري وتشر الدر المكنون، مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. مصطفى فوزي الإمام، ولها يقول الأديب الأريب الشيخ طاهر بن الشيخ محمد صالح الجزائري مقرظًا:

غدت كعروس فوق سامي الأرائك	لقد راقت الأبصار أبهى مقامة
بروضة زهر أسفرت عن سبائك	يقيم بها فكر المقيم تنزُّها
بحسن معانيها أجل المسالك	ويسري بها فكر المسافر إذ حوَّت
نسيج زهير العصر نجل المبارك	علا كعبها بين المقامات قد غدت

سنة ١٢٩٦

المفاخرات والمناظرات

(٦)

مناظرة بين علم وإجهل

تأليف

الشيخ محمد بن محمد الديسي الهاملي الجزائري

(١٢٧٠ هـ - ١٣٤٠ هـ)

عني بها

الدكتور محمد حسان الطيان

جامعة الكويت - كلية الآداب

دار البشائر الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف (١)

هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن ابن سيدي إبراهيم الجزائري، من قرية الديس قرب بلدة بوسعادة بالقطر الجزائري.

وُلد سنة ١٢٧٠ هجرية بالقرية المذكورة. كان من أجلّ المشايخ المعتمدين، وبقية السلف الصالحين، متخلّقاً بالأخلاق الرائقة، والأحوال الفائقة، علماً وعملاً، وزهداً وورعاً، ومحبة في الله وأهله، ووقوفاً مع الكتاب والسنة، يقول كل من عاشه ووزنه بالميزان الشرعي: إن جزءاً من أحواله لم يخرج عن الشرع.

تربّى في حجر والدته وجدته يتيمًا مكفوف البصر، حتى حفظ القرآن وأتقن أحكامه بالقراءات السبع، واشتغل بتعلم العلم على علماء قريته حتى حصل ما عندهم، ثم انتقل إلى زاوية الشيخ سيدي السعيد ابن أبي داود بجبل زاوية، فحصل ما قدر له من العلوم، ثم عاد إلى مسقط رأسه، ومنه انتقل إلى الزاوية المعمورة المشهورة زاوية الشيخ سيدي محمد بن بلقاسم الشريف الهاملي، واشتغل بنشر العلوم في تلك الزاوية

(١) نقلاً عن «شرح إيقاظ الوسنان»، للعلامة المحقّق الشيخ محمد بن يوسف الكافي التونسي، على منظومة المؤلف الشيخ محمد بن عبد الرحمن.

فاستفاد وأفاد، وتخرَّج على يده خلق كثير، كل على حسب ما قدر له .

له تأليف عديدة ما بين شروح وحواش، منها: شرح ورد سيدي محمد بن بلقاسم، المسمَّى بـ «فوز الغانم». وله نظم في الجمل سمَّاه «الزهور المقتطفة»، وشرحها بشرح سمَّاه «القهوة المرتشفة»، وحشَّى الشرح المذكور بحاشية سمَّاه «الحديقة المزخرفة». وله منظومة في التوحيد سمَّاه «عقد الجيد»، وشرحها بشرح سمَّاه «الموجز المفيد». وله المنظومة المشروحة المسمَّاة بـ «العقيدة الفريدة». وله بديعة من الرجز في مدح الشيخ سيدي محمد بلقاسم، وشرحها بشرح سمَّاه «تحفة الإخوان». وله شرح على منظومة الشبراوي سمَّاه «المشرب الراوي». وله «نظم الورقات» سمَّاه «سُلَّم الوصول»، وشرحه بشرح سمَّاه «النصح المبذول». وله «توهين القول المتين» في الرد على الإباضية. وله «مقامة في المفاخرة بين العلم والجهل»^(١)، وشرحها بشرح سمَّاه «بذل الكرامة لقراء المقامة». وله «شرح على متن الشهاب» في الحديث. وله «شرح كنوز الحقائق للمناوي»، وله «شرح على الصلوات المشيشية» و«شرح على منظومته المسعودية» في مدح الأستاذ المذكور. وله «إفحام الطاعن بردّ المطاعن». وله «رسالة على التطهُّر بماء الغيب إن كنت ذا سر». وله رسالة في «تفضيل البادية بالأدلة الواضحة البادية». وله شرح على المنظومة الشعبية في التوحيد، سمَّاه «الكلمات الشافية». وله «رسالة في نسب سيدي نائل». وله «الساخور للعادي العقور». وله «رسائل صغيرة في فنون شتى». كما جمع «النظائر الفقهية» عند تدريسه، و«الضوابط العلمية في

(١) وهي هذه التي نخرجها في هذا المجموع.

النحو»، وفي غيره. و«نظم مختصر خليل» ولم يكمله، ونظم تراجم أبوابه. وله «ديوان شعر» يبلغ نحو الأربعة آلاف بيت.

وكان يحفظ نحو خمسين متناً في العلوم المتداولة، أعظمها مختصر خليل، وجمع الجوامع، ويحفظ المدائح النبوية. وقد برع في العلوم الشرعية والفنون الأدبية حتى كان أوحد زمانه. وكان يحب الخمول ويكره المحمدة والظهور، ليّن الجانب صبوراً غيوراً على الدين صاحب حزم واجتهاد وذا خلق حسن، ما نطق بفحش قط، ولا ضبط عنه ساعة هو غافل فيها عن دينه. وكان يحفظ في اليوم مائة بيت من الفنون. وكان جيد النظم سهل العبارة ذكي الفهم غواصاً في المعاني الدقيقة. وأجاز وأجيز، ولم يترك التدريس في سائر الأوقات. وكان يحب الطلبة الذين يقرؤون عليه، ويعينهم على العلم ويواسيهم بما يقدر عليه، ولا سيما في شهر رمضان.

توفي رحمه الله يوم الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام عام أربعين وثلاثمائة وألف، رحمه الله والمسلمين رحمة واسعة. . آمين.



مناظرة بين علم واجهل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بعد حَمْدِ مُلْهِمِ الصَّوَابِ، وكاشفِ الأوصابِ، والصلاةِ الكاملةِ،
والتحياتِ المتواصلةِ الشاملةِ، على سيدنا ومولانا محمدٍ وآلهِ وصحبه
والفئةِ العاملةِ العاملةِ، فقد اقتضى الحالُ، أن يقع بين العلم والجهل
مناظرةٌ وجدالٌ^(١)، فاجتمع قومٌ، وعينوا لذلك يوم.

فقام العلمُ، وقد شاخ وأسَنَّ، وأدركه الضعْفُ والوهنُ، بادي
الإعوازِ، يتوكأ على عكازِ، في رثَّةِ حالِ، وأطمارِ وأسمالِ. فبَسْمَلَ
وحَمَدَلَ، وحَسَبَلَ وحَوَقَلَ. وصلَّى وسلَّم، على خيرِ مَنْ عَلِمَ فعَلَّمَ،
وقال:

يا جهل، ما أنت لخطابي بأهل، ولا جدالي عليك بسهل؛ يا ميتَ
الأحياءِ، ويا قليلَ الحياءِ. ويا سببَ تفليسِ إبليسِ، ويا حلية كلِّ دنيءٍ
وخسيسِ. كيف تكون لي أنت المجاري؛ والعلم صفة الباري، وميراث
الأنبياءِ، وورد في فضله ما لا يحصى من الآيات والأنباء. ويكفيك لو
كنت من قوم يفهمون ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

(١) طُبعت هذه المناظرة في المكتبة السلفية بالمدينة المنورة سنة ١٣٨٥هـ، وهي
الطبعة الثانية لهذه الرسالة.

وجاء في السنّة: «العالم والمتعلم والعلم في الجنة».

وأنت يا جهل بسيطك عدَمٌ، ومركبك موجودٌ لا يثبت له قدمٌ. ومن معلوماتي التفسير والحديث، المعظمان في القديم والحديث، وعلم التوحيد الذي هو لباب الجنة إقليد. وإليّ ترجع الأربعة أركان التي بها شرف الإنسان: علوم الأديان، وعلوم الأبدان، وعلوم الأذهان، وعلم اللسان.

ويكفي الجهل قبحُ وسمه، ولكل مسمّى حظٌ من اسمه. يخبطُ خبطاً عشواءً، ويركب متنَ عمياء. ويتصور الأشياء على خلاف ما هي عليه، وكل شرٌّ في الدنيا منسوب إليه.

وبالعلم تدرك المراكب الفاخرة، وتنال سعادة الدنيا والآخرة. يزيد بالإنفاق، ووقع على فضله الاتفاق. معظّم في كل ملّة، وبه تقوم قواعد كل نحلة. بنوه السادة، ولأهل الدنيا والآخرة قادة؛ مذاكرتهم زيادة، ومجالستهم عبادة. ونعم الأنيس في الوحدة، والمعين على الشدة والزداد والعدّة. يستغفر لأهله كلُّ شيء حتى حيتان الماء، ووحوش البر وطير السماء.

والعلم محبوب طبعاً، معظم عادة وشرعاً. لا تلحقه الآفات وأهله أحياء وهم رفات:

أخو العلم حيٌّ خالداً بعد موتِه
وأوصالُه تحت الترابِ رَمِيمُ

وذو الجهل ميّتٌ وهو ماشٍ على الثرى
يُعَدُّ مِنَ الأحياءِ وهو عَدِيمُ

وكفاه شرفاً: أن كلَّ أحدٍ يدَّعيه، وكل ذي فطرة سليمة يقصده
وينتحيه. وأنه يُنالُ بالهمم لا بالرمم. ولا يُحازُ بنسبٍ^(١)، ولا يُورثُ
بنسب. يستوي فيه الشوقُ والملوك، والغني والضعلوك، والحر والعبد،
والشريف والوغد. يُدرِكُ بالاجتهاد والجِد، لا بالاتكال على الأب والجِد.

وأنت يا جهل شناعة وأي شناعة، وخسارة للحياة وإضاعة. بُنوك
بهائم، وإن لبسوا العمائم. وأنعام، وإن غُدُّوا بالإنعام. ومعشر طغام^(٢)،
وإن تمتعوا بفاخر الثياب وألوان الطعام. وشرار، وإن تشدَّقوا في الكلام.
ورُعاع، وإن أحرزوا المتاع.

يا جادعَ مارن^(٣) الشَّرَف، يا مفتاحَ بابِ التهورِ والسَّرَف، يا عارَ
الخَلَف على السَّلَف. يا هادم البيوت، يا أوهى حُجَّةً من نسج العنكبوت.
يا مفسد العبادَة، يا سيِّء العادة، يا قليل الإفادة، يا مردود الشهادة.
يا مُتلفة الأموال، يا متناقض الأحوال، يا مُسوِّد الأندال، يا مُقدِّم السَّفلة
والأرذال. يا عيبة العيب، ويا مثار الحيرة والريب.

بأي لسان أستوعب معاييك؟ أم بأي بيان أستوفي مثالبك؟ وهل
كالجهالة عمي وعمه؟ أو مثل الجاهلية سفالة وسفه؟ ألا يرى مجاهل
المسالك، معاطب ومهالك؟ ومن سلك السبيل بالعلامة، فاز بالنجاة
والسلامة. ألسنَّ صفة كل شرير ومارق؟ ومكسب كل متلصص وسارق؟
وإن نفق لك سوق، فذاك لعمري سوق الفسوق. وإليك ينتسب كل قَمَّار

(١) النَّسَبُ: المال والعقار.

(٢) الطَّغام: أرذال الناس وأوغادهم.

(٣) المارن: الأنف، أو ما لان من طرفه.

وَحَمَّارٌ، وَمُغْنٌ وَزَمَّارٌ، وَمَحْتَالٌ وَغَادِرٌ، وَمَنْجَمٌ وَسَاحِرٌ، وَمَشْعِبِدٌ^(١)
وكاهن، وخليع وماجن.

وإن فخرت بالملابس والمآكل؛ فذاك حظُّ المزابل. وأنشدوا:

[من الكامل]

ولقد سألتُ الدارَ عَنْ أخبارِهِمْ فَتَبَسَّمتُ عَجَبًا وَلَمْ تُبَدِ
حتى مررتُ على الكنيفِ فقال لي أموالُهُمْ ونوَالُهُمْ عندي
أو بالخيل والليل فلأُمَّك الويل. فكلُّ ما أضيف لك فهو حقًّا
للشيطان، وليس له على عباد الله المخلصين من سلطان.

وإن عيَّرتني بالفاقة فذاك من الحماقة؛ فالفقر شعار الصالحين
الأخيار، وحرية عباد الله الأبرار. فاقعد عن المكارم؛ فإنك أنت الكاسي
الطاعم. والبطنة تذهب الفطنة. والتُّخَمُ وَخَمٌ. وأصل كل داء البرْدَة^(٢)؛
قضية مسلَّمة. والمعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء؛ حكمة نبوية
معظمة. وإن خدمت الأشباح الفانية، فأنا أخدم الأرواح الباقية. وإن
قَصَرْتَ لَدَتَكَ على المباني، فقوت الروح أرواح المعاني.

وأبنائي الأكياس، خلاصة الناس. هداة العباد، ومصايح البلاد.
زينة المحافل، ورؤساء الجحافل. أيامهم بالمحاسن معمورة، ومساعيهم
في الصالحات مشكورة. حياتهم طيبة بالقناعة، ولهم في الدنيا المكانة
والطاعة، وفي الآخرة الحسنى والشفاعة:

تلك المكارم لا قَعْبَانِ^(٣) مِنْ لَبِنٍ شِيئا بماءٍ فعادا بَعْدُ أبوالا

(١) المشعبيد: المشعوذ.

(٢) البرْدَة ويحرك: التُّخْمَة. القاموس (برد).

(٣) القَعْب: القدح الضخم.

فمن أين لك فخاري؟ وأنتى تساميني في طيب أصلي وكرم
نجاري^(١)؟

فمن أبنائي مفسِّرون وحُفَاط، وصوفية ووعاظ، ومتكلِّمون وفقهاء،
وأصوليون وأدباء، ومؤرِّخون وأطباء، ومناطقة وحكماء، وفرَضِيَّون
وحسَّاب، وبلغاء وكتَّاب، ومنجِّمون وجغرافيون، وأهل هيئة ومهندسون،
ومساحة وسياسة، وعلم حروب وفراصة. إلى غير ذلك مما لا أكاد
أحصيه، ولا أقدر أستقصيه. انظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب
وخواصَّ الفنون.

ومنهم واضعو العلوم، ومستنبطو الحدود لها والرسوم. وضع النحو
بابُ مدينة العلم الإمام^(٢)، والحديث ابنُ عبد العزيز المجدِّد الهمام،
والتفسير مالك، والفقه أصحابُ الأربعة كذلك، وأصول الفقه الشافعيُّ ابنُ
إدريس، ومسائل الكلام الشيخُ الأشعريُّ الرئيسُّ، والفراءُ التصريفُ، وابنُ
المُعْتزِّ في البديع اللطيف، والعروضُ الخليلُ، وعبدُ القاهرِ الجرجانيُّ علمَ
البيانِ الجليل. إلى غير ذلك مما ابتكره الأعلام، وفتح به العلام، واعترف
فيه الأممُ بمزية الإسلام.

وكم لي من شمس وبدر، وفخر وصدر، وضياء ونجوم، وشُهْب
لشياطين الجهل رُجوم، وغيث ومعين، وناصر وأمين، وبهاء وجمال،
وبرهان وكمال؟ وكم لي من حُجَّة، ووضوح مَحَجَّة؟ أما ترى قوةَ
عضدي، وطالعِ سعدي، وشهامة سيدي، وكرم مجدي؟ إلى ما لا يُحصى
من أبنائي الأنجاب، الذين تشرَّفوا بسنيِّ الألقاب.

(١) التَّجَار: الأصل والحسب.

(٢) أي الصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أما تخشى يا جهلُ بأسِ حُماتي، وضربَ أكابرِ نُحاتي؟ وما للعروضيين من التفعيل والتقطيع، وللصرفيين من تنويع الأفعال والتفريع؟. ألا تخاف أحكامَ فقهايي، وأن يقضوا عليك بمرِّ قضائي؟. ألا تهاب تجريحَ رواة أنبائي، وصعوبةَ تجريح أطبائي؟. ألا تفزعُ من كلام المتكلمين، وأن يكونوا لعرضك من المُكَلِّمين^(١)؟ وقد وجَّه أهل الأصول إلى صوبك السهام والنصول وأين تفرّ من عكوس المناطقة، وقضاياهم الكاذبة فضلاً عن الصادقة؟!.

ألا تتقي تمزيقَ السنة شعرائي، وكنايةَ بلغائي؟ وتشبيهاتِ البيانين أن يُلحقوك بباقل ومدار، وتلميحاتِ البديعيين أن يُلمحوا لك بالبيت النادر؟ إلى ما لا يأتي عليه الحصر، ويتجدد مع كل أهل عصر.

ولا تنظر إلى ما رماني به الدهر من الكساد؛ فإنما ذلك لغلبة الفساد؛ فالدهر مغرى بحرمان الأفراد، ومساهلٌ لكل جاهل، وموافق لكل منافق. فقد قال الزمخشري العلامة محمود، الذي علمه لولا الاعتزالُ محمود: [من الطويل]

وعاندني دَهري وساعدَ مَعشراً على أَنَّهُم لا يعلمونَ وأَعْلَمُ
ومُذْ أفلحَ الجُهَّالُ أيقنتُ أَنسي أنا الميمُ، والأيامُ أفلحُ أَعْلَمُ^(٢)

فقد كانت أسواقِي نافقة، وأعلام عَزِي في الخافقين خافقة. فكم

(١) اسم فاعل من كَلَّمَ بمعنى جرَّح.

(٢) الأفلح مشقوق الشفة السفلى، والأعلم مشقوق الشفة العليا، ومن كان كذلك،

لم يستطع النطق بحرف الميم لأنه حرف شفوي، يريد الزمخشري أن زمانه لم

يعرف قدره.

عالم أصلحَ حرقاً فأخذ عليه كذا وكذا ألفاً. وكم أُجيزوا بالدرر على
القصاصد الغرر. وكم تمتّعوا بالخِلع البهية، والمآكل الشهية، والمراكب
الهنية، والفرش الوطية. والمسكن المُطلة، والضياع المُغلّة. والكواعب
الحسان، إلى سائر ما أنعم به عليهم أهل الإحسان.

ألا ترى إلى ما كنتُ عليه أيامَ الدولة الأموية من الحرمة والاعتزاز،
بالشام واليمن والحجاز؟ وما حصل لي من الجلالة ببغداد والعراقين
وخراسان وما وراء النهر أيام العباسية، وما كان لي من الإقبال بمصر
وسائر ديار الإسلام أيام الدولة التركية وأيام الجراكسة؟ وخصوصاً
بالمساجد الثلاثة التي تُشدُّ لها الرحال؛ فكم كان فيها من فحول رجال!!

وصولتي ببلاد الروم صدرَ الدولة العثمانية. ومنَ شكَّ فليُنظر
الشقائق النعمانية. وبإفريقيّة أيام الأدراسة والأغالبة، وبالعدوة الأندلسية
أيام الدولة المروانية القاهرة الغالبة. وما قصر فيّ القيامُ في طوائف، أيام
ملوك الطوائف. ونُصرتُ بالأبيض والأسمر، مدةَ أيام بني الأحمر. ولم
تزل لي بتلك العدوة فخامة، إلى أن قوّض الإسلام من الجزيرة خيامه.
وعظّم شأني بمراكش والبيضا، أيام ابن تاشفين وابنه علي الرضا. وكنت
بالمغربين منقطع القرين، أيام الموحّدين وبني مرّين. ونُصرتُ بالهادين
المهديين من الوطاسين والملوك السعديين. ولم أضع بتلمسان، أيام بني
زيان، ولا ببجاية، كما في عنوان الدراية. وكذا بتونس والجزائر وزواوة،
ونعم العِدلانِ ونعمتِ العِلاوة. فلتبكِ على سلفي الصالح المنابر،
والأقلام والمحابر.

أمّا الآن، وقد كان ما كان، وذهبت الجماعة، واقتربت الساعة، فلا
يسعني إلاّ الرضا، والصبرُ على مُرّ القضا، والتقلّب على جمر الغضا،

فالشيء ينتهي إذا بلغ غاية حدّه، ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾
[المائدة: ٥٢].

* * *

فلَمَّا فرغ العلم من القيل، وسمع الجهل ما فيه قيل؛ أبرق وأرعد،
ووعد وأوعد، ونهض في أكمل شارة وأحسن بزة، وقد انتفخ من الكبر
وأخذته العزة، وعلى رأسه التاج والعلم، وفي خدمته السيف والقلم؛ في
عتو تيمور أو جنكيز، وتعاضم ممزق الكتاب النبوي كسرى أبرويز - أما
القيصر فما فرط في حفظ الكتاب المعظم ولا قصر - فبربر وبرطم،
وزمجر وجرسَم^(١). وقال:

يا علم، ما هذا الإفراط في الظلم؟! أتكافحني في إقبال دولتي؟
وتنافحني في أيام صولتي؟! أما ترهب بأسّي وشدة شوكتي؟ ويدي
المناصب، وأنا الرافع والناصب. والمتصرف في الحكام، وإلي مرجع
الأحكام، والنقض والإبرام، والقهر والإلزام!

وإن كنت قدّمًا أسكن الأطراف، وأستوطن الكفور^(٢)
والأرياف، فالآن قد ملكت الأمصار، وملأت الأقطار، وخفقت في
الخافقين بنودي، وطبقت المشارق والمغارب جنودي. فأنتي تشق
غباري؛ وأنا الأصل وأنت الطاري؟ ألم تسمع ما يتلون: ﴿وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

(١) جَرَسَم: أحد النظر. القاموس (جرسم).

(٢) الكفور جمع كُفْر وهو القرية، ومنه الحديث: «لا تسكن الكفور، فإن ساكن الكفور
كساكن القبور».

أليس نقصًا فيك ما قال عنك الإمام: إنك لعُسرِكَ لا تُحدِّد، وأن غالب حدودك يُنقض ويُرَدِّد؟! ومن الحَوْر^(١)، نقض أشهر حدودك بالدَّور. ومن سعادة جَدِّي^(٢)، سلامة حَدِّي، وصحة عكسي وطردي. وإن كان بسيطِي عمدًا يزول؛ فمُرْكَبِي صعب لا يتغير ولا يحول. شديد الرسوخ، سيما في أبناء البيوت والكثير من أولاد الشيوخ.

ومن أين لك على مقاومتي المقدرة؟ وأنت قليل الأنصار وعديم الميسرة. وأبنائي الأغنياء والأمراء، وأبناؤك الضعفاء والفقراء. يا صفر الراحة، يا من حكى مسلمٌ عنه في صحيحه أنه لا يُنال بالراحة. يا حليف الجوع، يا منافي الهجوع. يا مُضني الأبدان، يا مصفِّر الألوان. يا قليل الحظوة، عند أهل السطوة. يا مسوِّد الموالي، ورافعهم على الأعالي. يا قليل الجدوى، يا داعية الكبر والدعوى.

أفتفخر بينك الشُّعثُ الغبر، الذين ليس لهم عند أهل الدنيا اعتبار ولا قدر؟! إن خطبوا رُدُّوا، وإن عُدَّ الناس فما عُدُّوا. وإن غابوا فما فُقدوا، وإن حضروا فكأنهم ما وُجدوا. ما لهم شارة، ولا إليهم إشارة، ولا يُرجع إليهم في استشارة. وإن نطقوا أُسكتوا، وإن صدقوا أبهتوا. عاقلهم جِلس^(٣) البيت، وحيثهم بمنزلة الميِّت. لا يطمعون في نيل الرُّتب، وسكنى غالبهم الزوايا والترُّب. قلوبهم منكسرةٌ للغربة، وهم حلفاء كل

(١) الحَوْر: النقص.

(٢) الجَدّ: الحظ.

(٣) الجِلس: ما يبسط في البيت من حصير ونحوه تحت السجاد وكريم المتاع.

يقال: (هو جِلسُ بيته) أي لا يبرحه.

محنة وكربة. لا ينفكون عن تألم، ويتجرعون كاساتِ ذلِّ التعلم. عيشهم شظف، ولا يأكلون إلا على ضفف^(١)، وشربهم من القداح نُظف^(٢). لباسهم أسمال، وفراشهم تراب ورمال.

فهذا غالب حال بنيك يا مُكِدَّ الطَّبَاع، ويا حلية أهل العجز والضياع. مدارسك دوارس، وأذقانُ حاملِك نواكس. ليس على كلامهم مُعَوَّل، وهل عند رسمِ دارسٍ من مُعَوَّل.

أما أنا فقولِي المشهور، وأبنائي الجمهور من الأحداث والرجال. وربّات الحِجال. وإن مات عالمٌ فتلك ثلْمَةٌ لا تنسد، وفائتٌ لا يمكن أن يُسترد. بشهادة: ﴿تَأْتِي الْأَرْضُ نَقْضًا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، فآلت استماعًا، وبما صحَّ في الحديث الشريف: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا». وإن هلك جاهلٌ خلفه ألفٌ، بشهادة ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

هذا، وأبنائي المترفون والمنعمون، والقومُ الذين هم في العيون مُعْظَمُونَ. يتمتعون بفاخرِ الأكل واللباس، وسواءٌ عندهم ما لا بأسَ به وما به بأس. فكم أجروا في الهوى أفراسًا، وزينوا ولائم وأعراسًا. وعمرُوا القهاوي والحانات، وملؤوا الإصطبلات والخانات. ولهم المعازفُ والعيدانُ، والمغنون والقيانُ. ولهم الليل، وصهوات الخيل. وهم الحماةُ والكفأةُ، ولهم المكيفات والكافات. وبأيديهم المتاجرُ والأسواق، وإليهم الأرزاق عفواً تساق. وهم القومُ كلُّ القوم، أنفقوا بضاعة الأعمار في الشَّبَع

(١) الضَّفَف: كثرة الأيدي على الطعام.

(٢) النُّظْف: قليل الماء.

والنوم. ينامون الصبحة، ويرتكبون كلَّ شيء لا يخافون قُبْحه. أبناء الغفلة والكسل، وهمُّهم العسيلة^(١) والعسل. يحبون العاجلة، ولا يتفكرون في الآجلة. لا يعرفون غيرَ هذه الدار، ويقولون إلى اللذات البدارَ البدار. إلى أن تأتيهم النقلة، على حين غفلة. ورحمةُ الله من وراء ذلك لمن مات على الإيمان، فإنه جلَّ وعلا هو الرحيم الرحمن.

وأنت يا علمُ تظني أولادك بذكر الوعدِ والوعيد، والنظر في حال الشقيِّ والسعيد. واحتجاجك بقضية إبليس لو كنت ممن يتحقق، فإنه كان عالمًا غيرَ موفق. والذي ما خصَّ بلُّ عم، قضية ابنِ عوراء بلعم. فأصحَّ القول فيه: أنه عالم سفيه. والعلم يهتفُ بالعمل، فإن أجابه أقام وإلَّا ودَّع وارتحل.

وليس بين العلم والعمل ملازمة، فلا يصح لك في هذه النزاعِ والمخاصمة. فكم عالم زاغ في العمل والعقد^(٢)، وراغ^(٣) في جميع أحواله عن سبيل القصد. وكثير من أبنائه ذوو زندقة وإلحاد، ومنهم من يقول بالحلول والاتحاد. ومن شُبِّه ما يدَّعيه نجمُ الرِّفْض والاعتزال. ومن فساد نظرهم تشعبت سائر فرق الضلال. والغمر الجاهل، عن هذا كله ذاهل. وجهلاء الأعراب، أقرب في الجاهلية للإسلام من أهل الكتاب. فلذا دخلوا في الدين أفواجًا، وما أطلوا عنادًا وحجاجًا. ولم يؤمن من أهل الكتاب إلا النادرُ الفذُّ، وما قلَّ وشدَّ. وانظر إلى الترك والأكراد، كيف بادروا للانقياد إلى الدين بلا كبير عناد.

(١) العسيلة: حلاوة الجماع.

(٢) العقد: العهد.

(٣) راغ: مال وحاد.

وما عيّرت أولادي به يا ذا البركة، من اللصوصية والسرقه والشعبذة
والمجانة وما معها فتلك أوصافٌ بيننا مشتركة، يشهد لي ولك العيان،
وليس بعد العيان بيان.

وليس كلُّ معلوماتك شريفة، بل منها الدنيئة الخسيسة السخيفة. ألا
ترى الفلسفة، وتلك المُضِلَّة المُتَلَفَّة؟. والنجوم والطلاسم، والأوافق^(١)
والعزائم؟. وعلم جابر الكاسر، الغير الجابر؟. والعلوم الشريفة أحوالها
في وقتنا هذا ضعيفة؟.

هذا التفسيرُ، فأين محرِّروه؟ وهذا الحديث، فأين مقررَّوه؟ وأين
مَنْ يعرف موضوعه، ويميز صحيحه وحسنه وضعيفه وموضوعه؟ وهذا
التصوف، فأين زُهَّاده؟ وهذا منهل المعارف، فأين وُرَّاده؟ وهذا الفقه،
فأين مُتقنوه؟ وهذا الأصول، فأين محسنوه؟ وهذا الكلام، فأين من فيه
الكفاية، والقيام عنا بفرض الكفاية؟ على أنه حرَّم النظرَ فيه متقدمو الأئمة
الأعلام، حتى أَلَّفَ الغزالي حجةَ الإسلام: «إلجام العوام عن علم
الكلام».

والمنطق حرَّمه جمعٌ من أهل الصلاح، منهم النووي وابنُ الصلاح،
وما يغني الاشتغال بالحكمة والبحث عن الأعراض والجواهر، والاستقسات
والعناصر، والبسائط والمركبات، والهيولي والكليّات، والاشتغال بها سببُ
ضلالة الفارابي والرئيس، والموقع لهما في الاعتقاد الرديء والمذهب
الخسيس. وقد حذّر الأماثل من الاشتغال بعلوم الأوائل. والنحو حسن ولكن
قال فيه، من يتحققه ويدريه:

(١) الأوافق: من العلوم الخفية التي تعتمد على الحروف وخواصها.

[من الطويل]

وما ينفَعُ الإعرابُ إن لم يكنْ تُقَىٰ وما ضَرَّ ذا تقوىٰ لِسَانٌ مُّعْجَمٌ
وحديث: «وإن من البيان لسحراً»، يحتمل القدرح، كما يحتمل
المدح.

والطب وإن كان حقاً فقد دخله التديس، وكثر فيه التمويه
والتلبس. والطبيب الحاذق لا يقدر أن يدفع عن نفسه العلل، فهو إذاً
سواء والهَمَل^(١). قال المتنبي:

يموتُ راعي الضأنِ في جهلهِ موتةَ جالينوسَ في طبِّه
[وقال]^(٢) غيره في معناه:

ما أفاد الرئيسَ معرفةَ الطِّبِّ ولا حُكْمُهُ على النَّيِّراتِ
ما شَفَاهُ الشِّفاءُ مِنْ عِلَّةِ المَوْتِ ولم يُنْجِهْ كتابُ النَّجاةِ
ونظم الشعر، كاسد الشعر. ومن جعله حرفةً ومكسبةً، كان للفقر
والحرمان مجلبة. وسيلة التكفُّف، وسبب النقصان والتخلُّف. وحرفة
الأدب بئس الاحتراف، وهي لعمر أبيك حرفة عن الخير أي انحراف. ولذا
قال من قال:

قالوا: تركتَ الشعرَ، قلتُ: ضرورةٌ
بابُ السِّماتِ والملاحَةِ مُغْلَقُ
خَلَّتِ الدِّيارُ فلا كَريمٌ يُرْتَجى
مِنْهُ النَّوالُ ولا مَليحٌ يُعْشَقُ

(١) الهَمَل: المهمل المتروك ليلاً ونهاراً بلا رعاية ولا عناية.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

حتى صار حال الأديب مثلاً في الضعف والضيق، وقول العامل في وصف نساء هواه به حقيق: [من الرجز]

أَضِيقُ مِنْ عَيْشِ الْأَدِيبِ ثَغْرَهَا أَضَعُفُ مِنْ حَالِ الْأَرِيبِ خَصْرَهَا

ومع هذا كله فهَبَّكَ أَتَقَنَّتَ جميعَ العلوم، وُوقَّتَ في المنطوق منها والمفهوم. وخرجت في التفسير عن النظير، وبلغت في الحديث والفقهاء نهاية التحرير. وأحكمت الفروع والأصول، وأحطت بالمنقول والمعقول. وحصل لك من الأذواق والمعارف، ما تُفَكُّ به الفصوصُ والعوارف. وُوقَّتَ القاضي والأستاذ في الكلام، وقهرت بحذقك عبدَ الجبَّارِ والعلَّافَ والنظام. وفي النحوِ ابني مالك وهشام. وأتقنت في التصريف الشافية، ولم يُفْتَكِ تحقيقاتُ شروحِ الكافية. ورقيت في السُّلَمِ المرونق، أعلى درجات سماء علم المنطق. وقرأت في البلاغة المفتاحَ والإيضاح، وزفَّتَ إليك عروسُ الأفراح. وأخذت اللغة عن الجوهرية والمجد، وشافهت في البيان السيد والسَّعد. ووصلت إلى أصول ابني السبكي والحاجب، بلا مانع لك عنها ولا حاجب، والحكمة عن الرئيس والحفيد، والإنشاء والترسُّل عن الفاضل وعبد الحميد وابن العميد، والأدب عن الحريري، ذي النسج البديع الحريري. وفي التاريخ الكامل وبيتمة الدهر، وديوان العبر ودمية القصر، ونفح الطيب، وإحاطة لسان الدين ابن الخطيب. وفي الجغرافية تقويم البلدان. وفي الهيئة الجغميني ذا الإتيقان. وجوَّدت بالطَّيِّبة والحِرْز، وفكَّكت كلَّ طِلْسَمٍ ورمز. ما غلت لك قيمة، وما كانت سيرتُكَ إلاَّ غيرَ مستقيمة. فإذا

كانت هذه مهماتِ الفنون، مَنْ أحرزها رجع بصفقة المغبون. فما
أنشد السعد لنفسه في المطوّل، هو الحق الذي لا شبهة فيه فعليه
المعوّل، وهو قوله:

[من الطويل]

طويْتُ بِإِحْرَازِ الْفُنُونِ وَنَيْلِهَا رداءَ شَبَابِي، وَالجَنُونُ فَنُونُ
فَحِينَ تَعَايَيْتُ الْفُنُونَ وَحَظَّهَا تَبَيَّنَ لِي أَنَّ الْفُنُونَ جَنُونُ

وهَبْكَ صرّت العلامّة الثاني، ما بلغت الأمانى. فسلم لي في
سلطاني، فالزمان زماني. والناس خُدّامي، والدهرُ عبدي وغلّامي.
وقد آن أن ترجع من حيثُ أتيت، وتموت كما كنت من قبل حييت.
وأنا نزلت إلى الأرض في هذه الساعة، وعلى أبنائي تقوم الساعة.
وليت شعري ماذا ينفعك ذكرُك السالفين من الأعلام، والمتقدّمين
من صالحى ملوك الإسلام. فرضى الله عن أولئك السلاطين، ورحم
برحمته الواسعة ميامين السلاطين. تلك أمة قد خلت، ورسومٌ درستُ
وعَفّت.

فهل بذكرهم ما مضى يُعاد، من رونق الأموي وبهجة الأزهرى
ومسجد قرطبة وفخامة الزيتونة وضخامة القرويين وشهرة المدارس الثمان
ونظامية بغداد؟! هيهات ما مضى فات، إن الفتى من يقولُ ها أنا ذا لا من
يفتخر بالرفات. مضى والله الذين كانوا يجلبون العلم ويكرمون العلماء
ويجيزونهم على التصانيف، ويبدلون لهم الرغائب ويمنحونهم التشاريف.
أما الآن فقد صار التصنيف مسخرة، لا مفخرة. والتحقيق مثلبة،
لا منقبة. فسلم لتسلم، ولا تعد تتكلم. وعلى ربك فتوكل، فالبلاء
بالمنطق موكل.

* * *

فلَمَّا طالت بينهما المشاتمة، وكاد الأمر يفضي إلى المضاربة والملاكمة. قام حينئذٍ الجميل الأوصاف، حلية المتقين والأشراف، المعروف بالإنصاف. فقال:

أيُّها الخصمان، دعا الشَّنَّان^(١). واتركا اللِّجاج، ولا تطيلا الحِجاج. وأنتما المتعاقبان على نوع الإنسان، والوصفان له اللّازمان. إن فقد هذا وجد ذلك، فبينكما بهذا المعنى اشتراك. وكلاكما من آثار القدرة، وبدائع الفطرة. وقد اقتضت الإرادة الأزليّة أن يكون العالمُ على هذا النظام: جهلاء وأعلام. فلو كان الناس علماء كلهم فمن ذا يقوم بالمهن، أو جهلاء كلهم فمن ذا الذي يحفظ الشرائع والسنن؟! .

وليست بينكما مضادة، ولا كبير معاندة، بل بينكما تقابل العدم والمَلَكَة، فاحذرا الهلّكة وسوء المَلَكَة، فالوفاق سكن إن شاء الله بينكما بركة.

وأنا أقضي بينكما بقضاءٍ فصل، وكلام جزل. فخيرُكما العالم العامل، ثم يليه المسترشد الجاهل. ولا خيرَ في غير ذين، من كلا الصنفين^(٢).

فانقضى الكلام، وافترقوا بسلام. وحُتِمت المقامة، بحمد أهل الجنة في دار المقامة. والصلاة والسلام على الفاتح الخاتم، وآله وصحبه وهي أحسن الخواتم. والغرضُ من تلفيق هذه الكَلِم، ونظمها في سمط

(١) الشَّنَّان: البغض.

(٢) في هذا الكلام نظراً! فكم بين العالم والجاهل من بون شاسع! وربنا سبحانه يقول: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

الحِكمَ - والله أعلم بالنيّات - إيقاظُ العزائم وتحريكُ الهِمَم. ختامَ سنةٍ
أربعَ عشرةَ وثلاثمائةَ وألفِ رابعِ الحجّةِ، جعلها الله لمنشئها وقارئها
وكاتبها وسائر من يعتني بها حُجّةً. انتهى.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم.



محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة المعني بالكتاب	٥
١ - مقامة في المفاخرة بين الماء والهواء	٩
ترجمة المؤلف: الشيخ أحمد البربر البيروتي	١١
مقدمة المؤلف	٢٣
أول المفاخرة	٢٧
٢ - المفاخرة بين الشمس والقمر	٥١
ترجمة المؤلف: الشيخ بهاء الدين البيطار الدمشقي	٥٣
مقدمة المؤلف	٥٥
أول المفاخرة	٥٦
٣ - غريب الأنباء في مناظرة الأرض والسّماء	٨١
ترجمة المؤلف: الشيخ محمد المبارك الجزائري	٨٣
مقدمة المؤلف	٨٧
أول المناظرة	٨٨
قصيدة بديعة في مدح النبي ﷺ	١١٠

الموضوع	الصفحة
٤ - نضرة البهار في محاوره اللّيل والنّهار	١١٩
مقدمة المؤلّف	١٢١
أول المحاوره	١٢٤
٥ - أبهى مقامه في المفاخره بين الغربه والإقامه	١٤٩
مقدمة المؤلّف	١٥١
أول المفاخره	١٥٢
٦ - مناظره بين العلم والجهل	١٨٥
ترجمه المؤلّف: الشيخ محمّد الديسي الجزائري	١٨٧
مقدمة المؤلّف	١٩٠
أول المناظره	١٩٠

* * *